تاريخ المصريين ١٩٣

الإمام محمد عبده

بين المنهج الديني والمنهج الاجتماعي

د. عبد الله محمود شحاتة



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

تصدر عن
الهيئة المصرية العامة للكتاب



الإمام محمد عبده

بين المنهج الديني والمنهج الاجتماعي

د. عبد الله محمود شحاتة



الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الصحافة
٢٠٠٠

الاشراف الفنى :

محمــود الجــزار

تقـــديم

يسرنى أن أقـدم للقـارىء الكريم هـذا الكتـاب عن « الامـام محمـد عبده بين المنهج الدينى والمنهج الاجتمـاعى » ، الذى كتبه الدكتور عبد الله محمود شحاته ٠ وهو فى الأصل رسالة علميـة حصـل بها صاحبهـا على درجة المـاجستير من جامعـة الأزهر ٠ وكان قد سبق نشره فى عـام ١٩٨٤ عندما كان الدكتور عبد الله شحاته يراس قسم الشريعـة بكلية دار العلوم بجامعـة القاهرة ، وقدم له الشيخ محمد أبو زهرة ورأينا اهميـة اغادة نشره فى سلسلة تاريخ المصريين ، لاستكمال الدراسـات التى نشرتهـا هذه السلسلة عن الشيخ محمد عبده ٠

والكتاب يتحدث عن منهج الامام محمد عبده فى تفسير القرآن الكريم ، الذى كان يتخذه أداة لمحاربة الأفكار الرجعيـة والتخلف فى فهم الدين ، ويدعو فيه الى الرجوع بالدين الى منابعه الأولى ٠

وقد قسم الدكتور عبد الله شحاته كتابه الى ثلاثة أبواب : الباب الأول ، وقد تحدث فيه عن حيـاة الامام الشيخ محمد عبده ، فتناول نسبه ، ونشأته ، وأساتذته ، وتعرفه بالشيخ درويش خضر ، وعودتـه الى طنـطا ، ودراسـته فى الجـامع الأزهر ، وتعرفـه بالأفغانى ، وتأثره به ، واهمية الامام ٠

أما الباب الثانى ، فقد تناول فيه منهج الشيخ محمد عبده فى تفسير القرآن الكريم ، مقارنا بمناهج المفسرين السابقين ٠ وقد

تحدث فيه عن أسس تسعة قام عليها منهج الامام محمد عبده ، وهى : اعتبار السورة وحدة متناسقة ، وعمومية القرآن وشموله ، واعتبار القرآن المصدر الأول للتشريع ، ومحاربة التقليد ، واستخدام المنهج العلمى ، وتحكيم العقل فى فهم القرآن ، وترك الأطناب فى الكلام عما ورد فى القرآن بصورة مبهمة ، والتحفظ فى الأخذ بما سمى بالتفسير المأثور ، والتحذير من الاسرائيليات ، والاهتمام بتنظيم الحياة الاجتماعية على أسس هدى القرآن ٠

أما الباب الثالث ، فقد تحدث فيه عن تلامذة الامام محمد عبده فى التفسير ، وتناول بصفة خاصة تلميذه السيد رشيد رضا ، فتحدث عن خصائص تفسير المنار للسيد رشيد رضا ، وتأثر صاحب المنار بابن كثير فى تفسيره للقرآن من حيث الاهتمام بالرواية والتوفيق بين النصوص المتخالفة فى الظاهر ، والعناية بأحداث التاريخ المتعلقة بالقرآن ، وتأثر الاثنين بابن تيمية ٠

كذلك تأثر صاحب المنار بالغزالى ، وهو ما يلاحظ فى نقله آراء الغزالى فى كثير من الموضوعات وفى جميع أجزاء المنار ٠

والكتاب على هذا النحو يقدم جانبا مهما من جوانب الشيخ محمد عبده ، ويرسم صورة قد لا يحيط بها المؤرخون ٠

وأملى أن ينتفع بهذا الكتاب الباحث المتخصص والمثقف العادي ٠

والله الموفق ؟

رئيس التحرير

أ٠ د٠ عبد العظيم رمضان

بسم الله الرحمن الرحيم

تعـــريف بالكتـــاب

ظهر الشيخ محمد عبده مع الفجر ، وقاد الصحوة والنهضة ، وحصـــل على الشهادة العالمية سنة ١٨٧٧ م واتجه الى الاصـــلاح والتوجيه والتربية والتعليم بكل قوته ٠

وكان يتخذ من تفسير القرآن منبرا يدعو فيه الى التعمق فى فهم القرآن ، وروحـــه العامة وهدايتـــه ، وادراك سر البيـــان والبلاغة ، والترابط اللغوى والفنى بين آياته وأفكاره ٠

وقد حارب التقليد والجمود ، ودعـــا الى استخدام العقل والفكر والرأى ٠

كمـــا حارب الرجعيـــة والتخلف فى فهم الدين ، ودعـــا الى العودة الى الروح العامـــة للاســـلام ، والأعتمـــاد على المراجـــع الأصلية لفهم الاســـلام ، والاعتمـــاد على القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، وتاريخ التشريع واعمـــال الصحابة ، وهدى السلف الصـــالح ٠

ودعـــا الى تعليم المرأة جميـــع فنـــون التعـــليم ، واحترام انسانيتها وتربيتها وتهذيبها ، وتعليمها الحقوق والواجبات ، حتى

تنشأ عزيزة كريمة ، فتكرم بكرامتها ، أبناءها وأحفادها ، وبذلك ترقى الأمة ، وتتماسك الأسرة ، وهذا الكتاب : (الامام محمد عبده بين المنهج الدينى والمنهج الاجتماعى) رسالة علمية ، بذل فيها جهد شاق متتابع ، وطبعت منذ فترة بعيدة ، ثم نفدت طبعاتها ، وأحسست بالحاجة الى نشرها ، وآمل أن يجد فيها المؤمن ما يقوى ايمانه ، وأن يجد فيها الباحث ما يساعده فى بحثه ، وأن يجد فيها المسلم نفحة روحية ، تعرفه بامام راسخ القدم ، له باع طويل فى فهم الدين ، وتفسير القرآن الكريم ، والدعوة الى التسامى والقوة والتطور والتقدم ، واليقظة الفقهية ، فالفقه قانون الحياة ، والحياة متطورة متغيره ، ويجب أن يتطور الفقه بما يوافق شرع الله من جهة ، وما يناسب مصالح الناس من جهة أخرى ٠

لقد كان الامام محمد عبده ، قوة باهرة أيقظت الأمة ، وحركتها فى فهم الدين والأدب ، والحياة الاجتماعية والتقدم العلمى والفكرى ٠

وآمل أن نجد فى هذا الكتاب ما ينفع ويفيد ان شاء الله ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ٠

١٩٩٩/٩/٢٠م

د٠ عبد الله شحاتة

تقـــديم

بقلم الأسـتاذ الشيخ محمد أبو زهرة

الحمد لله الذى أنزل القرآن برهانا ونورا مبينا ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أرسل بشيرا ونذيرا وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد ، فهذا كتاب فى بيان منهاج الامام محمد عبده فى تفسير القرآن الكريم وهو باكورة تأليف السيد عبد الله محمود شحاته ، وقد رأى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعيـة أن يتولى طبعه ونشره تشجيعا لكاتبه ، وليكون وراء هـذه الباكورة أنضج الثمرات وأينعها وأطيبها ان شاء الله تعالى .

١ ــ وقد ابتدأ الكاتب بذكر حياة الأستاذ الامام ناشـئا نشأته الأولى فى بيت ريفى ، لرب البيت فيه السلطة المطلقـة ، وقد بين هنا أثر أبيه فيه ، وكيف كان يهابه ويرهبه ويحبه معا ، ثم انتقل بصاحبنا الغلام الى الجامع الأحمدى . حيث يطلب العلم ، مشيرا الى حال المتعلم والمعلم فيه ، وطريقـة الدرس . وهنا تبدو من الغلام أول ثورة نفسية ، وذلك أنه لم يستطع أن يفهم مما يلقى عليه شيئا . ودفعته هذه الثورة الى الاعراض ، ثم الى ترك الدرس بعد سنة ونصف . واذا كان قد زهد فى العلم بعد أن رأى ما رأى فى السنة والنصف ، وبعد استغلاق مسـائل العلم عليه ، فان الله

سبحانه وتعالى قد هيأ له ما يرغبه فى علم الاسلام . ذلك انه قد قهره الأب المرهوب المحبوب على العود الى طلب العلم وهم بأن يفر هاربا ، ولكنه وجد المأوى والملاذ عند رجل صوفى ، له بأبيه قرابة خئولة ، فقد عرج عليه فى مهربه ، والرجل قد راض نفسه وسما بها ، وسبقت له تجارب أسفار ، وفيه قوة نفسية تؤثر وتجذب وتوجه ، فوجد فيه محمد عبده الثائر موجها مؤثرا ، فأخذ يقرأ عليه رسائل وكتبا فى التصوف الخالى من الشوائب ، وأخذ هذا يبث فيه النزوع الى المثل الانسانية والدينية العليا ، والتلميذ يتلقى ما يلقى عليه تلقى الصادى للماء العذب الفرات ، وتجاوبت النفسان ، والتقى القلبان . سأل التلميذ الشيخ : ما طريقتك ؟ فقال : الاسلام . وسأل التلميذ شيخه مرة أخرى : ما وردك ؟ فقال : لا ورد لى سوى القرآن تقرؤه مع الفهم والتدبر . فقال انى لى أن أفهم القرآن ولم أتعلم شيئا ؟ فأخذ الشيخ الموجه بيد تلميذه لينقذه من حيرته ، فقال : أقرأ معك ، ويكفيك أن تفهم الجملة ، وببركتها يفيض الله عليك التفسير .

٢ ــ أخذ الشاب محمد عبده طريقه ، فكان أمامه الاسلام والقرآن وفهمه ، وعلم ان السبيل الى ذلك هو تعلم علوم الاسلام وعلوم القرآن ، فعاد الى الجامع الأحمدى رغبا لا رهبا ، ففتحت الرغبة مغاليق عقله ، ففهم ما تعصى عليه فهمه من قبل ، ونبغ بين الطلبة ....

والجامع الأحمدى كان نهرا صغيرا من النهر الأعظم وهو الأزهر ، فتاقت نفسه لأن ينتقل اليه ، فشد رحاله الى القاهرة ، وفيها يلتقى بحكيم الشرق جمال الدين الأفغانى ، فوجد فيه الهدف الذى يقصده ، وجد فيه عقلا مشرقا نافذا ، واذا كان قد وجد فى الشيخ الصوفى توجيها سليما ، فقد وجد فى الشيخ الحكيم فكرا

مستقيما ، ونفسا متوثبة وارادة قوية خلاقة ، قد تعلو على كل من فى الوجود ، لتسجد لخالق الوجود ، وتفرده بحق المعبود ·

كان جمال الدين يعلم الحكمة ، ويوعز بالتفكير الحر ، واستقلال الفكر مع غيرة على الاسلام وأهله ، ورغبة فى جمع أشتات المسلمين ، وعمل على ذلك بازالة الغمة عن العقول ، واثارة الهمة للعمل ، وقد التقى به مع الشاب محمد صفوة من نبغاء الأزهر ، فبث فيهم نزعته بالتدريس والتوجيه وحسن الصحبة ، وما أخرج من مصر الا بعد أن بدت بوادر الثورة ·

٣ ـ تهيأ للشاب الأزهرى أن ينال شهادة العالمية ، فأخذ يكتب فى الصحف ، وقد بدأت العقول تتفتح ، كما تتفتح أكمام الورد ، وتولى رياسة تحرير الوقائع ، فاتخذ منها منبرا للتوجيه ، والدعوة الى الهدى والى صراط مستقيم ، وانضم اليه من تلاميذه وصحبه من عاونوه فى رسالته ، وقد قبسوا من علم جمال الدين ما قبس ، وكان لبعضهم فى الوطنية والعلم مقام مشهود ·

كل ذلك وبوادر الثورة السياسية قد ظهرت ، فخب فيها الامام محمد عبده ووضع ، ولما احتلت مصر بعد خيانة كبير حكامها كان الشيخ ممن أصابتهم عقوبتها ، فسجن ونفى ، ولكنه همة لا تفل ، وعزيمة لا تكل ، فالتقى بشيخه وصديقه جمال ، وأخذا يعملان على جمع شمل المسلمين · وبعد جهود مضنية من الرجلين ، رأى التلميذ أن اسلم طريق لايقاظ الأفهام تعليم المسلمين، ورأى الشيخ الأستاذ مع ذلك ضرورة ايقاظ الهمم ، فافترقا ، كل يعمل على منهاجه ·

أخذ يلقى محمد عبده دروسه فى الشام ثم لما عاد من منفاه أخذ يلقى دروسه الباعثة الموقظة بين الأزهريين ، وقد عين فى

منصب من أعلى مناصب القضـاء عسى أن يصرف عن رسالته التى حملها ، وصار وحده الحـامل لها ، وخصوصا بعد وفاة صديقـه جمال الدين ، ولكنه لم يصرف عنها ، لأنها منبعثة من قلبه وايمانه ، لا من تكليف حاكم ، أو من تعيين فى منصب ، ورسالته هى التعليم ، فأنشأ الجمعية الخيرية الاسـلامية للتعليم ، وعقد الندوات العلمية وألقى الدروس ٠

٤ ـ وكان الدرس الذى يمكنه من أداء رسالته العلميـة هو تفسير القرآن ، فهو معجزة الاسـلام ، وفيه شريعته ، وهو حبل الله الذى يعتصـم به المسـلمون ، وهو برهـان الله ونوره المبـين **« يهدى به الله من اتبع رضـوانه سبل السـلام ، ويخرجهم من الظلمـات الى النـور باذنـه ويهـديهم الى صراط مسـتقيم »** المـائدة ١٦ ٠

لقد وجهـه شيخه الصـوفى الى القرآن وتدبره ، واسـلم منهاج لتفسيره ، وهو فهم جملته ، ثم التوجه من بعد ذلك بصفاء نفسى الى معانيه الساميـة ، فانه لابد من أن تسمو نفس طالب علم القرآن ، حتى يعلو الى ادراك سـموه ، وانك لترى الامـام محمد عبده يتجه فى تفسيره اتجاها لم يسلكه أحد من المفسرين ، فان المفسرين من قبله كانوا اما أن يعتمدوا على الأثر ، واما أن يعتمدوا على ما تؤديه الألفاظ من معان وما يشتمل عليه القرآن فى الفاظه وجمله وأساليبه من بلاغة ، وقليل منهم من كان يغوص فى تدبر هذه المعانى ٠ واذا كانت معانى الألفاظ هى مفاتيح المعـانى كمـا قال الامام الغزالى ، فوراءها آفاق للتدبر والتأمل ، وقد حـاول الامام بالتزامه منهاج التدبر فى المعانى أن يوجه أذهان تلاميذه الى أسرار المعانى القرآنية ٠

وأنك تقرأ ما نقل من تفسيره ، وأحسب أن النقل كان مقربا لما قاله الامام وليس محققا لكل ما قال ، ولا مصورا لكل ما أراد ـ فتجد المحاولة الجدية لمعرفة ما فى آيات القرآن من مرام وغايات ، وتقرأ تفسير آيات كتبها بقلمه كتفسير قوله تعالى : ((**كان الناس أمة واحدة**)) فتجد فيها المحاولة بينة رائعة عظيمة ٠

٥ ـ والامام فى تفسيره كان حريصا على تنقية الاسلام وتفسير القرآن من الشوائب ، فان طائفة كبيرة من الاسرائيليات دخلت القرآن فكانت حجابا حاجزا عند بعض المفسرين دون التغلغل فى ادراك معانيه ، فكان من عمل الامام فى درسه أن أزال هذه الغواشى فيما نشر ، لتبدو صفحة القرآن متألقة ونورها مبينا ٠

وان تلك الغواشى كانت كثيفة الى درجة أن وقع بعض كبار المفسرين فى أغلاط بسببها ، واذا كان العابثون بالديانات السماوية قد حرفوا الكلم عن مواضعه فى بعضها ، فانهم قد عجزوا عن ذلك فى القرآن ، لأن الله حفظه ، ولأنه بأسلوبه فوق تحريف المحرفين ، وأى كلام يلحق به يبدو بادى الرأى مميزا ولم يحاول أحد ذلك لعجزه ابتداء ، وقد حفظ متواترا فى الصدور لا فى السطور ، فلا سبيل لمحرف أن يصل اليه ، ولكن أولئك جاءوه من تلك الاسرائيليات ليشوهوا جماله ٠ ولكن كان فى كل عصر من أئمة الحق من يرد زيفهم ، وكان آخرهم الأستاذ الامام ٠

ولقد كان الامام يقرأ ما يقرأ حتى أنه كان يقرأ نحو خمسة وعشرين تفسيرا ، ما بين مطبوع ومخطوط ، ولكنه يستعين بمجموعها ، ليصل الى لباب المعنى ، لا لينقل ما فيها ، أو يتيه فيما يقرأ ٠

وكان يتخذ من منبر القرآن طريقا لبيان البدع والأوهام ، وما فرق أمر المسلمين بعد الاجتماع ، ويوضح الفرقة الفكرية

والسبيل الى تلاقيها على مائدة القرآن ، والأخذ من ورده الصفى ، وعلمه النقى .

ولقد تكونت مدرسة من العلماء والمثقفين تطلب علم الامام وترويه وتنشره ، ومن أقوى هذه المدرسة تأثرا بالامام السيد رشيد رضا رحمه الله وعفا عنه ـ فهو راويه وناقل علمه الينا نحن الذين لم نستمع الى الامام وان استمعنا الى صحابته المخلصين له .

ولكن تفسير المنار قد اشتمل على أمرين لم يكونا فى تفسير الامام :

أولهما ـ العناية بدعم التفسير بالمأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك بلا ريب خير كله .

وثانيهما ـ النقل الكثير من المفسرين ، وان السبب فى ذلك أن الامام كان يلقى درسا ، فكان يلقى ما تمثل فى عقله وقلبه مما قرأ وتأمل وتدبر فى القرآن ، ولأن كل همة نفسه كانت متجهة الى لباب القرآن .

٦ ـ وقد نبه السيد رشيد الى بعض أخطاء للامام فى أدب ، ووفاء ، ولكن ذلك لا يعليه الى مرتبته ، ولا ينزل الامام الى طبقته ، فالناس منازل فى العلم ، وحسب امام الجيل أنه فتح عين الطريق ، فاستقى منها كل وارد وكان أشد الناس منها تلميذه وصفيه السيد رشيد ، ولكل مقام معلوم .

وقد خاض السيد الكاتب خوضا شديدا نوافقه فى بعضه ونخالفه فى بعضه ، ولكنا فى الموافقة والمخالفة نقدر اجتهاده ، وهو فيه مجزى من الله تعالى .

والله ولى التوفيق ؟

محمد أبو زهرة

مقـــدمة

تجتــاح الشرق العربى تيارات مختلفــة تحــاول أن تعصف بالمواريث والقيم التى ميزت هــذا الشرق فكان مهبط الرســالات ومبعث النبوات ٠

ويحاول الاستعمار أن يستعين بكل السبل للقضــاء على مجد العروبة والاسلام ٠

انه يرى فى الاســلام عملاقا ضخما وماردا جبارا ، ايقظ العرب وانتشر ففتح البــلاد ودانت له العبـــاد واخضـــع الأكاسرة والقيــاصرة ٠

كما قال الشاعر محمود غنيم :

يا من رأى عمرا تكسوه بردته والزيت أدم له والكوخ مأواه

يهتز كسرى على كرسيه فرقا من بطشه وملوك الروم تخشاه

ولقد حمل الحقد الصليبى حملاته المتكررة على بلاد العروبة والاسلام طوال قرنين من الزمان ٠

« يريدون ليطفئــوا نــور الله بأفواههــم والله متم نــوره ولو كره الكافرون » الصف ٨ ٠

وكان من اتمام الله نوره اختياره صلاح الدين الذى أنقذ بيت المقدس من يد الصليبيين ، وأراهم كيف تكون الهزيمة فى حطين ٠

وفى هذه الأيام توجهت حملات تبشيرية من الشرق والغرب ٠

وكلها تلتقى على الكيد والدس للاسلام والمسلمين « **يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون** » ٠ البقرة ٩ ٠ ولقد كان السيد جمال الدين الأفغانى من أول من نبه لهذه الدسائس والمؤامرات فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، فطاف بالبلاد الاسلامية يوقظها من سباتها ، ويحيى فيها روح الكفاح والدفاع ٠ وينادى حكامها بالديمقراطية والحياة النيابية ويناضل الاستعمار الأوربى ٠ ويشن حملاته على الاستعمار الانجليزى ، حتى أزعج السلطات البريطانية فى الهند ومصر وبلاد الأفغان ، وقضى السيد نحبه فى الآستانة وقد ترك أثرا حسنا وشعورا مهيأ وأرضا صالحة وغرسا يحتاج الى التعهد ٠

فكان الشيخ محمد عبده خير من نهض بهذه الرسالة ٠

وأيقن الأستاذ الامام محمد عبده : أن التربية الحقيقية واصلاح شأن الأمة وتقويم أخلاقها وتعليم بنيها ومحاربة الفساد فيها ، كل ذلك كفيل بأن يهيىء البلاد لحالة أسلم وأحسن متمثلا قوله تعالى : « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** » النحل ١٢٥ ٠ وانطلق الأستاذ الامام شعلة متقدة من النشاط المثمر والعمل النافع ٠ فتراه يسهم فى نجدة المنكوبين واغاثة الملهوفين وينشىء الجمعيات الخيرية ، ويدعو الأغنياء الى البذل والعطاء ٠

ويحيى اللغة العربية وينهض بالصحافة ، ويتخذ من « الوقائع

الرسمية » منبرا لتوجيه الأمة والرقى بأخلاقها وتهذيب عاداتهـا وطباعهـا ٠

ويلهب نار الثورة العرابية ، ويجابه الحـاكم ويحارب ظلمه وبطشه ، ويتحمل النفى فى اباء ، محاولا أن يزيح كابوس الاستعمار عن الشرق وأن يبعث همم الشرقيين ومجد المسلمين ٠

ويعود الامام من منفـاه ويرضى عنه الخديو فلا يشغله ذلك عن هدفه ولا يمنعه من تربية الأمة وهو على منصة القضـاء يدعوها الى التراحم والتكافل والبر والتعـاون وينادى بتدعيم الأسرة ٠ وصلة الرحم وتربية النشء والاهتمام بأوامر الدين ٠

ويتولى الافتاء فترى رجـلا جديدا فى فتاويه ، يعرف آراء المعتزلة ، ويعجب بالامام أحمد ابن تيميـة ، ويرى تقدم الغرب وتفوق أممه ٠

فيتهمه بعضهم بأنه يميل الى المعتزلة ويرجح آراءهم ، ويقول آخرون انه سنى سلفى وهابى ٠ ويتهمه آخرون بالتفرنج وممالأة الانجليز والسعى فى بلادهم ومصادقة حكامهم والاتصال بفلاسفتهم والأخذ عن آرائهم ٠ ويعترض الجميع قائلين :

« ما هذا الشيخ الذى يتكلم باللغة الفرنسية ، ويسيح فى بلاد الافرنج ، ويترجم مؤلفـاتهم وينقل عن فلاسـفتهم ويباحث علمـاءهم ، ويفتى بما لم يقل به أحد من المتقـدمين ويشترك فى الجمعيات الخيرية ، ويجمع المـال للفقراء والمنكوبين ؟ ان كان من أهل الدين ، فليقض حياته بين الجـامع والبيت ٠ وان كان من رجـال الدنيـا ، فانا نراه يعمل فيهـا وحـده أكثر من جميـع النـاس » ٠

والحق أن الشيخ محمد عبده لم يكن معتزليا ولا سلفيـا ولا افرنجيـا ٠

لقد جمع محاسن هذه الأشياء وتخلص من مساويها ٠ وكون لنفسه رأيا خاصا ، وشخصية مستقلة تعتمد على القديم من تراثنا وتخرجه للناس فى ثوب مناسب للحضـارة ، ملائم للحياة ، موافق لمصـالح الناس ٠

ووجد الامام فى القرآن مصـدر الهداية ((**ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم**)) ٠ رآه المدرسـة التى تخرج فيها المسلمون الأولون أمثال أبى بكر وعمر وخالد وأبى عبيدة وزيد بن ثابث وغيرهم ، فشرع يفسر القرآن الكريم ٠ ويتخذ منه وسيلة للنهوض بالمجتمع واصـلاح شأن الأمة الاسلامية ٠ فكان تفسيره للقرآن فتحا جديدا فى عالم التفسير ٠

لقد كان طالب التفسير يلتمسه فى التفاسير السابقة فيجد فيها كل شىء الا التفسير ٠ نجد بعضها يهتم بالقواعد والاعراب ، أو البلاغة والبيان ، وبعضها يهتم بآراء الفرق الاسلامية والتعصب لها أو الرد عليهـا ، وبعضها يهتم بالقراءات ، وبعضها يورد آراء الفقهاء ٠ حتى ظهر تفسير الأستاذ الامام فعاب ما فى هذه التفاسير من الشغل عن التفسير ٠

وقد فسر الامام سورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وجزءا من سـورة النساء حتى الآية (١٣٥) كما فسر جزء (عم) ٠ وكان تلميذه الوفى المخلص السيد رشـيد رضا صاحب الفضـل فى حفظ تراث الامام ، واكمال تفسير المنار حتى سـورة يوسف ، وتوفى بعد أن فسر قوله تعالى : ((**رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تاويل الأحاديث فاطر السـموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين**)) يوسف ١٠١ ٠

وقرأت تفسير الامام ، فرأيت رجلا يريد أن يبنى أمة ويبعث مجدا ويثير حضـــارة على أساس من كتاب الله وهدى قرآنه الكريم. فاستعنت بالله وطلبت منه أن يوفقنى فى تتبع ما كتبه الامام ومقارنته بما كتبه المفسرون السابقون ، وسميت الكتاب :

الامام محمد عبده بين المنهج الدينى والمنهج الاجتماعى .

لقد رســم الأســتاذ الامام من القرآن منهجا تربويا للأمـة الاسلامية . يبعث مقوماتها ويثير أمجادها وينادى بآداب القرآن من الشجاعة والكرامة والحفـاظ . ويطالب بالتعـاون والتواصى بالحق والجرأة بالرأى ومحاربة الظلم والتعاون على الحق كمـا تأمر آيات القرآن .

وحارب جمود الفقهاء وتقليدهم ، وتقديم المذاهب على القرآن فأعاد للقرآن والسنة مكانهما الأول من التشريع . ودعا المسلمين الى استخدام عقولهم وتفكيرهم حتى يحققوا أمر القرآن من جهة . وينهضوا بحياتهم ويستفيدوا من التقدم العلمى الذى أحرزه الغرب من جهـة أخرى .

وحارب الامام الخرافات التى شاعت بين العوام فى عصره عن كرامات الأولياء وشفاعة الأبدال والأنبيـاء وما يتعلق بأذهانهم من الجن والسحر وغيرها على نحو ما صنع الامام ابن تيمية وابن القيم وابن عبد الوهـاب فى محاربـة البدع والرجوع بالاســلام الى أصــوله الأولى .

والتزم الامام فى تفسيره الطابع العلمى . فلم يلتمس تفسير القرآن فى القصص والاسرائيليات . بل قال ان خير ما فسر القرآن القرآن .

ورفض كل قصة أو اطناب فى وصف ليس له سند صحيح من القرآن أو السنة ٠

ودافع الامام عن العقائد والمثل الاسلامية وبين قيمتها وأهميتها التاريخية والعلميـة ٠ ودعـا الى اعتبـار القرآن جميعه وحدة متماسكة لا يصح الايمان ببعضه دون بعض ، وبين أن فهم بعضه متوقف على فهم جميعه ٠

وان فى كل سورة من سور القرآن روحا يسرى فى آياتهـا ويسيطر على مبادئها وأحكامها وتوجيهاتها وأسلوبها ٠

وأخـيرا لقد كان هـذا التراث الذى تركه الامـام معينـا لا ينضب ٠ استقى منه أساتذة هذا الجيل ، وتأثر بالأستاذ الامام كل مفكر حر وكل عالم مجتهد فى النصف الأول من هذا القرن ٠

فما أجدرنا ونحن نبنى مصر الجديدة فى ثورتها ونهضتها أن نقدم من « حياة الأستاذ الامام ومنهجه فى تفسير القرآن الكريم » زادا لهذه النهضـة ، يوضح أن عندنا رصيدا من القرآن والاسلام والتفسير يغنينا عن غيرها من المبادىء الهدامة والمذاهب الأرضية ، وشتان بين وحى السـماء وعمل الأرض ٠

« أفحكم الجاهلية يبغون ٠ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » ٠

لقد كان هذا البحث تلبية لدواعى الوطنية والقومية العربية والنهضة الاسلامية ٠

واستجابـة لقرارات مؤتمر الثقافـة والفنون التى أذيعت ونشرت بجريدة الجمهورية فى ١٥ من شوال سنة ١٣٧٨ هـ ـ ٢٣ من ابريل ١٩٥٩ م ٠

وقد تضمنت هذه القرارات : أن القومية العربية حقيقة واقعة تربط الأمة العربيـــة بروابط الدم واللغة والتراث الروحى والثقافى المشترك . وأن اقامة المجتمع العربى على أساس من الاشتراكيـــة الديمقراطية التعاونيـــة امتداد لتاريخنا وتطور طبيعى لمجتمعنا . وأن الاستعمار والصهيونية والتبعية والشيوعية على اختلاف صورها وشعاراتهـــا دخيلة على هذا المجتمع ومناهضـــة لمبادئه واهدافـــه ومقدساته . وتعبئة جميع قوانا الروحية والمـــادية لدفع أية محاولة ترمى الى النيل من القومية العربيـــة أو المساس ببنـــاء مجتمعنا الاشتراكى الديمقراطى التعاونى .

وعلى هدى هذه القرارات قررت اللجان الفرعية المتخصصة ما يلى :

لجنـــة التراث الفنى : أن يستخلص من الكتب القديمـــة والمراجع الدينية النصوص التى تحقق المعانى الروحية . والعبارات وأثرها فى تربيـــة الضمير الاجتمـــاعى والكرامة الانسانية والعدالة الاجتماعية والتعاون الانسانى فى الأسرة والمجتمع ، والحرية والتكافل الاجتماعى وتكوين راى عام فاضـــل يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر . وأن تعد تراجم لأعلام الحضـــارة وأحاديث عن البطولة وعمل مجموعات من الصور عن آثارنا واصـــدار كتيبات عنها ونشر القيم المـــأخوذة من تراثنا القديم .

من أجل هذه المعانى شرعت فى وضع هذه الرسالة .

والله أســـأل أن ينفع بهـــا ،

وان يجعلهـــا خالصـــة لوجهه .

وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

عبدالله محمود سحاته

البـــاب الأول

حيـاة الشـــيخ محمــد عبده

نسبه ـ نشأته ـ أساتذته ـ تعرفه بالشيخ درويش خضر ـ عودته الى طنطا ـ دراسته فى الجامع الأزهر ـ تعرفه بالسيد جمـال الدين الأفغانى ـ تأثره بالسـيد جمال الدين ـ عظمة الامام •

حيـاة الشـيخ محمـد عبده

نسـبه :

هو محمد بن عبده بن حسن خير الله ٠

ولد فى قرية محلة نصر مركز شبراخيت ، مديرية البحيرة ، تبعد عن دمنهور بنحو خمسة عشر كيلو مترا ، وهى واقعـة على ترعة تسمى الترعة الأنصارية ٠

ولم يكن أبوه من أهل الغنى والجـاه او الحسب والنسب ولكنه كان من أهل المروءة والنجدة والانسانيـة ٠ ونحن نشـاهد أن كثيرا من الناس تغرهم أنسابهم وتقعدهم أحسابهم عن عمل الخير والتسابق الى المكرمات ٠

ولكن الاسلام لا يعتد بالحسب والنسب قدر ما يعتد بالعمل والسيرة الحسنة ٠ وانا لنرى عبيدا او موالى ارتفع قدرهم فى فجر الاسلام ، فبلال وصهيب وسلمان كان لهم شرف الصحبـة بالنبى عليه الصلاة والسـلام ومدحهم القرآن ٠ بينما ذم أبا لهب الحسيب النسـيب ٠

وقال الشـــاعر :

لعمــرك ما الانســـان الا ابن دينــه
فلا تترك التقوى اتكالا على النسب

لقد رفــع الاســـلام ســـلمان فارس
كما وضـــع الشرك الحسيب أبا لهب

والنبى عليه الصلاة والســـلام كان ينادى قرابته فيحذرهم من الاعتماد على انسابهم ويقول لهم : ((**يا آل محمد لا ياتينى الناس بالأعمال وتأتونى بالأنساب**)) ٠

والله تعـــالى يقول : ((**فاذا نفخ فى الصــور فلا انســاب بينهم**)) المؤمنون ١٠١ ٠

العبرة اذن فى الشرف والسيادة هى كمال الفطرة وســلامة النفس وهمة المرء وسيرته الحسنة ٠

فاذا انضم الى ذلك شرف النسب كان زينا وكمالا ٠ ولم يضر محمد عبده أنه من أسرة فقيرة من أعماق الريف ، فقد كانت أخلاقــه أخــلاق الملوك ، حتى قـــال له جمـــال الدين ذات مرة : « أخبرنى ، ابن من من الملوك أنت ؟ » ٠

ولم يكن جمال الدين الأفغـــانى ليعتز بنفسه وحسبه قدر ما يعتز بفكرته ودعوته للاصلاح ونهوض المسلمين ٠

واسرة جمال الدين على عراقتها فى الحسب والنسب لم تخرج غير جمال الدين ، واسرة محمد عبده على بساطتها لم تخرج غير محمد عبده ٠ فالشرف ليس بالحسب أو الضعة ، وليس بالغنى أو الفقر ، بل هو فضل الله يؤتيه من يشاء ٠

وكم أب قد علا بابن ذرا شرف ... كما علت برســول الله عدنان

ورب شرف يلحق الأسرة من أبنائهـا فيعوضهـا عن شرف آبائهـا ٠

وكان عبده خير الله ، والد الشيخ محمد عبده ، من هـذا الصنف الذى تميز بأخلاقه وسيرته وانسانيته ٠ قال الامام ـ رحمه الله ـ فيما كتبه من تاريخ حياته :

« كنت أعتقد أن والدى أعظم رجل فى القرية وكل من فيهـا دونه ، وهو بذلك أعظم رجل فى الدنيـا ، فان الدنيا لم تكن أوسع عندى من محلة نصر ، وكان ينزل عنده بعض الحكام ولا ينزلون فى بيت العمدة ـ مع أنه أغنى وأكثر دورا وأرضين ٠ ونشـأ فى الاعتقاد بأن الكرامة وعلو المنزلة لا يتعلقان بالثروة وكثرة المـال وكنت أعقل من صغرى ما كان عليه والدى من ثباته فى عزيمته وشدته فى المعاملة وقسوته على من يعاديه ٠ واخذت عنه ما عدا القسوة ٠

أما والدتى فكانت منزلتها بين نساء القرية لا تنزل عن مكانة والدى ٠ وكانت ترحم المساكين وتعطف على الفقراء ، وتعد ذلك مجدا وطاعة لله وحمدا »(١) ٠

نشـأته :

نشأ الأستاذ الامام فى جو ريفى ، بعيدا عن المدن ٠ والنشأة فى القرى البعيـدة أعون على خـلوص النظر من تصـنع البـلاد المتحضرة ٠

ولد الامام فى بيت يشتغل أهله بالزراعـة ، وجميع اخوتـه يساعدون أباهم فيها ، ولكن والده اختاره للقرآن وأخلصه للتعلم ، وقد يكون ذلك الاختيار بمحض الصدفة ٠

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ١ ص ١٤ ٠

ـ فانا نشاهد فى الريف كثيرا من الأسر المتوسـطة والفقيرة تختار بعض بنيها للعلم اذا صـادفت سنو نشأته بعض اليسر فى الأسرة ٠

واذا كان اختيار الامام للعلم صدفة ٠ فقد باركها الاستعداد الطيب عند الفتى ٠ فقد حفظ القرآن الكريم فى فترة وجيزة جعلت والده يأمل فيه الخير ٠

ويرى المرحوم الأسـتاذ مصطفى عبد الرازق أن والد الامام اختاره للتعلم دون سائر اخوته لمنزلته عند أبويه ٠

ـ ويدلل على هذه العناية بأن اباه علمه القرآن على معلم خاص ، وأن أمه لم تصبر طويلا على سفره الى الجـامع الأحمدى فذهبت لتراه بعد خمسة عشر يوما ، وأن أباه زوجه وهو صغير ٠

وربما كان ذلك كله راجعا الى طبيعة الوالدين من العنايـة بجميع الأبناء كل فى مهنته وحسب ظروفه من غير تفضـيل لواحد منهم على الآخر ، وهذا ما يسـمى فى التربيـة بتكافؤ الفرص لا تماثل الفرص ، وتكافؤ الفرص هو أن يهيأ أمام المواطن فرصـة تناسب مواهبه وميوله ٠ ولا يلزم أن تتماثل مع مواطن آخر يختلف عنه فى ذكائه واستعداده وميوله ٠

وقد صادفت نشأة الامام استقرارا فى الأسرة وبعض اليسر ٠ لأن والد الامام اضطر للهجرة من محلة نصر مع أولاده فرارا من قسوة الحكام وظلمهم ٠ وتزوج فى هذه الفترة من السيدة « جنينة » والدة الامام ٠ ثم عـاد الى وطنه محلة نصر واسترد بعض أملاكه ، وولد الامام فى فترة الاستقرار هذه عـام ١٢٦٦ هـ ـ ١٨٤٩ م ٠ والاستقرار المـالى فى الأسرة كفيل بأن يهيىء للابن الجديد فرص التعليم التى حرم منها اخوته الآخرون ٠

وعلى كل فما كان فى علم الأب أن ابنه سيكون اماما للاسلام والمسلمين ، فلعلها العناية الالهية هى التى دفعت الأب الى اخلاص ابنه للتعليم بتوفيق الله وارادته كما قال عليه الصلاة والسلام · ((**ان الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها**))(١) ·

على أننا نرى الامام قد هرب من التعليم وفر من الجامع الأحمدى لأن أسلوب التعليم لم يوافقه ــ ولكن أباه أجبره على العودة اليه ، ولو كان أبوه يدلله لأبقاه بجواره ·

وقد كان والد على باشا مبارك يصر على بقاء ابنه على بجواره حبا له وايثارا لقربه على تعليمه · ولكن على مبارك فر من والده والتحق بالمدرسة(٢) · والامام يخبرنا أن والده كان قاسيا فى معاملته يأكل وحده ولا يأكل أحد معه · قال الامام :

«وقر فى نفسى احترام والدى ونظرت اليه أجل الناس فى عينى وسكن من هيبته فى قلبى ما لا أجده لأحد من الناس اليوم عندى · أما عوامل هذا الاحترام وذلك الاجلال فأتذكر منها قلة الكلام أمامى ، ووقارا كان فى الحركات والأعمال والهيئة ، والتنزه عن مخالطة الصغار من الناس ومشاهدتى أهل بلدتى يحترمونه ويبالغون فى توقيرهم اياه ، وانفراده بالطعام دون والدتى واخوتى ، فكان ذلك آية العظمة عندنا ، فان ما كان يواكل نساءه وأولاده فى تلك الأوقات الا الفقراء وأهل الطبقة السفلى من أهل القرية »(٣) ·

---

(١) رواه ابو داود والحاكم والبيهقى فى المعرفة عن ابى هريرة · وانظر تاريخ الأستاذ الامام جـ ١ ، ص ٩٧٤ للتعليق على هذا الحديث ·

(٢) كتاب بناة النهضة العربية لجورجى زيدان ص ١٣٠ ·

(٣) تاريخ الاستاذ الامام جا ص ١٣ ·

وهذه صفات تتوافر فعلا فى كبــار النفوس من أهل القرى ، ولكن لا تسمح لأصحابها بتفضيل بعض الأبناء على الآخرين .

وما قدمته رأى أراه بحكم نشأتى فى الريف لا حقيقة أثبتها . وقد يجتمع الرأيان لأن اختيار الانســان للتعليم تتداخل فيه عوامل عدة ، منها الاستقرار فى المسكن واليسر فى المعيشــة وظهور الذكاء على التلميذ . وان كان بعض عظماء الرجال فى العالم لم يبد منهم اى ذكاء فى صغرهم . والذكاء نفســه لا يظهر الا بالاحتكاك بمواقف الحياة . وقد احتك محمد عبده بهذه المواقف فى الجامع الأحمدى وأخفق فيها واجتازها كثير غيره .

وسواء أكان اختيار الامام للتعليم بمحض الصدفة ، أم لتميزه على سائر اخوته ، فانه حفظ القرآن الكريم ، وذهب الى الجــامع الأحمــدى ليتعــلم تجويد القرآن . وفى الريف ينتشر قولهم : « لا علم الا أزهرى ، ولا قرآن الا أحمدى » .

ونجح الامام فى تعلم التجويد وأتم فنونه فى سنتين على الوجه الأكمل . وفى سنة (١٢٨١ هـ ـ ١٨٦٤ م) جلس فى دروس العلم فى المسجد الأحمــدى ، لكن منهج التعليم كان وعرا شاقا ، يتبع الطريقة التقليدية التى تعتمد على الحفظ وحشو الذهن بالمعلومات. وعلى أن المعرفة مقصودة لذاتها .

ـ قال الامام فى الترجمة التى كتبها لنفسه :

« وقضيت سنة ونصفا لا أفهم شيئا لرداءة طريقة التعليم فأدركنى اليأس من النجــاح وهربت من الدرس ، واختفيت عند أخوالى مدة ثلاثة أشهر ، ثم عثر على أخى ، وأخذنى الى المسجد الأحمدى وأراد اكراهى على طلب العلم ، فأبيت وقلت له : قد أيقنت أن لا نجــاح لى فى طلب العلم ، ولم يبق على الا أن أعود

الى بلدى ، وأشتغل بملاحظة الزراعة كما يشتغل الكثرة من اقاربى ، وانتهى الجدل بتغلبى عليه . واخذت ما كان لى من ثياب ومتاع ورجعت الى محلة نصر على نية الا أعود الى طلب العلم ، وتزوجت فى سنة (١٢٨٢ هـ ـ ١٨٦٥ م) على هذه النية »(١) .

وقد ترك الاخفاق فى طلب العلم أثرة السيىء فى نفس الشيخ محمد عبده وعبر عن هذا الأثر بقوله :

« فهذا أول أثر وجدته فى نفسى من طريقة التعليم فى طنطا وهى بعينها طريقته فى الأزهر . وهو الأثر الذى يجده خمسة وتسعون فى المائة ممن لا يساعدهم القدر بصحبة من لا يلتزمون هذه السبيل فى التعليم . غير أن الأغلب من الطلبة الذين لا يفهمون ، تغشهم أنفسهم ، فيظنون أنهم فهموا شيئا فيستمرون على الطلب الى أن يبلغوا سن الرجال ، وهم فى أحلام الأطفال ، ثم يبلى بهم الناس وتصاب بهم العامة ، فتعظم بهم الرزية ، لأنهم يزيدون الجاهل جهالة . ويضللون من توجد عنده داعية الاسترشاد ويؤذون بدعاويهم من يكون على شىء من العلم ، ويحولون بينه وبين نفع الناس بعلمه »(٢) .

أساتذته :

هيأ الله للامام أساتذة من نوع ممتاز استطاعوا أن يكبحو جماح نفسه ويحببوا اليه العلم والمعرفة بعد أن يئس من الدراسة وتزوج واعتزم على فلاحة الأرض .

وقد تتلمذ الامام على عدد من الأساتذة تميز كل منهم باتجاه

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جا ص ٢٠ .

(٢) تاريخ الاستاذ الامام جـ١ ص ٢١ .

خاص . وتفاعلت فى الامـام عنـاصر التوجيــه الروحى والأدبى والفلسـفى .

فكان أستاذه الروحى الشيخ درويش خضر . وكان أستاذه فى الأدب الشيخ محمد البسيونى . وكان أستاذه فى الفلسفة الشيخ حسن الطويل وكان أستاذه فى الدعوة حكيم الاسلام جمال الدين الأفغـانى .

تعرفه بالشيخ درويش خضر :

التقى الامام بهذا الشيخ عرضـا وبدون قصـد فقد أجبره والده على الرجوع الى طنطا لطلب العلم . ولمـا كان الامام يائسا من متابعة الدراسـة فى الأزهر فقد هرب فى قرية « كنيسة أورين » وهى قرية من قرى شبراخيت غالب سكانها من خئولة أبيه ، وهناك اتصل بمعلمه الأول ومفتاح سعادته الشيخ درويش خضر أحد أخوال أبيه وهو رجل سبقت له أسـفار الى صحراء ليبيا ووصـل الى طرابلس الغرب ، وجلس الى السـيد محمـد المدنى والد الشيخ ظافر ، وتعلم عنده شيئا من العلم وأخذ عنه الطريقة الشاذلية وكان يحفظ بعض كتب الحديث ويجيد حفظ القرآن وفهمـه . ثم رجع من أسفاره الى قريته ، واشتغل بالزراعة .

وكان الشـيخ درويش من النوع الممتـاز من المربين ، يهتم بالتربية قبل أن يهتم بالتعليم وهى طريقة كبار الصـوفية الذين كانوا يغرسـون فى نفوس أتباعهم الأذواق والمواجد لا عن طريق التلقين والتحفيظ ولكن عن طريق المشاهدة والقدوة الحسنة .

كان الشيخ من الصوفية قدوة طيبـة لمريديه وأتباعه ــ فى حاله وهيئته وصلاته ومناجاته لله ، وحسن فهمـه للدين . وكان

يجمع حوله مريديه ويربيهم ويؤثر فيهم بنفسه القوية الخبيرة بعلل النفوس وادوائها .

وقد استطاع الشيخ درويش خضر أن يكبح جماح الفتى الهارب . وان يحول بغضه للتعليم الى حب شديد ، وأن يصرف نفسه عن اللهو والعبث الى حب للمعرفة والدرس . وقد حكى الامام لنا هذه الطريقة التربوية فقال : « جاءنى هذا الشيخ وبيده كتاب يحتوى على رسائل كتبها السيد محمد المدنى الى بعض مريديه بالأطراف بخط مغربى دقيق ، وسألنى أن أقرأ له فيها شيئا لضعف بصره فدفعت طلبه بشدة ولعنت القراءة ومن يشتغل بها ونفرت منه أشد النفور ولما وضع الكتاب بين يدى رميته الى بعيد لكن الشيخ تبسم وتجلى فى ألطف مظاهر الحلم ولم يزل بى حتى اخذت الكتاب وقرأت منه بضعة أسطر فاندفع يفسر لى معانى ما قرأت بعبارة واضحة تغالب اعراضى فتغلبه وتسبق الى نفسى . وبعد قليل جاء الشبان يدعوننى الى ركوب الخيل واللعب بالسلاح والسباحة فى نهر قريب من القرية فرميت الكتاب وانصرفت اليهم . وبعد العصر جاءنى الشيخ بكتابه وألح على فى قراءة شىء منه فقرأت وفسر ، ثم تركته الى اللعب ، وفعل فى اليوم الثانى كما فعل فى الأول ، أما اليوم الثالث فقد بقيت أقرأ له فيه وهو يشرح لى معانى ما أقرأ نحو ثلاث ساعات لم أمل فيها ، فقال لى أنه فى حاجة الى الذهاب الى المزرعة ليعمل بعض العمل فيها فطلبت منه ابقاء الكتاب معى فتركه ، ومضيت اقرؤه وكلما مررت بعبارة لم افهمها وضعت عليها علامة لأسأله عنها الى أن جاء وقت الظهر ، وعصيت فى ذلك اليوم كل رغبة فى اللعب وهوى ينازعنى الى البطالة ، وعصر ذلك اليوم سألته عما لم أفهمه فأبان معناه على عادته وظهر عليه الفرح بما تجدد عندى من الرغبة فى المطالعة والميل الى الفهم » .

« كانت هذه الرسـائل تحتوى على شيء من معارف الصوفية وكثير من كلامهم فى آداب النفس وترويضها على مكارم الأخـلاق وتطهيرها من دنس الرذائل وتزهيدها فى الباطل من مظـاهر هـذه الحيـاة الدنيا » .

« لم يأت على اليوم الخامس الا وقد صـار أبغض شيء الى ما كنت أحبه من لعب ولهو ، وفخفخة وزهو وعـاد أحب شيء الى ما كنت أبغضـه من مطالعة وفهم ، وكرهت صور أولئك الشبان الذين كانوا يدعونني الى ما كنت أحب ويزهدونني فى عشرة الشيخ رحمه الله . فكنت لا أحتمل أن أرى واحدا منهم بل أفر من لقائهم جميعا كما يفر السليم من الأجرب » .

« فى اليوم السابع سألت الشيخ : ما هى طريقتكم ؟ فقال : طريقتنا الاسـلام ، فقلت : او ليس كل هؤلاء الناس مسلمين ؟ قال : لو كانوا مسلمين لمـا رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمر ولمـا سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب ، وبغير سبب » .

« هذه الكلمات كانت كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندى من المتاع القديم ــ متاع تلك الدعاوى الباطلة والمزاعم الفاسـدة ، متاع الغرور بأننا مسلمون ناجون ، وان كنـا فى غمرة ساهين . سألته : ما وردكم الذى يتلى فى الخلوات أو عقب الصـلوات ؟ فقال : لا ورد لنا سـوى القرآن نقرأ بعد كل صلاة أربعة أرباع مع الفهم والتدبر . فقلت له : أنى لى أن أفهم القرآن ولم أتعلم شيئا ؟ قال : اقرأ معك ويكفيك أن تفهم الجملة وببركتها يفيض الله عليك التفصيل ، واذا خلوت فاذكر الله ــ على طريقة بينها ــ وأخذت أعمل على ما قال من اليوم الثامن فلم تمض على بضعـة أيام الا وقد رأيتنى أطير بنفسى فى عالم آخر غير الذى كنت أعهد ، واتسع لى ما كان ضيقا . وصغر عندى من الدنيـا ما كان كبيرا

وعظم عندى من أمر العرفان والنزوع بالنفس الى جانب القدس ما كان صغيرا ، وتفرقت عنى جميع الهموم ولم يبق لى الا هم واحد وهو أن أكون كامل المعرفة كامل أدب النفس ، ولم أجد اماما يرشدنى الى ما وجهت اليه نفسى الا ذلك الشيخ الذى أخرجنى فى بضعة أيام من سجن الجهل الى فضاء المعرفة ، ومن قيود التقليد الى اطلاق التوحيد ـ هذا هو الأثر الذى وجدته فى نفسى من صحبة أحد أقاربى وهو الشيخ درويش خضر من أهل (كنيسة أورين) من مديرية البحيرة · وهو مفتاح سعادتى ان كان لى سعادة فى هذه الحياة الدنيا ، وهو الذى رد لى ما كان غاب من غريزتى ، وكشف لى ما كان خفى عنى مما أودع فى فطرتى »(١) ·

عودته الى طنطا :

رجع الأستاذ الامام الى المسجد الأحمدى واقبل على المدرسين فى شغف وتلهف على المعرفة · ففهم الدروس ثم تميز على زملائه فالتفوا حوله ليطالع لهم ·

واستقرت فى ذهن الامام هذه النوازع الصوفية التى غرسها فيه الشيخ درويش خضر · وساعد على استقرارها مظاهر الدراويش والأولياء فى مسجد سيدى أحمد البدوى ، ولكنه كان تصوفا سلبيا يميل الى المعرفة والانكماش وهضم النفس والاعتماد على الشطحات والاشارات وقد اعتمد الامام على اشارة أحد الدراويش له بالسفر الى القاهرة ·

قال الامام :

« وفى يوم من شهر رجب من تلك السنة (سنة ١٢٨٢ هـ)

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ١ ص ٢٣ ·

كنت أطالع بين الطلبـة وأقرر لهم معاني شرح الزرقاني فرأيت أمامي شخصا يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب فلما رفعت رأسي اليه قال ما معناه : ما أحلى حلواء مصر البيضاء ، فقلت له : وأين الحلوى التى معك ؟ . فقال : سبحان الله من جد وجد » .

ثم انصرف ، فعددت ذلك القول الهاما ساقه الله لى ليحملني على طلب العلم فى مصر دون طنطا .

دراسته فى الجامع الأزهر :

ذهب الأستاذ الامام الى الجامع الأزهر فى شوال سنة ١٢٨٢ هـ — فبراير سنة ١٨٦٦ م .

ولم تكن طريقة التعليم فيه تختلف كثيرا عن طريقة التعليم فى الجامع الأحمدى .

تلك الطريقة الجامدة العقيمة التى كانت تفرض على طلاب العلم مختصرات لا تفهم الا بشروح وحواشي وتقارير ، وانما تزحم ذاكرتهم بحشد مشوش من المعلومات النحوية المتشابكة والتدقيقات اللفظية التى تزهق الفكر وتعوقه عن النمو . ولا تنمى فى التلميذ الملاحظة والاستنتاج . وقد وصف هذه الطريقة بعض علماء الفرنجة فقال : « ولئن كانت أنماط التعليم والبحث فى الأزهر تختلف عما هو مستعمل فى الغرب الآن اختلافا أساسيا ، فهى لا تختلف فى شيء عن الأنماط التى كانت عندنا قديما » .

— أثر العلوم النقلية فى قهر العقول الذى أخذ فى التلاشي عندنا منذ قرون ، لا يزال فى عنفوان سطوته فى الجامعات الاسلامية .

« ليس الغرض من العلم عند أهل الأزهر هو البحث للتحقيق والمقارنة والتمحيص . ولكنه النقل الصحيح لما ترك الأقدمون » .

« والمفروض أن الأجيال متراجعة الى الانحطاط ، والأجيال الحاضرة والمقبلة تتصل بعصر النبى صلى الله عليه وسلم من طريق هابط من أعلى الى أسفل ـ والأئمة المجتهدون بعداء فى عصور ذاهبة فى أعماق الماضى ، لا يستطيع الحاضر أن يدرك غبارها »(١) .

ضاق الامام بطريقة التدريس فى الأزهر . ولكن الأقدار التى هيأت له الشيخ درويش خضر عند أزمته من الجامع الأحمدى قد هيأت له فى الأزهر أساتذة من نوع ممتاز استطاعوا أن يجذبوا انتباه الشيخ محمد عبده وأن يحببوا اليه أنواعا من العلوم والمعارف التى لم تكن تدرس فى الأزهر . منهم الشيخ حسن الطويل ، وهو رجل عشق الفلسفة يوم أن كانت تعد الفلسفة لونا من ألوان الالحاد .

كان الشيخ الطويل يدرس كتب ابن سينا ومنطق أرسطو ، وهى كتب لم تكن مألوفة فى الأزهر ، فتعرف عليها الشيخ محمد عبده عن طريق أستاذه هذا ، وضم بذلك فى تحصيل معرفته الى كتب الأزهر التقليدية هذه الكتب الفلسفية .

وكما هيأ له القدر أن يتتلمذ على الشيخ حسن الطويل وهو رجل يعالج الحكمة . تتلمذ على الشيخ محمد البسيونى الأديب وهو شيخ عنى بمعالجة الأسلوب الأدبى . وبالفصاحة والبيان العربى . لا كما عنى صاحب شروح التخليص بذلك ، وانما على نحو آخر هو أن الأدب والبيان دربة وملكة وذوق واحساس أكثر منها قواعد ومناهج .

---

(١) ترجمة الاستاذ الامام للمرحوم فضيلة الاستاذ مصطفى عبد الرازق كتاب الهلال العدد ٩٦ مارس ١٩٥٩ .

فلم ينشأ الشيخ محمد عبده باتجاه واحد وانما تأثر بتصوف الشيخ درويش وفلسفة الشيخ الطويل وأدب الشيخ البسيونى ومحافظة الشيخ عليش وزملائه من أساتذة الأزهر ٠

وكل هذه المؤثرات تفاعلت فى ذهنه وساعدت على تكوين شخصيته وتنمية مواهبه واستعداده الفطرى ٠

ذلك الذى أذكاه ونماه جمال الدين الأفغانى حكيم الاسلام ٠

تعرفه بالسيد جمال الدين الأفغانى :

السيد محمد جمال الدين بن السيد صفتر ، ولد فى بيت شرف وعلم بقرية أسعد أباد من قرى كنر من أعمال كابل ببلاد الأفغان سنة ١٢٥٤ هـ — ١٨٣٨ م ٠ ويتصل نسبه بالامام الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ٠

وقد نشأ جمال الدين فى بيت علم وفضل وكرامة وسيادة ، واشترك فى أمور الحكم فى بلاد الأفغان ثم رحل الى بلاد الهند وطاف بكثير من البلاد الشرقية والغربية ٠

ثم قدم الى مصر للمرة الثانية سنة ١٢٨٨ هـ — ١٨٧١ م ٠ فاتصل به الشيخ محمد عبده يحضر دروسه ويلازم مجالسه التى كانت مجالس حكمة وعلم ٠

واستطاع السيد الأفغانى أن ينزع الشيخ محمد عبده من التصوف بمعنى الدروشة ، والانصراف الى التحنث والرياضة الى معنى للتصوف جديد هو التصدى للاصلاح والتجرد الكامل للدفاع عن الاسلام ٠ والتسلح الفكرى والفلسفى لرد هجمات المستشرقين والمغرضين ٠

ولم يكن جمال الدين عالما عاديا من علماء المسلمين ٠ وليس عالما أفق علمه ومعرفته وطن وبلد من بلاد العالم الاسلامى ٠ ولم تكن معرفته مقصورة على المألوف فى وقته باسم الثقافة الاسلامية ولا كتبا ومقالات فحسب ٠ بل ضم اليها مع ذلك تجارب شخصية كانت وليدة رحلاته ووقوفه على نفسية الشعوب الاسلامية من جانب ٠ وعلى الدخلاء الأجانب من جانب آخر ٠

وقد قام جمال الدين بنشاطه الكبير فى كل بلد حل به ٠ وكان يهدف الى نهضة البلاد الاسلامية وتقوية كل بلد فى ذاته وتقوية الروابط بين البلاد الاسلامية بعد ذلك لكى يتيسر لها التخلص من سيطرة الأجنبى ٠ وقد كان يقول بهذا الصدد : « ان الدول الغربية تنتحل الأعذار فى هجومها وعدوانها على البلاد الاسلامية واذلالها واكراهها بقولها ان الممالك الاسلامية هذه انما هى من الانحطاط والهوان بحيث لا تستطيع أن تكون قوامة على شئون نفسها بنفسها ، فى حين أن تلك الدول عينها لا تكف عن التذرع بألوف الذرائع ، حتى بالحرب والحديد والنار للقضاء على كل حركة من حركات النهضة والاصلاح فى البلاد الاسلامية ٠ ومن ثم يجب على العالم الاسلامى أن يتحد فى حلف دفاعى كبير ٠ ليستطيع بذلك أن يصون نفسه من الفناء ٠

وللوصول الى هذه الغاية انما يجب عليه أن يأخذ بأسباب التقدم فى الغرب وأن يكتنه أسرار تفوقه وقدرته(١) ٠

ومن الانصاف أن نذكر أن جمال الدين لم يكن يعنى بذلك احلال قومية الدين محل قومية القطر ، وانما كان يرغب فى أن تتحد جميع الأقطار الاسلامية ٠ مع استقلال كل منهما عن الآخر الى هدفه

---

(١) عثمان امين ــ رائد الفكر المصرى ص ٢٣ ٠

واحد هو التحرر السياسى ، ومن أجل النهوض بالوطن المصرى او التركى أو الفارسى كان يعمل على نهضة الاسلام الذى يتغلغل فى الحياة السياسية والاجتماعية للأقطار الاسلامية المختلفة « على أن عبء النهوض بمهمة الاصلاح الدينى سيقع فى صميمه على عاتق تلميذه الغيور محمد عبده الذى سيكون لوثر الشرق حقا »(١)٠

والنظرة السطحية تجعل بعض الناس يقول ان جمال الدين كان ثائرا سياسيا ٠ بينما كان تلميذه الشيخ محمد عبده مصلحا اجتماعيا ٠ واذا أمعنا النظر وجدنا أن الدين كان أساسا أوليا عندهما ٠ وفى الوقت نفسه كان هدفا أخيرا وغاية مطلوبة ٠

فحركة جمال الدين فى مظهرها حركة سياسية ، وفى جوهرها حركة اسلامية ٠ يتحدث عن « وحدة المسلمين »مرة وعن حكومات اسلامية مستقلة يرتبط بعضها ببعض فى شبه اتحاد مرة أخرى٠ ومع ذلك فالشىء الذى لم يتغير عنده هو الأخذ بتعاليم الاسلام ٠ سواء فى قيام الحكومة الواحدة أو فى ارتباط الحكومات المختلفة ٠

يتحدث عن الأخذ بما عند الغرب من حضارة ومدنية وعلم ، ولكن على أساس أن يكون ذلك فى تلاؤم مع الاسلام ، أو لأن الاسلام يدعو اليه ٠

يتحدث عن مقاومة الاستعمار الغربى ـ وبالأخص مقاومة الاستعمار الانجليزى ــ ولكن فى حديثه يتكىء على الاسلام ، ويطلب تحقيق تعاليمه ٠

ينتقد سلطان الآستانة ، وشاه ايران ، وخديو مصر ، لأن

---

(١) محمد صبرى : الامبراطورية المصرية فى عهد اسماعيل ص ٣٠٠ (فى الهامش) ٠

أى واحد من هؤلاء لا يرغب فى اعطـاء الشعب حريتـه فى الرأى والقول والمشورة ٠

لا يرغب فى اعطاء الشعب دستورا يحدد العلاقة بين الحـاكم والمحكومين ، ونقده لمصلحة الشعب ، فتبدو عليـه مسحة العمل السـياسى ٠

ولكن هذا النقد أسس على الاسلام وعلى مبادئه التى تصون هذه المقدسات : حرية الشعب ، وسيادته ، ووضع الحـاكم منه وضع المنفذ لمشيئته ٠ لا وضـع السيد صاحب السـيادة المطلقة عليـه ٠

يدعو الى الترابط الوثيق بين المسـلمين وغير المسـلمين فى الأوطان الاسلامية والى عدم التمييز بين مسلم وغير مسلم ، فتبدو دعوته هذه فى مظهر « الشرقية » أو « الوطنية » تبدو سياسية ، ويميل لذلك بعض المؤرخين لجمال الدين أن يسمى حركته هـذه بالحركة الشرقيـة ٠ ولكنه هو فى دعوته هذه مسلم ، وعمله عمل اسلامى ٠ لأنه يستند الى الاسلام فى تاريخ الفتح ، وفى تعاليمه فى الصـلة بين المسـلم وغيره سـواء فى مكان واحد ، أو مكانين مختلفـين ٠

يدعو الى نبذ الخصـومة بين الشيعـة والسـنة ليؤلف بين سلطتين فى رقعة العالم الاسلامى اذ ذاك ، بين سلطة ايران وسلطة القسطنطينية ٠ بعد ذهاب دولة الهند الاسلاميـة ، فيبدو لذلك سياسيا ، أو وسيطا فى مجال السياسة ، ولكنه هو يدعو بدعوة الاسلام فى ذلك ٠

ـ يحارب المذهب الطبيعى (الدهرى) الذى انتشر فى الهند سنة ٨٧٩ م والذى قـال فيه : انه سيفرق المسلمين هنـاك الى

طائفتين : طائفة القديم وطائفة الجديد ، طائفة أصحاب الطاعة والولاء للحاكم المستعمر والطائفة الأخرى المنازعة المقاومة لنفوذه وولايته ، كما سيفرق بين مسلمى الهند من جانب ، والخلافة العثمانية من جانب آخر .

فيظهر مرة أخرى فى دعوته هذه بمظهر الرجل الذى يريد أن يحافظ على وحدة الامبراطورية الاسلامية الجغرافية ولكنه فى الرد يقاوم الالحاد الدينى بصفة عامة ويوضح ضرورة الدين للمجتمع الانسانى ، أى دين ، ثم يذكر مزايا الاسلام التى تكفل للانسان متعة فى هذه الحياة أرفع بكثير من تلك المتعة التى يهيئها له اعتناق المذهب الطبيعى (المادى أو الدهرى) فهو فى هذا مسلم وعمله اسلامى كذلك(١) .

وقد كان جمال الدين قوة مشعة مؤثرة ، لا ينزل بلدا الا ترك فيه أثرا . قال عنه الفيلسوف (رنان) :

« كنت أتحدث اليه فكان يخيل الى من حرية فكره ونبالة طبعه واخلاص قلبه ، أننى أرى وجها لوجه أحد معارفى القدماء ، وأنى أشهد ابن سينا أو ابن رشد أو أحدا من أولئك الأحرار العظام الذين مثلوا خلال خمسة قرون تقاليد الفكر الانسانى »(٢) .

وقد مات جمال الدين فى سنة ١٨٩٧ م ، بعد صراع عنيف مع الاستعمار الغربى استمر قرابة ثلاثين عاما ، ولكن ما ان توفى عليه رحمة الله حتى انتشر كفاحه واتجاهه فى التفكير فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، وخاصة تلك الأنحاء التى تسلط فيها الأجنبى

---

(١) مجموعة العروة الوثقى ص ٤٧١ ـ ٤٧٧ .
(٢) عثمان امين ـ رائد الفكر المصرى ص ٢٢ .

وعبث بمقدسات المسلمين ، وبكراماتهم واقتصادياتهم ، ومواردهم في الثروة الطبيعية ·

مات جمال الدين في استانبول وظهر أثره في مصر ، في محمد عبده ومدرسته (السلفية) وفي الجزائر في جمعية علماء الجزائر (لمؤسسها المرحوم عبد الحميد بن باديس المتوفى سنة ١٩٤٠) وفي اندونيسيا في حركة تجديد « المنار » ، وفي الهند في جماعة أهل الحديث ، وفي ندوة العلماء (لمؤسسها محمد شبلى النعمانى المتوفى سنة ١٩٤١) وفي أزهر الهند ، في مدرسة دار العلوم في « ديوبند » التى نقلت بعد التقسيم الى « أكورى » ببشاور في الباكستان ·

وفي كل هذه الحركات تجد هدفا واحدا : هو تحرير الوطن الاسلامى من الاستعمار الغربى ومحاربة الاتجاه الاستعمارى في التفكير ، ثم مع هذا الهدف الوسائل لتحقيقه ·

أما تحرير الوطن الاسلامى من الاستعمار الغربى فيعتمد في كل هذه الحركات على استرجاع قوة المسلمين في تكتلهم وتآخيهم ، واسترجاع هذه القوة يعتمد بالتالى على طرح ما طرأ على الاسلام من عادات في السلوك · وأفهام سقيمة في تخريج نصوصه وشرح تعاليمه · ثم الرجوع الى موقف المسلمين الأول من القرآن في استلهامهم التوجيه منه مباشرة لطبع تصرفاتهم بالطابع الاسلامى في من جهة ، ولوصولهم الى الغاية التى ينشدونها في أمان وسرعة من جهة أخرى ·

وأما محاربة الاتجاه الاستعمارى في التفكير · فبالوقوف في وجه الشبه التى تثار والتخريجات المغرضة لنصوص مصدرى الاسلام : القرآن والسنة الصحيحة ، وبيان زيفها بالأسلوب العلمى والتاريخى · وتصحب ذلك محاولة تقريب مبادىء الاسلام من

العقلية الاسلامية الحديثة . وتوضيح أن هذه المبادىء هى لتوجيه الانسان توجيها سليما سـواء فى عصر الابل ، أو فى عصر الحضارة الاسلامية القديمة ، الهندية والفارسية والاغريقية أو فى عصر البخار والآلة ، أو فى عصر الذرة والانسان الآلى .

ولهذا الشبه فى الهـدف والوسيلة بين هـذه الحركات التى ترجمت كفاح جمال الدين الأفغانى من جديد ، نجد ما ينسب الى الشيخ محمد عبده فى مصر من حركة اصلاحية ودعوة الى تحديد المفاهيم الاسلامية تحت تأثير الحيـاة الحديثة وما فيها من حضارات لم تكن مألوفة ، وطاقات لسيطرة الانسـان على الحيـاة لم يكن للمسلمين من قبل الف بها ، هو ما نجده كذلك عند زعماء تلك الحركات « التحريرية » والاختلاف بينها فى سعة الحركة الاصلاحية أو ضيق نطاقها أو فى قوة الدعوة أو تواضعها .

وما ينسب للشيـخ محمد عبده من منهـاج تربوى لتنشئة المسلم الصغير ، وتقويم العامى وتخريج الدعاة والباحثين وتثقيف المرأة ـ وما نجـده عنده من منهـاج للتعليم « الوطنى » نجـده أساسا من أسس تلك الحركات ، مع ما قد يكون من فارق فى النوع أو الكميـة :

التعبئة العامة للشعوب الاسـلامية على أسـاس من دينها . لا على أساس من مذاهب الطوائف فيها : ومن أجل هذا الدين ، هى مجمل هذه الحركات .

الدين لسيادة المؤمنين به ، وعلى المؤمنين أن يحـافظوا عليه ويتمسكوا به ويدافعوا عنه لتبقى لهم السيادة . هـذا هو شـعار تلك الحركات(١) .

(١) الدكتور محمد البهى ، الفكر الاسلامى الحديث ص ٨١ .

وقد كان تأثير جمال الدين الأفغاني في مصر أوضح كثيرا من تأثيره في غيرها . أقام في مصر ثماني سنين كانت كلها خيرا وبركة لمصر والمصريين : فهو من أوائل العاملين على تطور الروح الوطني في هذه البلاد . وقد نسب اليه بحق الدور التاريخي « لأبي القومية » ، استطاع الرجل بخطبه الملتهبة أن ينفث في النفوس نزوعا الى الحرية ورغبة في العدالة . خطب مرة في الاسكندرية قبل خلع الخديوي اسماعيل فقال :

« أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت ما تسد به الرمق وتقوم بأود العيال . فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك ؟ »(١) بهذه الجرأة كان جمال الدين يخطب ويتكلم ، وكان لكلامه أثر عميق في ايقاظ الناس ، وتنبيه المحكومين الى حقوقهم قبل الحاكمين ، فاتجه الناس الى نقد تصرفات أصحاب السلطان ، وأخذت تتضاءل عقيدة سيادة الحاكم وحقه المطلق في التصرف في شئون الرعية ، وليس هناك شك في أن لجمال الدين يدا في الحركة العرابية . ومن المحقق أن المبدأ الوطني الذي سيطر على تلك الحركة من غرسه كما قال شكيب أرسلان : « وان كان هب على ذلك الزرع من سموم الجهل ونقصان التربية السياسية ولفحة الدسائس الأجنبية ، ما صوح نضرته . شأن تلك الدسائس على كل نهضة في الشرق ، أو حركة اصلاح تشفق من ورائها الدول أن تتمزق حجب الغباوة التي هي أصدق عوامل الاستعمار »(٢) .

---

(١) أحمد شفيق باشا ـ حوليات مصر السياسية ص ٢٢ .

(٢) تعليقات شكيب أرسلان على كتاب « حاضر العالم الاسلامي » . تاليف لو ثروب ستودارد ، الترجمة العربية . القاهرة سنة ١٩٣٣ المجلد الثاني ص ٢٨٩ ـ ٣٠٣ .

ومن أحسن الآثار التى تركها لمصر تلميذه النابه الوفى الشيخ محمد عبده . فلما قضى على جمال الدين بالابعاد عن مصر بأمر توفيق باشا . قال يوم وداعه لبعض خاصته : « قد تركت لكم الشيخ محمد عبده ، وكفى به لمصر عالما » .

تأثره بالسيد جمال الدين :

سمع الشيخ محمد عبده بقدوم جمال الدين الى مصر سنة ١٨٨٧ م فذهب اليه . ولازم مجالسه .

« وكان الامام يومئذ فتى متأثرة كل عواطف قلبه الفتى بمنازع التصوف ورياضته ومواجده . وكان يتلقى علوم الأزهر على أنماطها المعروفة متشوقا فى نفس الوقت الى علوم أخرى حدثه عنها الشيخ درويش خضر ، وكان السيد الأفغانى وحده قادرا على تخليص محمد عبده من خموله الصوفى ودفعه الى الحياة العاملة ودراسة العلوم المختلفة كالفلسفة والرياضيات والكلام والأخلاق والسياسة وغيرها مما لم يكن له مكان فى مناهج الأزهر »(١) .

وبعد سنتين من صحبة الشيخ محمد عبده للسيد جمال الدين ظهر لنا ذلك الشاب المتصوف الذى كان ينطلق فى القول على وجل ، اذا سأله العامة عن شيء من أمر دينهم فى تلك المجامع التى كان يقوده اليها خال أبيه الشيخ درويش ، مؤلفا جريئا يكتب فى رسالة الواردات سنة ١٢٩٠ هـ - ١٨٧٣ م ، من المذاهب الفلسفية والصوفية ما قد تكون بعض أوساطنا العلمية لم تستعد بعد لسماعه ، وقد مضى خمسون عاما(٢) . هذه الرسالة هى أول ما وصل الينا من آثار أستاذنا لا تخلو فى أسلوبها من نفحة الأدب

---

(١) السيد رشيد رضا - تاريخ الامام جـ١ ص ٢٦ .

(٢) مصطفى عبد الرازق - الاستاذ الامام ص ٢ .

العتيق ، أدب السجع والتكلف ، الذى كان عالقا بالمؤلف لقرب عهده به ، ولكنهـا فى تاليفها ذات نظام حسن ، وطريقة فى سوق البراهين معقولة ، هى رسـالة صغيرة فى العقائد على منزع يغلب تصـوفه ما فيه من فلسفة(١) .

وفى سنة (١٢٩٢ هـ ــ ١٨٧٥ م) ألف الشيخ محمد عبده حاشيته على « شرح الجلال الدوانى للعقائد العضدية » .

وهذه الحاشـية ، ترينـا الشيخ محمد عبده فى السادسـة والعشرين من عمره محيطا بمذاهب المتكلمين والفلاسفة والمتصـوفة احاطة فهم ونقد ، يكاد يجهر بآرائه فى تلك الموضـوعات الخطيرة ، ويكاد يكظم صوته الفتى القوى شبح عصـا الشيخ عليش ، قائما على رأس مجاور ، بينه وبين التقدم لامتحان العالمية سـنتان ، وفى هذه الحاشية توضيح للمذاهب فى الالهيات والنبوات ومقارنة بينها، ونقد متين .

وكان من أثر جمال الدين اتجـاه المجاور الشيخ محمد عبده الى الاصلاح ، فشرع يكتب فى جريدة « الأهرام » فصـولا متتابعة ، سامية المنزع مشتملة على أصـول الدعوة الاصلاحية التى صرف حياته فى سبيلها .

وقد استرعت تلك الفصول نظر الناس الى ذلك الفتى الناهض الى السابعة والعشرين من عمره نهضـة المصلحين الكبـار عاقـلا جريئا . وصـل صـدى تلك المقالات الى أسـماع الجامدين من الشيوخ ، والتقى فيها بحديث ملازمة كاتبها للسيد جمال الدين واشتغاله بالفلسفة وترجيحه لبعض مذاهب المعتزلة . ونهيه عن

---

(١) نفس المرجـع .

التقليد ، ودعوته الى الاشتغال بالعلوم الحديثة وتحبيذه لعلوم الفرنجة واطالة شعره أيضا ٠

دخل الشيخ محمد عبده مجلس الامتحان سنة (١٢٩٤ هـ ــ ١٨٧٧ م) وكل ذلك ينتظره فى صدور أعضائه ما عدا الرجل المنصف الشيخ محمد المهدى العباسي شيخ الأزهر لذلك العهد ، ورئيس لجنة الامتحان ٠

ولولا قوة الشيخ محمد عبده فى علمه وفى نفسه قوة باهرة ، وترفع الشيخ المهدى عن الظلم لقضى مجلس الامتحان المؤلف من كبار الشيوخ ، بأن ذلك المجاور المضطهد ، لا يستحق نجاحا ٠

نال الشيخ محمد عبده شهادة العالمية من الدرجة الثانية ، وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، فشعر لأول مرة بأنه انتصر على خصومه الجامدين أعداء الاصلاح برغم جاههم وكثرتهم ، وزاده ذلك نشاطا فجمع كل ما فى نفسه من قوة الشباب وقوة العلم وقوة الرغبة فى الاصلاح ، ووجه جميع ذلك الى العمل فى الأزهر ، لاعتقاده أن صلاح الأزهر صلاح للبلاد ، وأهلها وللمسلمين فى أقطار الأرض ٠

أخذ يدرس كتب المنطق والكلام المشوب بالفلسفة فى الجامع الأزهر ، ويدرس فى داره لبعض المجاورين كتاب تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ٠ وكتاب التحفة الأدبية فى تاريخ تمدن الممالك الأوروبية ، تأليف الوزير فرانسوا جيزو ، وتعريب الخواجة نعمة الله خورى ٠

وفى أواخر سنة (١٢٩٥ هـ ــ ١٨٧٨ م) عين مدرسا للتاريخ فى مدرسة دار العلوم ومدرسا للعلوم العربية فى مدرسة الادارة والألسن الخديوية ٠ فكان يدرس فيهما مع الاستمرار على التدريس

فى الجامع الأزهر . « بدأ دروســه فى دار العلوم بقراءة مقدمــة ابن خلدون بأنها مقدمــة للتــاريخ وانما كان غرضــه بث أفكاره السياسية والاجتماعية فى أذهان التلاميذ ، فكان يطبق ما فيها من الكلام على نهوض الدول وسقوطها وشئون العمران وأصوله على أمته ويبين أســباب ضعفهــا ، والوســائل التى تذهب به وتعيد اليها ما فقدت من عزها ومجدها . وكان يكلف التــلاميذ كتابــة المقالات والفصول فى ذلك ، فكان كل واحد يشعر بروح جديد يدب فى هيكله ، ويرى نفسه مخلوقا لخدمة بلاده واعلاء شأن أمته لأن هذه الأفكار لم تكن معهودة فى هــذه البلاد ، فلا تذكر فى المدارس ولا فى المجالس ، والمقرر فى أذهان جميع الناس وقلوبهم أنهم عبيد للحكام لا حقوق لهم عليهم ، وقد كتب الشيخ محمد عبده فى ذلك العهد كتابا حافلا فى علم الاجتمــاع وفلسفة التاريخ انتقد فيه بعض ما قاله ابن خلدون ، واستدرك عليه ما نسخته طبيعة الاجتمــاع فى هذا العصر من أحكام العمران فى العصور الغابرة »(١) .

« وفى سنة (١٢٩٦ هـ ــ ١٨٧٩ م) نفى من مصر بمساعى الانجليز السيد جمال الدين الأفغانى الذى كان عمله شجى فى حلق ممثل انجلترا بمقــدار ما كان تجديده لدروس الفلسفيات غيظــا للجامدين من أهل الأزهر »(٢) .

وأقيل الشيخ محمد عبده من مدرســة دار العلوم ومدرســة الألسن وأمر بأن يقيم فى قريتــه (محلة نصر) وذلك فى الرابــع والعشرين من أغسطس عام ١٨٧٩ م أواسط رمضان ١٢٩٦ هـ .

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جا ص ١٣٦ .
(٢) مصطفى عبد الرازق : الاستاذ الامام محمد عبده .

عظمة الامام :

الرجل العظيم يكون عظيما فى كل ما يقوم به . والمصلح والمربى لا ينتظر قدوم الناس اليه حتى يرشدهم ، بل هو يسعى الى اصلاحهم كأن له مصلحة فى ذلك .

وقد كان الامام مربيا فى دار العلوم ، ومحررا للعقول والأفكار وحين نفى الى بلده لم يهن ولم يضعف . حتى اذا عفا عنه الخديو توفيق وأسند اليه رياض باشا تحرير الوقائع فى سنة ١٢٩٧ هـ ـ ١٨٨٠ م . انطلق للاصلاح بكل ما تملك يداه .

وقد كانت الوقائع المصرية جريدة رسمية أسسها محمد على سنة ١٢٨٨ هـ وكانت مقصورة على الأوامر الرسمية والدعاية الحكومية حتى تولى الامام تحريرها . فنهض بها نهضة عظيمة واستعان على تحريرها بنخبة من المحررين . من خيرة تلاميذ جمال الدين الأفغانى أمثال سعد زغلول ، والهلباوى ، والشيخ سيد وفا . ثم ماذا كان من شأنه ؟ كان ما لم يخطر على قلب بشر ، وهو أن رئيس التحرير للجريدة الرسمية صار مهيمنا على الحكومة والأمة ، ينتقد الأعمال والأقوال وينتقل بالناس من حال الى حال .

وضع لائحة لقلم المطبوعات أو للجريدة الرسمية أجازها وانفذها رياض باشا ، فكان من أحكامها أن جميع ادارات الحكومة ومصالحها فى العاصمة وغيرها مكلفة أن تكتب الى ادارة الجريدة مخبرة بما عملت فأتمت وما شرعت فيه فلم تتمه ، وكذلك المحاكم ترسل اليها نتائج أحكامها ، وأن لادارة الجريدة الحق فى انتقاد كل ما تراه منتقدا من الأعمال ومن المكتوبات الرسمية . وأن لها حق المراقبة على الجرائد الوطنية والأجنبية التى تصدر فى القطر

المصرى ، وأن تبحث عن حقيقة ما تقوله فى رجال الحكومة وأعمالها ، وعلى الحكومة مساعدتها فى ذلك بمعنى أنه اذا نشر فى بعض الجرائد ما ترتاب ادارة المطبوعات فيه فان لها أن تسأل المصلحة او الادارة التى يسند اليها ذلك عن الحقيقة بواسطة نظارة الداخلية ان لم يكن ما نشر مسندا الى النظارة . والا سألتها هى مباشرة فان كان حقا ما نشر فى الجريدة وجب على الحكومة مؤاخذة من نسب اليه الذنب ، وذكر ذلك فى الجريدة الرسمية وان كان كذبا طولب مدير الجريدة باثباته والا أنذر ـ وكان من أحكام قانون المطبوعات أنه اذا تكرر انذار جريدة ثلاث مرات يمنع اصدارها ألبتة أو الى الأجل الذى تراه الادارة . وكان من حق هذه الادارة أن تفصل فى كل نزاع يقع بين جريدتين عربيتين فصلا لا تجوز المناقشة فيه ، وكان من حق رئيس تحرير الجريدة الرسمية أن يجعل فيها قسما غير رسمى ينشر فيه لنفسه ولغيره ما يراه نافعا من المقالات الأدبية والاجتماعية والاقتصادية وما أشبه ذلك .

فكم كان عجيبا أن ترى صاحب عمامة أزهرية يدخل فى حكومة مطلقة بعيدة فى أعمالها عن رجال العلم والدين ، فيشرف من نافذة غرفة تحرير الجريدة الرسمية على نظارات الحكومة ومجالسها ومحاكمها ومصالحها فيصلح لعمالها ما يكتبون ، ويرشدهم الى اصلاح العمل فيما يعملون ثم يشرف من نافذة أخرى لها على الأمة فيقوم من أخلاقها ويصلح ما فسد من عاداتها ، بالوعظ الصحيح والارشاد القويم ، ويطل من نافذة ثالثة فيها على الجرائد العربية فيعلمها حسن التحرير ويربيها على الصدق فى القول ويجعل للصادق منها سلطانا نصيرا ، وتأثيرا مأثورا(١) .

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ١ ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .

ثم هبت أعاصير الثورة العرابيـة والشيخ محمد عبده رئيس لتحرير الجريدة الرسمية له يد عاملة فى حرية الأفكار • ولم يكن الامام فى بداية الأمر مشايعـا لعرابى : فقد كان يعتبره ناطقـا بأفكار عسكرية بحتة • وكان محمد عبده يعلن أنه يفضـل قيام نظام للحكم مصحوب باصلاح داخلى تقدمى وسيلته الرئيسية ــ فى نظره ــ هى نشر الثقافة وبث التربية الأخلاقية والسياسية الصحيحة التى تناسب قيام دستور حر • وكان يقول فى هذا الصـدد لعرابى نفسه : « ان الأمة لو كانت مستعدة لأن تشارك الحكومة فى ادارة شئونها لمـا كان لطلب ذلك بالقوة العسكرية معنى • فما يطلبه رؤسـاء الجند غير مشروع : لأنه لو تحقق ونالت البـلاد مجلس شورى لمـا كان ذلك تصـويرا لاستعداد الأمة ولا تحقيقا لمطالبها ، فلا يلبث أن يتهدم ويزول ، وأخشى أن يجر هذا على البلاد احتلالا أجنبيا »(١) • ولكن ازاء تدفق الحوادث لم يستطع المصرى الغيور الا أن يسارع بشد أزر العرابيين الثائرين حتى غدا أحد الرؤوس المديرة لشئون الحكومة الوطنية •

وبعد اخفـاق عرابى ــ اتهم محمد عبده بالتآمر مع رجـال الثورة وحكم عليه بالسجن ، ثم بالنفى ثلاث سنوات فاختار سوريا ورحل اليها سنة ١٨٨٣ • وأقام نحو سنة ثم سافر الى أوربا على موعد بينه وبين أسـتاذه جمال الدين • فأقام فيها عشرة اشـهر معظمها فى باريس وهناك أصدرا معا جريدة « العروة الوثقى » وكان هدف الجريدة الدعوة الى الجامعة الاسـلامية والذود عن الشرقيين ومكافحة التسلط الأجنبى والطغيـان الداخلى وتخليص مصر من الاحتلال الانجليزى بوجه خاص • وكانت (العروة) أول صحيفة

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ١ ص ١٤٧ ــ ١٧٥ ــ ٢١٧ •

عربية ظهرت فى أوروبا · نهضت بمثل هذه المهمة الشاقة وذادت عنها فى حماسة وبلاغة(١) ·

وفى بداية صيف ١٨٨٤ م رحل محمد عبده الى انجلترا مندوبا عن « العروة الوثقى » فى لندن ، وقد استقبل الشيخ المصرى صديقه « ولفرد بلنت » الكاتب الانجليزى مؤلف كتاب « التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر » وقد أمد « بلنت » صديقه المصرى بمعونته القيمة ابلاغ صوته عن طريق الصحافة الى الرأى العام الانجليزى، ودعوته الى الاهتمام بالقضية المصرية · كذلك يسر للشيخ المصرى سبيل مقابلات مع بعض رجال السياسة وأعضاء البرلمان الانجليزى ومن أولئك « راندولف تشرشل » والد رئيس الوزارة الانجليزية السابق(٢) ·

وبعد اقامة قصيرة فى لندن عاد محمد عبده الى باريس ، ليستأنف عمله فى المجلة ، ولكن السياسة الانجليزية حالت دون وصول « العروة الوثقى » الى البلاد الاسلامية فاحتجبت المجلة · ومع هذا فقد كان لها فى العالم الاسلامى تفوذ عظيم فى نمو القومية والجامعة الاسلامية معا ·

« وقد غادر الشيخ محمد عبده باريس وعاد الى بيروت سنة ١٨٨٥ مركز الثقافة العربية اذ ذاك · وقد عهد اليه التدريس فى المدرسة السلطانية لاحياء اللغة والدين ، وكان يشتغل مع التدريس بالتأليف والكتابة وقد ألف « رسالة التوحيد » هناك ، ونقل الى العربية رسالة « الرد على الدهرين » ، التى كتبها

---

(١) رشيد رضا : تاريخ الامام ـ جا ص ٢٩٢ ·
(٢) عثمان امين : محمد عبده ـ ص ٨٢ ـ ٩٢ ·

السيد جمال الدين باللغة الفارسية . وشرح كتاب نهج البلاغة ومقامات بديع الزمان الهمذانى »(١) .

« ولم تقتصر جهوده على التعليم والتأليف . فقد أسس بمعونة أشخاص آخرين جمعية دينية سرية من أهدافها التقريب بين الأديان الثلاثة الكبرى : اليهودية والمسيحية والاسلامية ، وكان القس « اسحق تيلر » راعى الكنيسة الانجليزية احد الأعضاء العاملين فى تلك الجمعية ، وهو الذى حاول ــ فيما يبدو ــ نشر أفكارها فى انجلترا ، ويقال انه قد جرت بين هذا القس وبين الشيخ محمد عبده مراسلات كان من آثارها أن تحدث القس عن الاسلام حديثا وديا ، ونشر بهذا المعنى مقالات فى صحف لندن ، ولكن يبدو أن نشاط الشيخ محمد عبده فى هذه الجمعية قد فسر ــ فى تركيا ــ تفسيرا سياسيا يناقض مصالح الخلافة العثمانية . مما حدا بالسلطان عبد الحميد الى السعى لدى الحكومة الانجليزية لاصدار العفو عن الشيخ محمد عبده ودعوته الى مغادرة سوريا فى اقرب وقت ممكن »(٢) .

وعاد الشيخ محمد عبده ودعوته الى مصر سنة ١٨٨٨ . وكانت له رغبة فى الاشتغال بالتدريس والتربية ــ رغم أن وظيفة التدريس محدودة الترقية ، فقد كان الامام يفضلها على القضاء ، ولكن الخديو توفيق لم يرض بتعيينه معلما خوفا من أن يربى له تلاميذ على أفكاره ومنازعه ، فعين قاضيا بمحكمة بنها الأهلية ، ومنها انتقل الى محكمة الزقازيق فمحكمة عابدين . وفى سنة (١٣٠٨ هـ ــ ١٨٩٠ م) عين مستشارا بمحكمة الاستئناف الأهلية.

---

(١) مصطفى عبد الرازق : الاستاذ الامام ، كتاب الهلال : دروس من القرآن للشيخ محمد عبده .

(٢) رشيد رضا : ــ جا ص ٨٢٢ .

وعرف الشيخ محمد عبده فى القضـاء بالاستقلال فى الفكر والتحرر من الرسوم والشكليات ، وكان يتوخى فى أحكامه تربيـة الجمهور وايقاظ ضميره ، واصلاح ذات البين بين الأسر · وفى سنة١٣١٢ هـ جعلته الحكومة المصرية عضـوا فى مجلس ادارة الأزهر ، وهو أول مجلس أسس بسعيه عند الخديو عبـاس ليكون رسول الاصلاح ·

ولست بقين من المحرم سنة ١٣١٧هـ ــ ٣ يونيو سنة ١٨٩٩م صدر الأمر بتعيينه مفتيا للديار المصرية ·

فأضفى على المنصب سناء وبهاء ، ولم يقتصر على الافتـاء فيما كان يحال اليه من مسائل بل وسع اختصاصه وزاد من نفوذ المنصب الكبير ·

وامتازت فتاوى الأستاذ الامام بالميل الى التسامح ، واستقلال الرأى والبعد عن التقليد والملاءمة بين روح الاسلام ومطالب المدنية الحديثة · وأشهر الفتـاوى التى أصـدرها ثلاث : الأولى تبيح للمسلمين ادخار أموالهم ، وأخذ الفوائد والأرباح عليها · والثانيـة تبيح لهم أن يأكلوا من ذبائح غير المسلمين عند الضرورة ، والثالثة تبيح لهم أن يتزينوا بزى غير زيهم التقليدى ، تيسيرا لهم فى أمور معاشهم · وقد سببت هذه الفتاوى كثيرا من المجادلات ، وأثارت سخط الشيوخ المتزمتين · وجلبت على المفتى ضروبا من القدح والتشهير لم تكن الدوافع اليها دينية خالصة فى كثير من الأحيان ·

وفى ٢٥ يونيو سنة ١٨٩٩ م عين محمد عبده عضـوا فى مجلس شورى القوانين فسار على سياسـة ترمى الى تربية الرأى العـام فى مصر وتعويد الأمة دقة النقد والتمحيص والسمو عن الأشخاص والأغراض الخاصـة ، واستهداف المصالح القومية الكبرى ·

وقد عمل الشيخ محمد عبده عن طريق « الجمعيـــة الخيرية الاسلامية » التى كان من أوائل مؤسسيها على تحقيق اصلاح أخلاقى اجتماعى ، يذكى فى الناس روح الاعتماد على النفس والتعاون بين الأفراد واشـــعار قلوب الأغنيـــاء عاطفـــة الرحمـــــة والاحســـــان الى الفقراء ٠

« وكان صوته أول صوت ارتفع فى مصر الحديثة مناديا بنشر مبادىء العدالة الاجتماعية حتى يستتب السلام بين الطبقات ٠

والى الأستاذ الامام يرجع الفضل فى انشاء مدرسة القضـــاء الشرعى والعمل على اصلاح المحـــاكم الشرعية كما أسس « جمعية احياء الكتب العربية القديمة »(١) ٠

وفى سنة ١٩٠٥ م أخذ الامام يدعو الى انشاء جامعة مصرية الى جانب الجامعة الأزهرية ٠ ولم يقنع بالتفكير ، بل خرج بالمشروع الى التنفيذ فأقنع « أحمد المنشاوى باشا » بأن يوقف لبناء الجامعة قطعة أرض فى احدى ضـــواحى القاهرة ٠ ولكن بموت المنشاوى باشا وقف المشروع ٠

وفى ١١ يوليو سنة ١٩٠٥ م توفى الشيخ محمد عبده ، وهو فى أوج نشاطه ، وكانت وفاته حدادا عاما للبلاد العربية والاسلامية جميعـــا ٠

---

(١) دائرة معارف الشعب ص ٤٠ ٠

الباب الثاني

منهج الشيخ محمد عبده في تفسير القرآن الكريم

مقارنا بمناهج المفسرين السابقين

منهج الشيخ محمد عبده
فى تفسير القرآن الكريم

مقارنا بمناهج المفسرين السابقين

يقوم منهج الامام محمد عبده فى تفسير القرآن الكريم على تسعة أسس هى :

الأساس الأول :

اعتبار السورة وحدة متناسقة .

الأساس الثانى :

عموم القرآن وشموله .

الأساس الثالث :

القرآن هو المصدر الأول للتشريع .

الأساس الرابع :

محاربة التقليد .

الأســاس الخامس :

اعمال النظر والفكر واستخدام المنهج العلمى ·

الأســاس السادس :

تحكيم العقل والاعتماد عليه فى فهم القرآن ·

الأســاس الســابع :

ترك الاطناب فى الكلام عما ورد فى القرآن بصورة مبهمة ·

الأســاس الثـامن :

التحفظ فى الأخذ بما سمى بالتفسير المـأثور والتحدير من الاسرائيليـات ·

الأســاس التاســع :

اهتمامه بتنظيم الحيــاة الاجتماعيــة على أســاس من هدى القــرآن ·

الأســـاس الأول

اعتبار الســورة وحدة متناســقة

١ ــ كانت فكرة التناسق بين الآيات المتجاورة تسيطر عليه في تفسيره • وفي ترجيح بعض آراء سابقيه على بعض •

بل ربما روى آراء السابقين في الموضــوع ثم رفضها جميعها لأنها لا تحقق التناسق بين الآيات •

فنراه يستهل تفسيره لسورة الفجر قائلا : « كثر(١) خــلاف المفسرين والرواة في معنى كل من الفجر وليــال عشر ، الى آخر ما أقسم به ، وقد يفسر الواحد منهم الفجر بمعنى ، ثم يأتي في الليالي العشر بما لا يلائمه وغــالب ذلك يجري على خــلاف ما عودنــا الله في نسق كتابه الكريم • وقد جرت سنة الكتــاب بأنه اذا أريد تعيين يوم أو وقت ذكره بعينــه كيوم القيامة في ((**لا أقسم بيوم القيامة**)) ، واليوم الموعود في سورة ((**والسماء ذات البروج**)) وكليلة القدر في سورتها ، فاذا أطلق الزمن ولم يقيد كان المراد ما يعمه معنى الاسم كمــا سبق في قوله : ((**والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس**)) • والفجر هنا على هــذا هو جنس ذلك الوقت المعروف

(١) تفسير جزء عم طبعة الجمعية الخيرية الاسلامية ، الطبعة الثانيــة ص ٧٧ •

الذى يظهر فيه بياض النهار فى جلد الليل الأسود وينبعث الضياء لمطاردة الظلام ، وهو وقت تنفس الصبح وهو معهود فى كل يوم . فصح أن يعرف بالألف واللام . والمراد والله أعلم من « ليال عشر » ليال تتشابه فى حالها مع حال الفجر ، وهى ما يكون ضـوء القمر فيها مطاردا لظـلام الليل الى أن تغلبه الظلمة فكأنه وضع التناسب على شىء من التقابل ، فضـوءالصبح يهزم ظلمة الليل ثم يسطع النهار ولايزال الضـوء الى الليل وضوء الأهلة فى عشر ليال من أول كل شهر يشق الظلام ثم لايزال الظلام يغالبه الى أن يغلبـه فيسدل على الكون حجبه » .

٢ ـ والشيخ محمد عبده باتباعه هـذا المنهج واحتكامه الى تناسق الآيات وتجانس معانيها المتجاورة يقضى على طريقة تفسـير آيات القرآن منفصلة بعضها عن بعض تلك الطرق التى سلكهـا كثير من المفسرين فقضت على جوانب بلاغة القرآن وتناسق أسلوبه وترتيب أفكاره مما جعل بعض المستشرقين يقول ان القرآن خليط متنافر وجمع غير مؤتلف ليس فيه وحدة للموضوع ، ولا يتبع منهج التأليف العلمى أو الفنى : من عرض الموضـوع ومناقشته وتدوين الملاحظات واستنتاج الحقائق . بل نجد السورة تدخل فى أكثر من موضوع وتعرض الجميع عرضـا مبتسرا سريعا ، ولا تراعى مناسبة بين محتوياتها ، فهى أشبه بقولهم عسل خمر لبن .

٣ ـ وللشيخ محمد عبده يرجع الفضل فى رسم فكرة عامـة عن السورة وعرض المواضيع التى تعالجها والمبادىء والحقائق التى تسجلها واقتفى أثره فى ذلك تلميذه السيد رشيد رضـا فى اكمال تفسير المنار الى سورة يوسف .

وظهرت وحدة السورة جيدا فى الفهرس العام الذى كان يضعه لها ، وفى عرض الموضوعات التى تحدثت عنها . واقتدى بالأستاذ الامام طليعة العلمـاء فى هذا القرن وقادة التفكير الاسلامى مثل :

فضيلة الأستاذ الكبير المرحوم محمد مصطفى المراغى ٠

فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود شلتوت ٠

وفضيلة الأستاذ الكبير المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز ٠

وان تميز كل واحد منهم بميزة خاصة ٠

٤ ــ والوحدة فى منهج السورة القرآنية لا تتقيد بمبدا الوحدة الفنية فى التأليف الأدبى أو الفنى ٠ فالقصة الأدبية مثلا لها قواعد فنية يجب مراعاتها مثل العقدة والمأزق والصراع والحل ٠ ولكن القرآن الكريم كتاب هداية كان يذكر من القصة أو الحادثة ما يحقق هذه الهداية وأحيانا يبسط الموضوع ، وأحيانا يوجزه حسب مقتضى الحال ٠ واحيانا يترك الموضوع ويتكلم عن شىء مناسب أو مجانس ، ثم يرجع الى الموضوع الأول أو ينتقل الى غيره ، وهذا طريق لو أتبعه بشر لكان تأليفه تافها أو ساقطا ٠ ولكن القرآن كتاب الله وهو على كل شىء قدير ٠ ومن قدرته انه يؤلف بين الأجناس المختلفة ٠ فترى بينها نهاية التضام والالتحام ٠ وكل امرىء يستطيع أن يجرب نفسه حين يطول به الوقوف امام منظر واحد جميل ٠ هل يجد لديه من هزة الاستحسان فى هذا الاستمرار ما يجده لو اعترض سلسلة من المناظر الرائعة قد صفت فيها ضروب الفوائد والمتع ثم جعلت تمر به فى أبدع تنسيق وأحسن تقويم ؟ اللهم لا ، فذلك كذلك »(١) ٠

٥ ــ يشعر الأستاذ الامام أن فكرة السورة يجب أن تكون اساسا فى فهم آياتها ٠ والموضوع يجب أن يكون أساسا فى فهم الآيات التى نزلت فيه ٠ وكان هذا من أسباب رفضه كل تفسير لا يحقق وحدة الهدف والتناسق بين أجزاء السورة ٠ فمثلا نراه

---

(١) كتاب النبأ العظيم ، للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٦٢ حاشية ٠

عند الكلام على تفسير الرزق فى قوله تعالى : ((**كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا**)) يقول : ((قالوا(١) كان يجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف · والله لم يقل ذلك ، ولا قاله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ولا هو مما يعرف بالرأى ، والتاريخ المعتد به لم يثبته · والروايات عن مفسرى السلف متعارضة)) ·· ويستمر فى تفسير الرزق فى الجملة التالية ((**ان الله يرزق من يشاء بغير حساب**)) فيقول : وأنت ترى(٢) أنه لا دليل فى الآية على أن الرزق كان من خوارق العادات واسناد المؤمنين الأمر الى الله فى مثل هذا المقام معهود فى القديم والحديث)) ·

ويبسط السيد رشيد رضا الفكرة ويشرحها حين يقول : قال الأستاذ الامام ما مثاله مبسوطا : ((ان القرآن نزل سائغا يسهل على كل أحد فهمه من من غير حاجة الى عناء ولا ذهاب فى الدفاع عن شىء خلاف الظاهر · فعلينا ألا نخرج عن سنته ولا نضيف اليه حكايات اسرائيلية أو غير اسرائيلية لجعل القصة من خوارق العادات · والبحث عن الرزق ما هو ومن أين جاء فضول لا يحتاج اليه لفهم المعنى ولا لمزيد العبرة · ولو علم الله أن فى بيانه خيرا لنا لبينه · أما ما سيقت القصة لأجله وهو الذى يجب أن نبحث فيه ونستخرج العبرة من قوادمه وخوافيه ، فهو تقرير نبوة النبى صلى الله عليه وسلم ودحض شبهة أهل الكتاب الذين احتكروا فضل الله وجعلوه خاصا بشعب اسرائيل ، وشبهة المشركين الذين كانوا ينكرون نبوته لأنه بشر ·

---

(١) تفسير المنار ــ الجزء الثالث ص ٢٩٣ ·

(٢) نفس المرجع ·

وبيان ذلك أن المقصد الأول من مقاصد الوحى هو تقرير عقيدة الألوهية وأهم مسائلها الوحدانية ، وتقرير عقيدة البعث والجزاء ، وعقيدة الوحى والأنبياء . وقد افتتحت السورة بذكر التوحيد وانزال الكتاب . ثم كانت الآيات من أولها الى هذه القصة أو قبيل هذه القصة فى الألوهية والجزاء بعد البعث بالتفصيل وازالة الشبهات والأوهام فى ذلك . ثم بين أن الايمان بالله وادعاء حبه ورجاء النجاة فى الآخرة والفوز بالسعادة فيها انما يكون باتباع رسوله ، وقفى على ذلك بهذه القصة التى تزيل شبهة المشركين وأهل الكتاب فى رسالته وتردها على وجوههم .

رد عليهم بما يعرفونه من ان آدم أبو البشر ، وأن الله اصطفاه بجعله أفضل من كل أنواع الحيوان وتمكينه هو وذريته من تسخيرها ، وهذا متفق عليه بين المشركين وأهل الكتاب . ومن اصطفاء نوح وجعله أبا البشر الثانى وجعل ذريته هم الباقين . ومن اصطفاه ابراهيم وآله على البشر ، فان العرب وأهل الكتاب كانوا يعرفون ذلك ، فالأولون يفخرون بأنهم من ولد اسماعيل وعلى ملة ابراهيم ، كما يفخر الآخرون باصطفاء آل عمران من بنى اسرائيل حفيد ابراهيم . فالله سبحانه وتعالى يرشد هؤلاء وأولئك وجميع البشر الى أنه هو الذى اصطفى هؤلاء بغير مزية سبقت منهم تقتضى ذلك وتوجبه عليه . فاذا كان الأمر له فى اصطفاء من يشاء من عباده ، وبذلك اصطفى هؤلاء على عالمى زمانهم ، فما المانع له من اصطفاء محمد صلى الله عليه وسلم بعد ذلك على العالمين كما اصطفى أولئك ؟ لا مانع من ذلك عند من يعقل ، وهذا بيان لوجه اتصال القصة بما قبلها من أول السورة .

ومن هذا المثل قصة مريم ، فان أمها اذا كانت قد ولدتهـا وهى عاقر على خلاف المعهود كما نقل • أو يقال اذا كان قبول الأنثى محررة لخدمة بيت الله على خلاف المعهود عندهم وقد تقبله الله ، فلماذا لا يجوز أن يرسل الله محمدا من غير بنى اسرائيـل على خلاف المعهود عندهم ؟ • ومثل هذا يقال فى قصـــة زكريا عليه السلام الآتية ، ومن ذلك كله يعلم أن أعماله تعالى لا تأتى دائمـا على ما يعهد الناس ويألفون •

المدرسة التى تأثرت بالشيخ محمد عبده فى مبدأ الوحدة فى الســورة القرآنيــة

أولا ــ تلميـذه النجيب فضـيلة الأســتاذ الأكبر الشــيخ محمـود شـلتوت :

تناول فضيلته تفسير القرآن الكريم بطريقة لم يسبق اليها ، وقد حازت الرضـا والاستحسان بين جميـع الأوسـاط المهتمـة بالدراسات القرآنية •

وهذا نموذج من تفســيره لســورة البقرة فى مجلة رســالة الاســلام :

قــال فضيلته : « ان الســورة وحــدة كاملة عنيت بأمرين اقتضتهما حالة المسلمين فى المدينة : الأمر الأول : توجيه الدعوة الى بنى اسرائيل ويبدأ من قوله تعالى : ((**يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم**)) •

الأمر الثانى : ما يجب على المسلمين ان يتخذوه أساسا فى البر بأنفسهم وأمتهم ومجتمعهم ويبدأ بقوله تعالى : ((**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتـاب والنبيين وآتى المـال على حبه ذوى القربى**

واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » . البقرة/١٧٧ .

وشبه السورة بعقد توسطت جانبيه آية البر السابقة .

فالجانب الأول تناول أهل الكتاب وتذكير الله لهم بنعمته واغراقه فرعون . وتذكيرهم بألوان العناد التى عملوها مثل اعتدائهم فى السبت . وموقفهم من موسى فى ذبح البقرة وتحريفهم آيات الله . وبيان خطئهم فى زعمهم أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس .

٢ ــ الجانب الآخر من حبات العقد تصوره آية البر وما بعدها وهو الجانب الذى اقتضاه تكوين المسلمين جماعة متميزة عن غيرها فى عبادتها ومعاملاتها .

فتحدث هذا الجانب عن التشريع الاسلامى الذى ينظم حياة المسلمين فى المدينة مثل نظام الأسرة والصيام والحج والقصاص والقتال والعناية باليتامى والتحذير من الربا وكتابة الدين .

وقد مهدت السورة أمام هذين الغرضين بأمور ثلاثة :

(أ) بيان طوائف الناس أمام القرآن .

(ب) بيان أصول الدين عند الله .

(ج) قصة الخلق وآدم عليه السلام .

وختمت السورة موضوعيها ببيان الدعوة المحمدية فى قوله تعالى : « **آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير** » .

ويعلق فضيلته على توضيحه هدفى السورة بقوله : « هـذه حبات جانبى العقد الذى ينتظم موضوعات سورة البقرة التى جاءت آية البر واسطة لها نسردها على هذا النحو بين يدى تفسيرنا لهذه الآية التى اخترناها لهذا العدد من « رسالة الاسلام » وقد سلكنا بهذا الصنيع سبيلا غير التى ألفها الناس فى التفسير لنضـع بين يدى القارىء الموضوعات التى عرضت لها السورة فيما قبل هذه الآية ٠ والموضوعات التى عرضت لها فيما بعدها فى سلك واحد يجمـع حبات كل جانب ، ويعطى النـاظر اليه صـورة كاملة لجميـع ما احتوت عليه تلك السورة الكريمة وتعينه على الرجـوع بكل مسألة فيها الى نوعها وغرضها التى ترتبط فيه مع زميلاتها ٠

ثانيـا ـ فضيلة الأسـتاذ الكبير المرحـوم الدكتور محمـد عبد الله دراز :

كان فضيلته ـ رحمة الله عليه ـ مؤمنا بالوحدة المعنوية لكل سورة من سور القرآن ٠ برغم أن السـورة كانت تنزل منجمـة مقسطة ٠ وفى أوضـاع تأليفية عجلى ومشتتة وبين أجزائها عناصر معنوية مختلفة ٠

« ومع هذا سبكتها وأحكمت صنعتها يد الله السميع البصير ، فانظر الآن هل استطاعت هذه الأسباب على تضافرها أن تنال شيئا من استقامة النظم فى السورة المؤلفة على هذا النهج ؟

« أما العرب الذين تحداهم القرآن بسورة منه فلقد علمت لو أنهم وجدوا فى نظم سـورة منه مطمعا لطامع ، بل مغمزا لغامز ، لكان لهم معه شـأن غير شأنهم وهم هم ٠ وأما البلغـاء من بعدهم فمازلنا نسمعهم يضربون الأمثال فى جودة السبك واحكام السرد بهذا القرآن حين ينتقل من فن الى فن ٠

« وأما أنت فأقبل بنفسك على تدبر هذا النظم الكريم لتعرف بأي يد وضع بنيانه ؟ وعلى أي عين صنع نظامه ؟ حتى كان كما وصفه الله ((**قرآنا عربيا غير ذى عوج**))(١) اعمد الى سورة من تلك السور التى تتناول أكثر من معنى واحد وما أكثرها فى القرآن، فهى جمهرته ، وتنقل بفكرتك معها مرحلة مرحلة ، ثم ارجع البصر كرتين : كيف بدئت ، وكيف ختمت ؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت ؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت ؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ووطأت اولاها لأخراها ؟

وانا لك زعيم بأنك لن تجد ألبته فى نظام معانيها او مبانيها ما تعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت فى نجم واحد أم فى نجوم شتى .

ولسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة ، حتى يحدثك التاريخ أنها كلها أو جلها نزلت نجوما »(٢) .

ثم يضرب مثلا لذلك بأطول سورة فى القرآن وهى سورة البقرة ليبين أنها وحدة معنوية مرتبط بعضها ببعض فيقول :

« نظام عقد المعانى فى سورة البقرة » .

« اعلم أن هذه السورة على طولها تتألف وحدتها من مقدمة وأربعة مقاصد وخاتمة على هذا الترتيب :

(المقدمة) فى التعريف بشأن هذا القرآن وبيان أن ما فيه

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الزمر .

(٢) النبأ العظيم ـ للمرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٧٣ ـ ١٧٤ .

من الهداية قد بلغ حدا من الوضوح لا يتردد فيه ذو قلب سليم . انما يعرض عنه من لا قلب له ، أو من كان فى قلبه مرض .

(المقصد الأول) فى دعوة الناس كافة الى اعتناق الاسلام .

(المقصد الثانى) فى دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة الى ترك باطلهم والدخول فى هذا الدين الحق .

(المقصد الثالث) فى عرض شرائع هذا الدين تفصيلا .

(المقصد الرابع) ذكر الوازع والنازع الدينى الذى يبعث على ملازمة تلك الشرائع ويعصم عن مخالفتها .

(الخاتمة) فى التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد ، وبيان ما يرجى لهم فى آجلهم وعاجلهم »(١) .

ثالثا ــ فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد محمد المدنى .

يرى فضيلته « أن لكل سورة روحا يسرى فى آياتها ويسيطر على مبادئها وأحكامها وتوجيهاتها وأسلوبها »(٢) .

ونرى من عرضه الاجمالى لسورة النساء أن لها هدفا ترمى الى تحقيقه وهو « توضيح معالم المجتمع الاسلامى وتبيين الخطوط المكونة لصورته والمميزة لملامحه وقسماته على الوجه الذى يسعده ويرد عنه غوائل الشر وعوامل الفساد »(٣) .

وفى نهاية عرضه الاجمالى للسورة الذى يتبين منه وحدتها وتناسقها برغم ما يتخلل ذلك من استطراد مناسب يقول : « هذا

---

(١) النبأ العظيم ــ المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٨٥ .
(٢) المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء ــ ص ٥ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٠ .

عرض اجمالي لما تضمنته سورة النساء من الأحكام والمبادىء والوصايا ، وكلها ذات صلة وثيقة بشأن المجتمع ، ووضع الأسس التي يجب أن يقوم عليها .

ويمكننا أن نرد ذلك – اذا أردنا ايجاز أكبر – الى الأمور الآتية :

١ – اعلان مبدأ المساواة بين الناس تمهيدا لاقامة المجتمع على أساسه .

٢ – حقوق النساء ، واليتامى ، والسفهاء .

٣ – أحكام المواريث .

٤ – أحكام الزوجية وما يتصل بها .

٥ – التضامن الاجتماعي في ظل التوحيد والخلق الكريم .

٦ – أساس الحكومة الاسلامية .

٧ – التحذير من أهل النفاق والكفر ، ومن الأعداء الذين يتربصون الدوائر بالمؤمنين ويحاربونهم حروبا مادية ومعنوية .

٨ – ارسال الرسل شأن الهي . وليس محمد بدعا من الرسل .

٩ – اقامة الحجة على من يزعمون التثليث ، واثبات أن الله واحد ، وأن المسيح ما هو الا عبد الله .

١٠ – الرسالة المحمدية رسالة عامة موجهة الى الناس أجمعين »(١) .

---

(١) المجتمع الاسلامي كما تنظمه سورة النساء – ص ٤٢ .

ومن هذا العرض يتبين لنا أن الأستاذ الامام محمد عبده ، كان رائدا من رواد النهضـــة الاسلامية ، وقائد مدرســـة اهتمت بالقرآن الكريم كمصـــدر أســـاسى للتوجيـــه والمعرفة • ورأت أن الوحدة فى السورة لا تقل أهميـــة عن جمع المصحف فى كتاب واحد ، فهذه حفظته من الضياع ، وتلك حمته من هجمات الأدعياء ، وبينت أن للســـورة منه روحا عامة تسيطر عليها وترمى من ورائهـــا الى احياء روح المجتمع الاســـلامى واحكام بنائه • كيف لا والقرآن روح من عند الله ، قـــال سبحانه : **((وكذلك أوحينا اليك روحـــا من أمرنا))** الشورى/٥٢ •

الأســاس الثــانى

عمــوم القــرآن وشــموله

١ ــ « معانى القرآن عامة وشاملة وارشاده مستمر الى يوم القيامة فلا يحمل وعظــه ووعده ووعيده على أشــخاص بعينهم . وانما نيط وعده ووعيــده وتبشيره وانذاره بالعقــائد والأخــلاق والعادات والأعمال التى توجد فى الأمم والشعوب »(١) . وهــذه ميزة واضحة اختص بها القرآن الكريم من بين الكتب السماوية . فكل كتاب نزل الى قوم بعينهم ، ولزمن معين ، وشــمل التغيير والتبديل كثيرا من هذه الكتب .

أما القرآن الكريم فهو كتاب الاسلام . وهو دعوة عامة للناس جميعا « **وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا** » وهو دستور باق ، وتشريع مستمر باستمرار حاجة الناس الى التشريع . وقد تكفل بحفظه السميع البصير فقال سبحانه « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحــافظون** » الحجر/٩ .

وكثيرا ما كان يتوسع الأستاذ الامام فى معنى الآيات أو يحمل النظير على النظير ليطبق القرآن على ما هو واقع بين الناس . فهو

---

(١) تفسير المنار جـ١ ص ١٧٩ ــ ١٨٠ .

اذ يفسر الآيات الواردة فى صفات المنافقين من أول سورة البقرة يطبق هذه الصفات على المنافقين فى عصرنا وفى كل عصر « فلا يغترن أحد بقول بعض المفسرين ان هذه الآيات نزلت فى المنافقين الذين كانوا فى عصر النبى (صلى الله عليه وسلم) فيتوهم أنها لا تتناوله وان كانت منطبقة عليـه ، لأنه لم يتخذ القرآن اماما وهاديا . ولم يستعمل عقله ومشـاعره فيما خلقت له بل اكتفى عن ذلك بتقليد آبائه ومعاصريه فى كل ما هم فيه » .

٢ ـ والأستاذ الامام بهذا يريد أن يجعل من القرآن دروسـا يحتذيها المسلمون وآدابا يترجمونها فى أفعالهم وأحوالهم ، فهو يقول فى تفسير سـورة الشرح عند آية ((**ان مع العسر يسرا**)) . « وكأن هذه الآية عبرة لهذه الأمة وكأن عليهـا أن تعرف أن مع العسر يسرا وأن وعد الله فى هـذه الآية حق وأن تقتدى بنبيهـا فى طلب الوسائل للخلاص مما هى وعندها كتاب الله وحده هداية للمهتدى وقدوة للمقتدى ، ولمـا كانت القضية موضعـا للريب خصوصـا عند من أخذ الضيق بخناقه أكدت ب « ان » . ولمـا كان الشـك يزداد بل قد ينتهى الى الانكار فى بعض أنواع العسر ، اسـتأنف القضية نفسها واعادها بلفظها فقال ((**ان مع العسر يسرا**)) ولكن على أن يكون معناها أعم من معنى سابقتها .

ولا يفوت الأستاذ الامام أن يدفع شبهة من أذهـان بعض من يسمع هذا الكلام ، فيقول : « قد تقع أمم أو أشخاص فى ضرب من ضروب العسر من نوع ما سبق ، ثم يجدون الضعف من هممهم عن الخلاص مما أطبق عليهم منه فيدوم لهم العسر وقد يموتون وتنشأ فيه أعقـابهم . فأين اليسر الذى يصحب العسر عند هؤلاء ؟ . ومن ضروب العسر ما يختلف نوعه عن المعهود كالمرض الطويل المفضى الى الموت ، وكالزمانـة التى تصحب الزمن من أول حياتـه الى

مماته • فأى يسر جاء مع عسرها ؟ فجاءت هذه الآية المستأنفة لرفع هذا الاشتباه فى عموم السنة الالهية ، وذلك أن أولئك الذين استعملوا ما وهبهم الله من القوى للخلاص مما ينزل بهم اذا كان مما يمكن كشفه ، لا ريب فى كشف العسر عنهم بنوع من أنواع اليسر كما وقع للنبى (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه • أما الآخرون الذين لا بصيرة عندهم فى تصريف تلك المواهب الالهية بل يطلبون أن ينتهوا الى الغايات بغير بدايات ، وأن يصلوا الى المقصد بغير وسيلة فلا يستعملون عقولهم ولا عزائمهم فى دفع ما يحل بهم • وليس لهم ثقة بربهم فيعملوا معتمدين عليه — هؤلاء يحسون بالألم حينا ثم تخنس نفوسهم وتقبع فى حجر الاستكانة وتستقر فيها طمانينة الرضا بما غمرها من الضر فتسلب الاحساس به ، ثم اذا طال بها الزمن تحول فيه الألم الى لذة بالمعتاد ، ولا عجب من تحول الألم الى لذة فانك تراه فى شارب الدخان ، مثلا يألم لأول مرة بل قد يأخذه الدوار وأشد آلام الصداع ثم ما يلبث أن يكون عادة مرغوبة يألم أشد الألم لتركها • ومن هذا نجد الأمم التى تعودت على عسر الاستبداد والظلم قد الفت ذلك حتى صار يصعب عليها أن تحتمل غيره ، ولاتزال تحن اليه • وكلما طلب ابعادها عنه اندفعت بالاقبال عليه فهذا نوع من اليسر ، وان كان أشأم من العسر ، ولكن أليست النفس راضية له مطمئنة اليه ؟ أما المرض الطويل الممتد الى الموت والزمانة مما لا يمكن كشفه فلك أن تقول انه لا يدخل فى أنواع العسر التى شملها استغراق العهد فان الاستغراق للعسر والضيق المعهودين ، وهما ما يمر بالخاطر اذا وقع الحديث على العسر أو الضيق وذلك هو الأنواع التى ذكرناها فى تفسير الآية السابقة ((**فان مع العسر يسرا**)) وبالجملة فالعسر الداخل فى الاستغراق هو كل ما تجد النفس ألم الوقوع فيه وتنزع الى طلب الخلاص منه بالوسائل التى سنها

الله لذلك الخـلاص ، ولا ريب فى أن كل عسر من هـذا القبيل معه يسر يســوقه الله الى العامل الآمل العاقل ، جزاء عمله لتحقيق امله ، واستعماله لموهبـة عقله ، أما مثل الزمانة والمرض الطويل فيدخـلان فى نحو قولـه : ((**فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون سـاعة ولا يستقدمون**)) وكذلك يقال فى عارض يعرض للأمة اذا حم هلاكها كزلزال ونحوه والله أعلم ، وتنكير اليسر لأن الذى يأتى بعد العسر أى نوع من أنواعه لا يختص بيسر معين ، والتعبير بالمعية لتوثيق الأمل بأنه لابد منه كأنه معه • اذا علمت أن مع العسر يسرا فاعلم أن مع التعب فى العمل النافع راحـة ((**فاذا فرغت**)) من عمل من اعمالك النافعـة لك ولأمتك ((**فانصب**)) أى خذ فى عمل آخر واتعب فيه فانك تجد لذة الراحة عقب النصب بما تجنيـه من ثمرة العمل ((**والى ربك فارغب**)) أى لا ترغب الى أحد فى استثمار أعمـالك الا الى الله وحده))(١) •

٣ ــ والأستاذ الامام يطبق فى تفسـيره القاعدة المشـهورة ((العبرة بعموم اللفظ لا بخصـوص السبب)) كلما وجد الى ذلك سبيلا ، ففى تفسيره لقوله تعـالى : ((**فانذرتكم نارا تلظى لا يصلاها الا الأشـقى الذى كذب وتولى ، وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى مالة يتزكى**)) •

يرى ان الأشـقى جنس عام يشـمل كل مذنب أحـاطت به خطيئته ، وكل مؤمن ضعف ايمانه فارتكب المعاصى التى لا يرتكبها وهو مؤمن • وكذلك يتوسـع فى معنى الأتقى ليشمل كل أفراده المستقيمين فعلا • أو الراجعين الى الله بعد ذنوب أقلعوا عنها وندموا عليها واستقاموا فعلا على جـادة الحق • وبتفسير الأتقى والأشقى

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٠٧ •

على النحو الذى سمعته تبطل تلك الاشكالات التى أوردها المفسرون فى الحصر ـ وما أشكل عليهم الا تقيدهم بالعادة فى استعمال ألفاظ ((**كذب وتولى**)) . وتحكيمهم عاداتهم واصطلاحاتهم التى وضعوها من عند انفسهم لأنفسهم فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله . ثم انهم يوردون هنا أسبابا للنزول ومن الآيات نزلت فى سيدنا أبى بكر رضى الله عنه لأنه اشترى من ارقاء المسلمين ضعفاء وأعتقهم من ماله لا يبتغى فى ذلك الا وجه الله . ورووا غير ذلك وقالوا ان ((**الأشقى**)) هو أمية بن خلف ، وقيل غير ذلك ومتى وجد شىء من ذلك فى الصحيح لم يمنعنا من التصديق به مانع ولكن معنى الآيات لايزال عاما كما رأيت والله أعلم))(١) .

والأستاذ الامام بسلوكه هذا المسلك فى تفسير القرآن يؤكد معنى العموم والشمول لآيات الله الحكيم . وأنه كتاب البشرية الخالد ومصباح الهداية ومنار الاسترشاد وفيه علاج المجتمع ، وشفاء ورحمة للمؤمنين ، من قال به صدق ومن حكم به عدل ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله . لم تسمعه الجن حتى قالت : ((**انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا**))(٢) .

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٠٧ .
(٢) سورة الجن آية (١) و (٢) .

الأســـاس الثـــالث

القـــرآن الكـــريم
هو المصـــدر الأول للتشريـــع

ينهج الأستاذ الامام فى تفسيره على اعتبار القرآن الكريم الأصل الأول من أصـــول التشريع . والاعتماد عليه أولا عند تقنين أى حكم من الأحكام .

وهو يتبع بذلك خطة النبى صلى الله عليه وسلم حين أرسل معاذا الى اليمن . وسأله الرسول صلى الله عليـــه وسلم « ماذا تصنع ان عرض لك قضـــاء . قال أنظر حكمه فى كتاب الله . قـــال فان لم تجد ؟ قال : أنظر فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال : فان لم تجد ؟ قـــال : أجتهد رأيى ولا آلو . فقـــال النبى صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذى وفق رســـول رســـول الله لمـــا يرضى الله ورسوله »(١) .

والأستاذ الامام بهذا يرد للقرآن وضعه الطبيعى فى التشريع وينبه المقلدين الى غفلتهم عن مصـــادر التشريع الأولى وغرقهم فى

(١) رواه ابو داود والترمذى والدرامى .

حماة التقليد ـ حتى كتب أحد شراح الحديث يقول فى شرحه : هذا الحديث ليس على مذهب الشافعية ٠ مع أن الشافعى رضى الله عنه يقول : « اذا صح الحديث فهو مذهبى واضربوا بقولى عرض الحائط » ٠

ويرى الأستاذ الامام أن الأئمة المجتهدين مأجورون فى اجتهادهم ولكن هذا لا يبيح لنا أن نقدم رأيهم على القرآن الكريم ٠ ولذلك تراه يسخر من بعض المفسرين الذين يعتبرون بعض آيات من القرآن مشكلة لأنها لم توافق آراء المذاهب ٠

وقد اعتمد ـ رحمه الله ـ على القرآن وحده فى اباحة التيمم للمسافر مع قدرته على استعمال الماء ٠ مخالفا فى ذلك جميع المذاهب ٠ واعتمد على قوله تعالى : ((**يايها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ، ولا جنبا الا عابرى سبيل حتى تغتسلوا وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ان الله كان عفوا غفورا**))(١) ٠

قال الأستاذ الامام ـ مؤكدا جواز التيمم للمسافر ـ عند تعليقه على تفسيره هذه الآية : « المعنى أن حكم المريض والمسافر اذا أراد الصلاة حكم المحدث حدثا أصغر أو ملامس النساء ولم يجد الماء فعلى كل هؤلاء التيمم فقط ٠ هذا ما يفهمه القارىء من الآية نفسها اذا لم يكلف نفسه حملها على مذهب من وراء القرآن يجعلها بالتكلف حجة له منطبقة عليه » ٠ وقد طالعت فى تفسيرها خمسة وعشرين تفسيرا فلم أجد فيها غناء ٠ ولا رايت قولا يسلم من التكلف ، ثم رجعت الى المصحف وحده فوجدت المعنى واضحا

---

(١) سورة النساء آية ٥٧ ٠

جليا ، فالقرآن أفصح الكلام وأبلغه واظهره وهو لا يحتاج عند من يعرف العربية مفرداتها وأساليبها الى تكلفات فنون النحو وغيره من فنون اللغة عند حافظى أحكامها من الكتب مع عدم تحصيل ملكة البلاغة الى آخر ما أطال به فى الأنكار على المفسرين الذين عدوا الآية مشكلة لأنها لم تنطبق على مذاهبهم انطباقا ظاهرا سالما من الركاكة »(١) ٠

وقد شايعه فى طريقته تلميذه السيد الأستاذ رشيد رضا ، فقال معلقا على كلام أستاذه « واذا كان رحمه الله قد راجع خمسة وعشرين تفسيرا رجاء أن يجد فيها قولا لا تكلف فيه ، فأنا لم أراجع عند كتابة تفسيرها الا روح المعانى وهو آخر التفاسير المتداولة تأليفا وصاحبه واسع الاطلاع » فاذا به يقول : « الآية من معضلات القرآن » ووالله ان الآية ليست معضلة ولا مشكلة ، وليس فى القرآن معضلات الا عند المفتونين بالروايات والاصطلاحات وعند من اتخذوا المذاهب المحدثة بعد القرآن أصولا للدين يعرضون القرآن عليها عرضا ، فاذا وافقها بغير تكلف أو بتكلف قليل فرحوا ، والا عدوها من المشكلات والمعضلات ، على أن القاعدة القطعية المعروفة عمن أنزل عليه القرآن صلى الله عليه وسلم وعن خلفائه الراشدين رضى الله عنهم أن القرآن هو الأصل الأول لهذا الدين وأن حكم الله يلتمس فيه أولا فان وجد فيه يؤخذ وعليه يعول ولا يحتاج معه الى مأخذ آخر ، وان لم يوجد التمس من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا أقر النبى صلى الله عليه وسلم معاذا حين أرسله الى اليمن ، وبهذا كان يتواصى الخلفاء والأئمة من الصحابة والتابعين ، وقد رأى القارىء أن معنى الآية واضح فى نفسه ولا تكلف فيه ولا اشكال ولله الحمد ٠

---

(١) تفسير المنار ـ جـ٥ ـ ص ١١٩ ٠

سيقول أدعيــاء العلم من المقلدين : نعم ان الآية واضحــة المعنى كاملة البلاغــة على الوجه الذى قررتم ، ولكنهــا تقتضى أن التيمم فى السفر جائز ولو مع وجود المــاء وهذا مخالف للمذاهب المعروفة عندنا • فكيف يعقل أن يخفى معناها هذا على أولئك الفقهاء المحققين ويعقل أن يخالفونا من غير معارض لظاهرها أرجعوها اليه • ولنا أن نقول لمثل هؤلاء ـ وان كان المقلد لا يحاج لأنه لا علم له ـ وكيف يعقل أن يكون أبلغ الكلام وأسلمــه من التكلف والضعف معضلا مشكلا ؟ وأى الأمرين أولى بالترجيح : الطعن ببلاغة القرآن وبيانه لحمله على كلام الفقهاء أم تجويز الخطــأ على الفقهــاء • لأنهم لم يأخذوا بما دل عليه ظاهر الآية من غير تكلف وهو الموافق الملتئم مع غيره من رخص السفر التى منها قصر الصــلاة وجمعهــا واباحة الفطر فى رمضــان • فهــل يستنكر مع هــذا أن يرخص للمسافر فى ترك الغسل والوضوء وهما دون الصــلاة والصيام فى نظر الدين ؟ •

أليس من المجرب أن الوضوء والغسل يشقان على المســافر الواجد للماء فى هــذا الزمان الذى سهلت فيه أســباب الســفر فى قطارات الســكك الحديدية والبواخر ؟ أفلا يتصــور المنصف أن المشقة فيها أشد على المسافرين على ظهور الابل فى مفاوز الحجاز وجبالها ؟ هل يقول منصف ان صــلاة الظهر أو العصر أربعــا فى السفر أسهل من الغسل أو الضوء فيه ؟ السفر مظنة المشقة يشق فيه غالبا كل ما يؤتى فى الحضر بسهولة ، وأشــق ما يشــق فيه الغسل والوضوء وان كان المــاء حاضرا مستغنى عنه »(١) •

من هذا العرض يتبين لنا أن الأستاذ الامام يرى أن القرآن

---

(١) تفسير المنار ـ الجزء الخامس ص ١٢١ •

الكريم أصل التشريع ويليه السنة المطهرة ، وعليهما المعول ان اختلفت الآراء أو تعددت المذاهب .

قال تعالى : ((**يايها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا**))(١) .

وطاعة الله تكون بتحكيم كتابه ، وطاعة الرسول بالتزام سنته ، وأولو الأمر هم أصحاب الرأى من العلماء والأئمة المجتهدين .

فان وقع خلاف فلن يكون فى أمر الله ولا فى أمر رسول الله انما يكون الخلاف فى آراء الفقهاء وأقوال العلماء . واذا وقع الخلاف فلنرده الى الأصلين الثابتين وهما : كتاب الله وسنة رسول الله . وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ يقول : ((**تركت فيكم ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا كتاب الله وسنتى**)) .

ومما ينبغى مراعاته فى هذا المقام أن الفقه الاسلامى قد مر بمراحل يمر بها الكائن الحى وهى عصر النشأة . وعصر الشباب . وعصر النضوج والكمال . وأخيرا عصر التقليد .

وفى عصر التقليد التزم الفقهاء مذاهب أئمتهم وتعصبوا لها . بل حملوا القرآن عليها . فحمل صاحب المنار ومن قبله الأستاذ الامام على التفاسير السابقة التى تقدم آراء المذاهب على كتاب الله ، وتريد ان تؤول القرآن بما يوافق آراء شيوخهم وأصحاب مذاهبهم .

وبينا أن القرآن امام غير مأموم ، وحاكم غير محكوم وصدق الله العظيم : ((**ومن أصدق من الله قيلا**)) .

---

(١) سورة النساء الآية ٥٩ .

الأســـاس الرابـــع

محـــاربة التقليـــد

يذم الأسـتاذ الامام التقليد فى تفـكير المسلم المتأخر ويوجب الرجوع الى فهم المسلمين الأولين للقرآن .

١ ــ فلا يترك الأستاذ الامام آية من آيات القرآن تذم اتباع الآباء السابقين من غير تفكير . مثل قوله تعالى : ((**واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون**)) البقرة/١٧٠ الا ويلحق بهـذا النوع من التقليد العلماء الذين يصرحون بأنهم مقلدون لا يلزمهم النظر فى الكتاب والسنة ، بل يعتمدون على ما كتب غيرهم فى الفقه ويدينون لكتب المقدمين على تعارضها وتناقضها ، ويكتفون بقولهم وكلهم من رسول الله ملتمس .

وفى تفسيره لقوله تعالى : ((**وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين**)) البقرة/١١١ .

نراه يستدل بآخر هذه الآية على أن « القرآن علم أهله أن يطالبوا الناس بالحجة لأنه أقامهم على سواء المحجة . وجدير بصاحب اليقين أن يطـالب خصمه به ويدعوه اليه . وعلى هـذا درج سلف هذه الأمة الصـالح . « قالوا بالدليل . وطالبوا بالدليل ونهوا

عن الأخذ بشيء من غير دليل ، ثم جاء الخلف الطـالح فحكم بالتقليد وأمر بالتقليد ، ونهى عن الاستدلال على غير صحة التقليد • حتى كأن الاسـلام خرج عن حده ، أو انقلب الى ضـده ، وصار الذين يعلمون أن الاسـلام امتـاز عن سـائر الأديان بابطـال التقليد ، وبالمطالبة بالبرهان والدليل ، وعلم النـاس استقلال الفكر ، مع المشاورة فى الأمر • يطالبون المسلمين بالرجوع الى الدليل ويعيبون عليهم الأخذ بقـال وقيل • وياليته كان الأخذ بقول الله ، وقيـل فيما يروى عن رسول الله ، ولكنه الأخذ يقال فلان وقيل عن علان(١) ٥٣ : ٢٣ ((**ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان**))(٢) النجم/٢٣ •

٢ ـ وقد كان الأستاذ الامام متأثرا فى ذلك بحالة المسلمين الراهنة وما أصابهم من ضعف سـياسى وضعف فى الثقافة الاسلامية الموروثة التى لصق بها من عوامل الضعف والتقليد ما جعلها عاجزة عن أن تواجه تيار الحيـاة المتجدد • وعاجزة عن أن تواجه الحياة الحديثة فى أسـلوبها وأن تلائم بين أحداثها وتعـاليم الاسـلام • بينما كان لطوافه فى أوربا واطلاعه على نهضـة القوم وايجابيتهم فى الحيـاة واتباعهم المنهج العلمى الحـديث فى البحث والمقارنـة والاستنتاج أثره فى دعوته المسلمين فى كل مناسبة الى ترك التقليد واحترام عقولهم والاعتماد عليهـا فى الفهم والاستنتاج والاستنباط•

وهو لذلك يدعو العلمـاء الى الاعتمـاد على كتب القرون المتوسطة كالقرن الثالث والرابع الهجرى •

وعدم الاعتماد على كتب القرون المتأخرة التى ألفت فى عهد الضعف السـياسي والفكرى ويضرب مثلا فيقول : ((هذا الشوكانى

---

(١) المنار الجزء الاول ص ٢٢٤ •

(٢) هذه الآية فى المنار جـ٦ ص ٩٥٢ •

لما كسر قيود التقليد الأعمى . حيث كان وهابيا معتدلا صار عالما وفقيها .. ان حالة الفقهاء هي التي ضيعت الدين . ان الناس تعرض لهم باختلاف الزمان أمور ووقائع لم ينص عليها في الكتب فهل يوقف سير العالم لأجل كتبهم » ؟

هذا لا يستطاع ولذلك اضطر العوام والحكام الى ترك الأحكام الشرعية ولجئوا الى غيرها . ان أهل بخارى جوزوا الربا لضرورة الوقت عندهم . والمصريون قد ابتلوا بهذا فشدد الفقهاء على أغنياء البلاد فصاروا يرون أن الدين ناقص فاضطر الناس الى الاستدانة من الأجانب بأرباح فاحشة استنزفت ثروة البلاد وحولتها للأجانب . والفقهاء هم المسئولون عند الله عن هذا وعن كل ما عليه الناس من مخالفة للشريعة ، لأنه كان يجب أن يعرفوا حالة العصر والزمان ويطبقوا عليه الأحكام بصورة يمكن للناس اتباعها (أي كأحكام الضروريات) لا أنهم يقتصرون على المحافظة على نقوش هذه الكتب ورسومها ويجعلونها كل شيء ويتركون لأجلها كل شيء .

يقرأون الأصول ولا يخطر ببال احد منهم أن يرجع فرعا من هذه الكتب الى أصله أو يبحث عن دليله . بل لم يخجلوا أن يقولوا نحن مقلدون لا يلزمنا النظر في الكتاب والسنة(١) .

٣ — وقد كان تفسير الأستاذ الامام للقرآن الكريم محاولة موفقة لاظهار هذا التراث الاسلامي مسايرا للتطور موافقا لحاجات الناس في كل زمان ومكان .

فالاسلام قد تميز عن الأديان السابقة بأن كل دين كان خاصا بفئة من الناس ، ولمدة من الزمن ، أما الاسلام فهو رسالة البشرية

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده — الجزء الاول الطبعة الاولى — في مطبعة المنار — ص ٩٤٤ و ٩٤٥ .

كافة « **وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا** »، « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** » .

وهو رسالة خالدة باقية قال تعالى : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » وحفظ الكتاب لا يكون حفظ رسمه وآياته . بل من الحفظ أن يحفظ معانيه وأوامره لتناسب حال الناس . ولا يكون ذلك الا بحسن الفهم له بما يناسب أوامر الله ومصالح المسلمين .

وقد كرر دعوته الى الاجتهاد . ومحاربة التقليد فى غير مرة بل بمناسبة وبغير مناسبة فنراه فى تفسير آخر سورة « عبس وتولى » رغم أنه ليس فيها مناسبة لذم التقليد ـ فقد تحدثت السورة عن صنفين من الناس فى يوم القيامة قال تعالى : « **وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة** » يقول الأستاذ الامام معلقا على تفسير هذه الآية :

« فمن كان فى هذه الحياة الدنيا طالبا للحق ناظرا فى الدليل لا تحجبه عن الاعتبار غفلة ولا تأخذه عن الحق اذا ذكر به أنفة ولا تنفره منه عادة ، ولا تباعده عنه ألفة ، فهو لا يعقد لنفسه عقيدة ، الا بعد تقريرها على المقدمات الصحيحة المستمدة من حكم البديهة ، ليس رأى فلان ، او قيل سابق فى زمان . الا قول رسول كريم قامت على عصمته براهن يقبلها العقل السليم ، ويؤيدها الذكر الحكيم . ثم أخذ نفسه بالعمل على ما يطابق عقيدته ، فهو كما يعتقد بالحق يعمل للحق من كان هذا شأنه فى حياته هذه فما الذى يلاقيه اذا جاءت الصاخة .. ان وجهه يتهلل ويسفر ويضحك ويستبشر .

وأما من احتقر عقله ، ورضي جهله وصرفه عن الدليل ما أخذه عن آبائه ، وتلقاه عن سلفه ورؤسائه ٠٠ فانه يوم القيامة تعلو وجهه الغبرة وتغشاه الفترة لأنه من الكفرة الفجرة »(١) ٠

٤ ــ وقد حارب الأستاذ الامام هذه الفكرة التى شاعت بين الناس والوهم الذى انتشر بينهم ٠ من أن باب الاجتهاد قد أغلق من قرون واقتصر اجتهاد الفقهاء على ترجيح بعض أقوال السابقين على بعض فهو اجتهاد مقفل داخل مذهب معين وتفكير معين ٠

حمل الأستاذ الامام على هذا الوهم حملات متعددة بددت فيالقه وأضعفت قيمته ٠ وبين أن باب الاجتهاد مفتوح الى يوم القيامة بشرط أن يتوفر فى المجتهد أو المستنبط الشروط التى نص عليها فى كتب الأصول « وآمن الامام بأن للانسان وجودا ذاتيا وكيانا مستقلا فى هذا العالم ويستتبع ايمانه بوجوده الذاتى ، اقرار امكانه على فهم الكتاب المنزل والتفقه على أساس منه »(٢) ٠ ومن أسباب ثورة الأستاذ الامام على التقليد وندائه بضرورة الاجتهاد « أن الحياة الانسانية للمجتمع الانسانى حياة متطورة ويجد فيها من الأحداث والمعاملات اليوم ما لا يعرفه أمس هذه الجماعة ٠ والاجتهاد هو الوسيلة المشروعة للملاءمة بين أحداث الحياة المتجددة وتعاليم الاسلام ٠ ولو وقف الأمر بتعاليم الاسلام عند حد تفقه الأئمة السابقين لسارت الحياة الانسانية فى الجماعة الاسلامية فى عزلة عن التوجيه الاسلامى ٠ وبقيت أحداث هذه الحياة فى بعد عن تجديد الاسلام اياها ٠ وهذا الوضع يحرج المسلمين فى اسلامهم كما يحرجهم فى حياتهم »(٣) ٠

---

(١) تفسير جزء عم ص ٢٤ ٠
(٢) الفكر الاسلامى الحديث : للدكتور محمد البهى ص ١٣٧ ٠
(٣) المصدر السابق ص ١٣٧ ٠

٥ ـ على أن الحرب التى شنها الأستاذ الامام على التقليد وترك الاجتهاد لم يكن مبتدعا لها بل كان مسبوقا فيها بأئمة مجددين ودعاة مصلحين هالهم حال العالم الاسلامى وعملوا على النهوض به وتحرير عقول أهله من خرافة قفل باب الاجتهاد ٠

وكان من هؤلاء ابن تيمية ، وابن قيم الجوزيه ، اللذان حملا على المذاهب الفقهية حملة شعواء لأنها تدور حول باب مقفل وبينوا أن الاستنباط يجب أن يؤخذ من الكتاب والسنة وما عدا ذلك « فهم رجال ونحن رجال » ٠

وقد سار على نهجه فى حرب التقليد تلميذه المخلص وحامل فكرته من بعده السيد الأستاذ رشيد رضا ٠ فدعا الى الاجتهاد وحارب التقليد فى كثير من مواضع تفسيره العظيم ٠ وشبه المقلدين من المسلمين لشيوخهم بالمقلدين من أهل الكتاب لأئمتهم واتباعهم فيما يحلون ويحرمون ٠

فعند تفسير الجزء الأخير من قوله تعالى : **« قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله »** آل عمران/٦٤ ٠

يقول فى تفسيره :

« فالرب هو السيد المربى الذى يطاع فيما يأمر وينهى : والمراد من له حق التشريع والتحليل والتحريم كما ورد فى حديث عدى بن حاتم قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ وفى عنقى صليب من ذهب فقال يا عدى اطرح عنك هذا الوثن وسمعته يقرأ سورة براءة (٨ : ٣١) **« اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله »** : « فقلت : يا رسول لم يكونوا يعبدونهم ، فقال : أليس يحرمون ما أحل الله فيحرمون ؟ ويحلون ما حرم الله

فيحلون ؟ فقلت : بلى » • وسـئل حذيفة رضى الله عنه عن الآية فأجاب بمثل ذلك •

« قال الأستاذ الامام : كان اليهود موحدين ولكن كان عندهم شيء هو منبع شقائهم فى كل حين وهو اتباع رؤساء الدين فيما يقررونه وجعله بمنزلة الأحكام المنزلة من الله تعالى ، وجرى النصارى على ذلك وزادوا مسألة الغفران وهى مسألة تفاقم أمرها فى بعض الأزمان حتى ابتلعت بها الكنائس أكثر أملاك الناس ، ومن الغلو فيها ولدت مسألة البروتستانت اذ قاموا فقالوا هلم بنا نترك هؤلاء الأرباب من دون الله ونأخذ الدين من كتابه لا نشرك معه فى ذلك قول أحد •

« قال الفخر الرازى بعد ما نقل حديث عدى فى تفسير الآية :

« قال شيخنا ومولانا خاتمة المحققين والمجتهدين رضى الله عنه قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرات عليهم آيات كثيرة من كتاب الله تعالى فى بعض المسائل وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا اليها وبقوا ينظرون الى كالمتعجب ، يعنى كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها • ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء ساريا فى عروق الأكثرين من أهل الدنيا » •

قال السيد رشيد رضا • معلقاً عن كلام الفخر الرازى :

« ان شيخه رحمه الله كان مجتهدا بحق ، أما هو فعلى توسعه فى فن الاستدلال يؤمن بالمذهب تارة بالتأويل والجدل ويستقل بالاستدلال أخرى • وقد جاء بعد شيخه كثير من المجتهدين مثله • ولكن كثرة المقلدين وتأييد الحكام لهم قد نصر باطلهم على حق أولئك الأئمة ، ولولا الحكام الجاهلون والأوقاف التى وقفت على فقه

المذاهب لم يتفرق المسلمون فى دينهم شيعا حتى صدق عليهم ماورد فى أهل الكتاب قبلهم الا من هداه الله ووفقه لايثار كتاب الله وسنة رسوله على كل شيء »(١) .

وانت ترى أن الأستاذ الامام جعل من تفسيره للقرآن الكريم منبرا يدعو فيه أحرار العلماء الى أعمال عقولهم والتفكير فيما يصلح أهل زمانهم ومحاربة التقليد الذى يؤدى بالمسلم الى أن يكون شخصا سلبيا فى الحياة يقوم علمه على ترديد آراء السابقين وينتهى مجهوده الى نقل كلام المتقدمين مع أن العلم ليس وقفا على متقدم ، ولا حبسا على السابقين بل ربما أتى الأواخر بما لم يتهيأ مثله للأوائل .

والقرآن الكريم دستور المسلمين ، وحياتهم متجددة . وتطرأ فى أزمانهم أحداث لم تكن عند السابقين « وذلك يوجب على العلماء أن تكون لهم جمعيات يتدارسون فيها أمور الدين ويعللون أحكامه . واذا كان بعض الأحكام قد رجح لظروف خاصة فيجب أن يذكروا ذلك »(٢) .

وفى منظومة فنية تدرس فى الأزهر تقرأ هذا البيت :

اذ كل من قلد فى التوحيد ايمانه لم يخل من ترديد

٦ ـ وقد كان الامام مصلحا ومجتهدا . فراعى المصلحة العامة فى تفسيره للقرآن الكريم وفى فتاويه العامة وطالب الحكام وأولى الأمر والفقهاء برعاية مصالح الناس فى أحكامهم وفتاويهم .

وبين لهم أن المصلحة العامة أصل فى الأحكام السياسية والمدنية يرجع اليه فى غير تحليل المحرمات أو ابطال الواجبات .

---

(١) المنار جـ٨ ص ٩١٦ .
(٢) تاريخ الاستاذ الامام ص ٩٤٥ .

وطالب القضاة بأن تكون أحكامهم على وفق المصالح والمنافع الوجوديـة ٠

وقد كان الامام مفتيـا للديار المصريـة ، ولكنه لم يقبل أن يعيش بين المحابر والدفاتر فجاب البـلاد المصرية ولمس علل الناس ووصف الداء ، وشخص الدواء ٠

وطاف الامام بالمحاكم الشرعية ووضع تقريرا عنها نبه فيه الحكام والقضـاة الى تأليف لجنة من العلماء لاستخراج كتـاب فى أحكام المعاملات الشرعية ينطبق على مصـالح الناس فى هذا العصر٠ ولاسيما الأحكام التى هى من خصـائص المحاكم الشرعية « ولا يعدل فيه عن مذهب الحنفية الا فى الأحكام التى لا تنطبق على مصلحـة الناس فى هذا العصر اذا حكم فيهـا بمذهبهم ، وهذه حالة ضرورة أو حاجة تنزل منزلة الضرورة ، وبهذا الاعتبـار يكون من مذهبهم لأن الحكم الذى تمس اليه الحاجـة أو يضطر اليه يصير متفقـا عليـه »(١) ٠

فالشريعة الاسـلامية عامة باقيـة الى آخر الزمان ، ومن لوازم ذلك أنها تنطبق على مصالح الخلق فى كل زمان ومكان ، مهما تغيرت أساليب العمران ، وشريعـة هذا شأنها لا تنحصر جزئيات أحكامها لأنها تتعلق بأحوال البشر ما وجدوا ، ولا يحيط بذلك علما الا عالم الغيب والشهادة ، وهو الذى جعل أساسـها حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمـال ، اذ مصالح البشر فى كل آن مبنية على هذه الأشـياء التى فيها السـعادة فى المعاش والمعـاد ٠ وقد استخرج الأئمة والفقهاء رضى الله عنهم القواعد الكلية والأحـكام

---

(١) وقد جرت الحكومة المصرية بعد ذلك على هذا الرأى ٠ انظر تاريخ الاستاذ الامام ١ ص ٦١٧ ٠

الجزئية ، وبنوها على أساس هذه الأصول الخمسة ، ومن القواعد المتفق عليها بينهم أن العبرة بالمعـانى لا بالألفاظ ، كما مر آنفا . وأن الضرورات تبيح المحظورات ، وأن المشقة تجلب التيسير ، وأن الأمر اذا ضاق اتسع ، وأن الضرر الخـاص يتحمل لدفع الضرر العام . والضرر الأشـد يزال بالأخف وأن الحاجـة تنزل منزل الضرورة عامة أو خاصة ، وأن الأحكام تتغير بتغير الأزمان ، وأن التعيين بالعرف كالتعيين بالنص ، ومن فهم كلام أئمة الفقـه حق فهمه ألفاه لا يتعدى هذه القواعد »(١) .

والقرآن الكريم يذكر فى كثير من نصوصه أن أساس التشريع رفع الحرج واليسر بالناس قال تعالى :

« يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم » .

« والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما » .

« يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا »(٢) .

« ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » « يريد الله بكم اليسر ولا يريـد بكم العسر » « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه » .

وبينت الأحاديث الشريفة الأساس العام لرعاية المصلحة ومن ذلك قوله صلى الله عليـه وسلم : **« لا ضرر ولا ضرار » « يسروا ولا تعسروا » « ان الله يحب أن تؤتى رخصـة كما يحب أن تؤتى عزائمـه » .**

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جا ص ٣١٤ .

(٢) سورة النساء : الايات ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ .

« والسلف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جروا على مراعاة المصالح فيما لا يحصى من المسائل .

« ومن ذلك أن أبا بكر رضى الله عنه استخلف عمر مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستخلف . وجمع صحف القران المتفرقة ولم يجمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحارب ما نعى الزكاة ، ولم يكن لشرب الخمر حد مقدر فجعله اربعين . وعمر رضى الله عنه لم يستخلف كما استخلف ابو بكر وأسقط سـهم المؤلفة قلوبهم فى الصدقات ، وهو ثابت بالنص . وأسقط حد السرقة عام المجاعة وهو منصـوص . وكان يشاطر من يتهمه من الولاة فى ماله لاختلاط أموالهم الخاصـة بأموال استفادوها بسلطان الولاية . وقتل الجماعـة بالواحد حين اشتركوا فى قتله ، وأوقع الطـلاق الثلاث بلفظ واحد ثلاثا حين تتابع الناس فيه وكان يحسب واحدة قبله . وأفتى بتطليق زوجة المفقود بعد أربع سنين من فقده وانقطاع خبره . ومنع بيع أمهات الأولاد وترك التغريب فى الزنا حين لحق أحد المغربين بالروم وتنصر ، ونفى ابن حجاج ـ وكان شابا جميلا ـ حين سمع بعض النساء يشبب بما يغريه .

« وعثمـان رضى الله عنه جمع المسـلمين على مصحف واحد وأحرق ما عداه ، وورث زوجة المطلق الفار منه وتتابع الناس فى شرب الخمر فى زمنه فاستشار الصحابة فى حد الشرب فقال : « من سكر هذى ومن هذى . افترى . فأرى عليه حد المفترين » فاتفقوا على جعله ثمانين .

« واتفق الخلفاء على تضمين الصناع لتهاونهم فيما بأيديهم وحاجة الناس اليهم ، وقال على : « لا يصلح الناس الا ذاك » ، وغير ذلك كثير »(١) .

---

(١) اصول التشريع الاسلامى للاستاذ على حسب الله ص ٨٥ .

وبين الإمام أن واجب الحكام النظر فى أحوال الناس واستنباط الأحكام التى تناسب حياتهم .

فان لم يفعلوا ذلك قام العلماء بجمع هذه الأحكام وتقديمها للحكام .

ويقول الامام : « كان ينبغى أن يكون للفقهاء جمعيات يتذاكرون فيها ويتفقون على الراجح الذى ينبغى أن يكون عليه العمل ، واذا كان بعض المسائل رجح لأسباب خاصة بمكان أو زمان ينبغى لهم لتنبيه على ذلك ؛ وأن هذا الحكم ليس عاما وانما سببه كذا ، لا أنهم يجعلون كل ما قيل عن فقيه واجب الاتباع فى كل زمان ومكان »(١) .

وقد أكد رأى الامام فى رعاية المصلحة العامة تلميذه السيد رشيد رضا فذكر رعاية المصلحة فى مواضع كثيرة من تفسير المنار .

يوجز الكلام عنها حينا ويبسط الكلام أحيانا وينقل كلام السابقين فى المصالح المرسلة وينقده وينظمه ويعلق عليه .

كتب عند تفسير قوله تعالى : « **يايها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم** »(٢) .

كتب معلقا على هذه الآية بحثا مستفيضا عن القياس والمصالح المرسلة استغرق ثلاثة وسبعين صفحة(٣) وهو يدل على كثرة

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ١ ص ٦٤٥ .

(٢) المائدة آية ١٠٥ .

(٣) من ص ١٣٠ ــ ٢٠٢ جـ٧ : ومن المالوف ان نرى فى تفسير المنار مباحث قيمة متنوعة تناهز المائة صفحة . وتكاد تكون مستقلة عن التفسير .

المعلومات واستقصاء نقاط البحث والدقة التامة فى مواضــع معينة والاحاطة بآراء السابقين وأفكارهم ومدى تأثير بعضهم فى بعض ٠

وفى نهاية البحث نقل صاحب المنار كلام الشاطبى فقال تحت عنوان : « ما حرره الشاطبى فى مسألة المصالح »(١) :

« وأما الشاطبى فانه جعل الباب الثامن من كتابه الاعتصـام فى التفرقـة بين البدع والمصـالح المرسلة والاستحسان ـ فأمـا الاستحسان فاذا لم يرجع الى قياس صحيح أو الى رعاية المصلحة فليس بشىء ٠ وأما المصالح المرسلة فقد وافق الشاطبى الأصوليين على عدها مما يسمونه المعنى المناسب ووضحها بعشرة أمثلة منها :

١ ـ اتفاق الصحابـة على كتابـة القرآن فى الصحف التى سمى مجموعها المصحف ٠

٢ ـ اتفاقهم على جلد شارب الخمر ثمانين جلدة ـ كذا قال ٠

٣ ـ قضاء الخلفاء الراشـدين بتضمين الصناع ٠ وقولة على رضى الله عنه فى ذلك : لا يصلح الناس الا ذاك ٠

٤ ـ ما ذهب اليه بعض العلماء من الضرب فى التهم ، وما ذهب اليه مالك من السجن فى التهم ، مع أن السجن نوع من العذاب ٠

٥ ـ ما قرره ونقل مثله عن الغزالى وابن العربى من جواز وضع الامام العـادل ضرائب واعانات مؤقتـة عند الضرورة لتكثير الجنود لسـد الثغور وحماية الملك ، اذا لم يوجد فى بيت المـال ما يفى بذلك ٠

٦ ـ اختـلاف العلمـاء فى العقـاب على بعض الجنايات بأخذ المـال ٠

---

(٢) تفسير المنار : جـ٧ ص ١٩٥ ٠

٧ ــ الزيادة على سد الرمق اذا توالت ضرورة الأكل من المحرم كالميتة فى المجاعات ، أو عم الحرام بلدا أو قطرا فى جميع الأموال ، فحينئذ لا ينظر الى أصل المال · بل يؤخذ من الوجه الشرعى كما لو كان أصله حلالا · هذا ملخص معنى ما ذكره وعزى القول به الى ابن العربى وأحال فى بسطه على الغزالى فى الأحياء اى فى كتاب الحلال والحرام من الجزء الثانى منه ·

٨ ــ قتل الجماعة بالواحد · قال : والمستند فيه المصلحة المرسلة ، اذ لا نص على عين المسألة ولكنه منقول عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو مذهب مالك والشافعى ·

٩ ــ اقامة امام للمسلمين (خليفة) غير مجتهد فى الشرع اذا فقد المجتهد على أن العلماء اتفقوا على أن الامامة الكبرى لا تنعقد الا لمن نال رتبة الاجتهاد والفتوى فى علم الشرع ، كما أنهم اتفقوا أو كادوا يتفقون على ان القضاء بين الناس لا يحصل الا لمن رقى فى رتبة الاجتهاد · وهذا صحيح على الجملة · « ولكن اذا فرض خلو الزمان عن مجتهد يظهر بين الناس وافتقروا الى امام يقدمونه لجريان الأحكام وتسكين ثورة الثائرين والحياطة على دماء المسلمين وأموالهم ــ فلابد من اقامة الأمثل ممن ليس بمجتهد » ·

ثم بين وجه ذلك وصرح بأنه لا يتجه الا على فرض خلو الزمان عن مجتهد ، وهذه مسألة فيها بحث ، وقد صرح المحققون بأنه لايجوز خلو الزمان عن مجتهد · وليس هذا محل بيان المسألة بل هو لا يتسع لتحقيق مسألة المثال المفروضة أيضا ·

١٠ ــ بيعة من لم تتوفر فيه شروط الامامة ابتداء أو استدامتها بعد وجود الكفؤ لها كالقرشى المجتهد الخ خوفا من الفتنة وتفرق الكلمة · وقد ذكر من الشواهد على هذا المثال

مبايعة ابن عمر ليزيد ولعبد الملك بن مروان على كونهما من أئمة الجور وأخذهما الملك بالسيف لا باختيار الأمة ، ونهى مالك عن الخروج على أبى جعفر المنصور ٠ وفى هذه المسألة أبحاث من وجوه كثيرة فلا تؤخذ على اطلاقها ، وقدسبق فى تفسير آية المحاربين (البغاة) قول وجيزفيها ، واشارة الى بعض مسائلها ، منه أن تحريرها لايمكن الا بمصنف خاص ، ومنه أن الرأى الغالب على الأمم فى هذا العصر أن المصلحة فى الخروج على الملوك المستبدين الجائرين كما فعلت الأمة العثمانية اذ كونت قوة خرجت بها على سلطانها عبد الحميد فسلبت السلطة منه وخلعته بفتوى من شيخ الاسلام فيها ٠

« ومن دقق النظر فى الأمثلة التى أوردها الشاطبى لمسألة المصالح المرسلة تبين له أن بعضها تدل عليه النصوص أو السنة العملية ، ومنها ما يدل عليه القياس ٠ فمن الأول كتابة القرآن فى مصحف يجمعه كله ٠ فان تسمية الله تعالى اياه كتابا يدل على وجوب كتابته ، واتخاذ النبى صلى الله عليه وسلم الكتاب له يكتبون بأمره كل ما نزل فى وقته يدل على ذلك ٠ وسبب عدم جمع النبى صلى الله عليه وسلم له فى المصحف ظاهر لا يحتاج الى اطالة الفكرة وهو احتمال المزيد فى كل سورة مادام حيا ٠ ولايمكن أن يتصور أحد ولا أن يجد شبهة على كون كتابته فى صحف متفرقة هو مطلوب الشارع وانما تلبث أبو بكر رضى الله عنه فى الأمر أولا على عادة أهل الرواية فى الأمور العظيمة ٠

وناهيك بأوائل الأعمال التى تعرض على أصحاب المناصب العليا فى مناصبهم ٠ ومن الثانى حد السكر قيل انه قياس على القذف ، وقيل انه تعزير لا يجب التزام العدد فيه ٠

« والحق الجلى الظاهر هو أن مسائل المعاملات التى يرجع فيها الى الحكام من قضائية وسياسية وحربية ترجع كلها الى الأصل الذى بينه حديث ((**لا ضرر ولا ضرار**)) أى رفع الضرر الفردى والمشترك ، ومنه أخذت قاعدة دفع المفاسد وحفظ المصالح ، مع مراعاة ما علم من نصوص الشارع ومقاصده ، وأمثلة هذا فى أعمال الخلفاء الراشدين المالية والادارية والحربية كثيرة جدا ، على أن جماهير الفقهاء يصرحون دائما بارجاع جميع الأحكام الى القاعدة المذكورة آنفا ، فقواعد العز بن عبد السلام الشافعى المشهود له بالاجتهاد المطلق أكثرها يدل على هذه القاعدة .

« وانما فر أكثر علماء الأمة من تقرير هذا الأصل تقريرا صريحا مع اعتبارهم كلهم له ــ كما قال القرافى ــ خوفا من اتخاذ أئمة الجور اياه حجة لاتباع أهوائهم وارضاء استبدادهم فى أموال الناس ودمائهم ، فرأوا أن يتقوا ذلك بارجاع جميع الأحكام الى النصوص ولو بضرب من الأقيسة الخفية . فجعلوا مسألة المصالح المرسلة من أدق مسالك العلة فى القياس ، ولم ينوطوها باجتهاد الأمراء والحكام . وهذا الخوف فى محله ولكنه لم يق الأمة من أهواء الحكام كما ينبغى ، اذ كان يوجد فى عهد كل ظالم من علماء السوء من يمهد له الطريق ولو لبعض ما يريد من اتباع الهوى .

والطريقة المثلى لحفظ الحق واقامة ميزان العدل ، هى رفع قواعد الحكم على الأساس الذى شرعه الله تعالى للمسلمين بقوله ((**وأمرهم شورى بينهم**)) وقوله ((**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم**)) لا بانكار أصل المصالح ، ولا بالتضييق فى تفريع الأحكام عليها . فاذا نيط ذلك بأولى الأمر (أى أهل الحل والعقد) الذين ينصبون الامام (الخليفة) لا يخشى من جعل مراعاة المصالح ذريعة للمفاسد ما يخشى منه فى حال اقرار كل متغلب على

الحكم مع التضييق فى مسالك استنباط الأحكام ، الذى جرى عليه جماهير الفقهاء ، وانما مثار المفاسد كلها أن يوسد الأمر غير أهله ، وأن يقر على الملك كل متغلب ويرضى بتقليده كل جائر جاهل ، فهذا هو الذى أضاع على المسلمين دينهم ودنياهم ·

نتيجة ما تقدم :

علم مما تقدم أن المسائل الدينية المحضة وهى العقائد والعبادات تؤخذ من نصوص القرآن وبيان السنة لها بالقول او العمل · على الوجه الذى كان عليه الصدر الأول من الصحابة ، فما أجمعوا عليه فلا عذر لأحد فى مخالفته ، وما اختلفوا فيه ينظر فى دلائله ويرجح بعضه على بعض ولا يلتفت الى الشذوذ ، ولا يجوز بحال من الأحوال احداث عبادة جديدة أو الاتيان بعبادة مأثورة على غير الوجه الذى كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم وجمهور أصحابه رضى الله عنهم لا بقياس ، ولا بدعوى اجماع لمن بعدهم ، ولا لمصلحة ، ولا بغير ذلك من العلل والنظريات ، لأن الله تعالى قد أكمل الدين أصوله وفروعه بكتابه وبيان رسوله صلى الله عليه وسلم وأخذنا أن ما سكت عنه فهو عفو منه سبحانه ، فمن زاد من ذلك شيئا كان مراغما لنص القرآن أو طاعنا فى بيان الرسول صلى الله عليه وسلم أو زاعما أنه أكمل منه علما وعملا بالدين ·

وأما الأمور الدنيوية من حلال وحرام وسياسة وقضاء وآداب فهى تنقسم بحسب الأدلة الى ستة أقسام :

أولا ـ ما فيه نص صريح فى الحكم وارد مورد التكليف الشرعى العام ، فالواجب أن يعمل بذلك النص ما لم يعارضه ما هو أرجح منه من النصوص الخاصة بموضوعه أو العامة كنفى الحرج ونفى الضرر والضرار ، وكون الضرورات تبيح المحظورات بنص قوله

تعالى : ((**الا ما اضطررتم اليه**)) وفى هذه الحال يجب على أئمة المسلمين تنفيذه ومؤاخذة من تركه ٠

ثانيا ــ ما يدل عليه نص صحيح بعمومه أو تعليله أو مفهومه دلالة واضحة أجمع عليها أهل الصدر الأول او عمل بها جمهورهم، وعرف شذوذ من خالف منهم ٠ فالواجب فى هذا عين الواجب فيما قبله ٠

ثالثا ــ ما ورد فيه نص تكليفى غير صريح ٠ أو حديث غير واه ولا صحيح فاختلفت فيه الصحابة أو غيرهم من علماء السلف وائمة الفقه ان كان مما وقع فى زمنهم ــ فمثل هذا يعمل فيه كل مكلف باجتهاد نفسه ويعذر كل من خالفه فيما ظهر له انه الحق فلا يعيبه ولا ينتقده ، كما اختلف السلف فى بعض أحكام الطهارة والنجاسة ولم يعب أحدهم مخالفه فيه ولم يمتنع من الصلاة معه لا اماما ولا مقتديا ، وكما فهم بعض الصحابة من آية البقرة فى الخمر تحريمها وبعضهم عدم تحريمها فعمل كل بما ظهر له ولم يعترض على غيره ٠

ومثله ما يستنبطه بعض العلماء من الكتاب والسنة فى كل زمان فمن ظهر له أن ذلك من الدين وأن كلام الله تعالى أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم دالة عليه عمل به ومن لم يظهر له ذلك فلا يكلفه تقليدا لمن استنبطه ، وقد نقل عن أشهر المجتهدين من الفقهاء أنه لا يجوز لأحد أن يقلدهم وأن يأخذ بشيء من اقوالهم الا اذا عرف مأخذه وظهر له صحة دليله ، وعند ذلك يكون متبعا لما أنزل الله لا لآراء الناس ، فلا يكون مخالفا لقوله تعالى : ((**اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه اولياء**)) ٠

واما ما يتعلق بالأمور العامة من هذا القسم كالأحكام القضائية والسياسية فينبغى أن ينظر أولو الأمر ويتشاوروا فيه من

حيث تصحيح النقل ، ومن حيث طريق الدلالة على الحكم ، فاذا ظهر لهم ما يقتضى الحاقه بأحد الأقسام السابقة ألحقوه به فكان له حكمه ، والا كان كالمسكوت عنه ٠

رابعا — ما ورد فيه نص من الكتاب أو السنة وارد مورد التكليف كالأحاديث المتعلقة بالعادات من الأكل والشرب والطب ونحو ذلك ، فالأولى والأفضل للمسلم أن يعمل بها ما لم يمنع من ذلك مانع من الشرع أو المصلحة والمنفعة العامة أو الخاصة ٠

خامسا — ما سكت عنه الشارع فلم يرد فيه عنه ما يقتضى فعلا ولا تركا فهو الذى عفا الله تعالى عنه رحمة منه وتخفيفا على عباده ٠ « فليس لأحد من عباد الله تعالى أن يكلف عبدا من عبيده تعالى فعل شيء أو ترك شيء بغير اذن منه سبحانه ، وأن ما أمرنا الله تعالى به من طاعة أولى الأمر منا خاص بأمور الدنيا ومصالحها ومشروط فيه ألا يكون فى معصية الله تعالى كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان فى الصحيحين وأبو داود والنسائى من حديث على كرم الله وجهه : « لا طاعة لأحد فى معصية الله انما الطاعة فى المعروف » واما أمر الدين فقد تم وكمل ، وهو تعالى شارع الدين كما قال : ((**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك**)) ٠

وكما قال : ((**ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها**)) والرسول صلى الله عليه وسلم هو مبلغ الدين كما قال تعالى : ((**ان عليك الا البلاغ**)) ومبينه كما قال : ((**وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم**))(١) ٠

---

(١) تفسير المنار جـ٧ ص ٢٠١ ٠

الأســاس الخـامس

اعمــال النظر واستخدام المنهــج

العلمــى فى البحث والاســتنباط

هذا المبدأ مرتبط بالمبدأ الســابق • فلئن كان ترك التقليد مبدأ سلبيا • فان البحث وضم المقدمات اليقينية واستنتاج المجهول منها مبدأ ايجــابى •

١ ـ وهذا المبدأ يزعم الغربيون أن الفضل فى العمل به يرجع الى العلامة بيكون الفيلسوف الانجليزى ، الذى دعــا الى المنهج الحديث الذى يقوم على المشاهدة والتفكير المنظم •

ولكن الأستاذ الامام بين فى أكثر من موضــع أن هذا المنهج قديم جاء به القرآن الكريم • فالقرآن حافل بآيات تدعو الانســان الى النظر فى الكون وتدبر آياته وعجائبــه • واعتبار الكون كتابا مفتوحا يقرؤه كل انســان ويتأمل فى خلق الله ليعرف أن لهذه الصنعة البديعة المحكمة وهذا النظام المنسق والخلق الكامل السليم، خالقا مبدع السموات والأرض وممسكا بنظامهما ، ومدبرا لشــئون الكون العظيم •

قال تعالى : ((**افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج**))(١) ٠

وقال تعالى : ((**فلينظر الانسان مم خلق ٠ خلق من ماء دافق٠ يخرج من بين الصلب والترائب ٠ انه على رجعه لقادر**))(٢) ٠

وقال عز شأنه : ((**فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ان ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير**))(٣) ٠

ويقول الأستاذ الامام عند الكلام على تفسير قوله تعالى : ((**هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم**))(٤) ٠

« يصور لنا قوله تعالى : (**خلق لكم**) قدرته الكاملة ونعمه الشاملة أى قدرة أكبر من قدرة الخالق : وأى نعمة أكمل من جعل كل ما فى الأرض مهيأ لنا ومعدا لمنافعنا ؟ وللانتفاع بالأرض طريقان : (**أحدهما**) الانتفاع بأعيانها فى الحياة الجسدية (**وثانيهما**) النظر والاعتبار بها فى الحياة العقلية ، والأرض هى ما فى الجهة السفلى أى ما تحت أرجلنا ، كما أن المراد بالسماء كل ما فى الجهة العليا أى فوق رؤوسنا وأننا ننتفع بكل ما فى الأرض ، برها وبحرها من حيوان ونبات وجماد ، وما لا تصل اليه أيدينا ننتفع به بعقولنا بالاستدلال به على قدرة مبدعه وحكمته ٠ والتعبير يتناول ما فى الأرض من المعادن بالنص الصريح »(٥) ٠

---

(١) سورة ق ، آية ٦ ٠

(٢) سورة الطارق آيات ٥ و ٦ و ٧ و ٨ ٠

(٣) سورة الروم ٥٠

(٤) سورة البقرة ٢٩ ٠

(٥) تفسير المنار جـ١ ص ٢٤٧ ٠

٢ — وحسب القرآن الكريم ، وهو كتاب دين أن يوجه الانسان الى هذا الكون واستكناه سره وفهم نظامه ، بل يرشده الى أن الكون قد خلق له وكل شيء مباح فى أصله « والأصل فى الأشياء الاباحة » .

« بذلك خرج القرآن على تزمت أهل الأديان السابقين ، وضغطهم على حرية الفكر والبحث . وأمرهم بالتسليم والاذعان من غير نقاش أو فهم .

ان القرآن جدير بان يسمى كتاب حرية الفكر واحترام العقل وتكوين شخصية الفرد عن طريق بحثه وعلمه واستخدام عقله وفكره »(١) . وهذه الاباحة للنظر والبحث فى الكون ، بل هذا الارشاد اليها بالصيغ التى تبعث الهمم وتشوق النفوس ككون كل ما فى الأرض مخلوقا لنا محبوسا على منافعنا هو مما امتاز به الاسلام فى ترقية الانسان . فقد خاطبنا القرآن بهذا على حين ان أهل الكتاب كانوا متفقين فى تقاليدهم وسيرتهم العملية على أن العقل والدين ضدان لا يجتمعان . والعلم والدين خصمان لا يتفقان ، وأن جميع ما يستنتجه العقل خارجا عن نص الكتاب فهو باطل .

ولذلك جاء القرآن يلح أشد الالحاح بالنظر العقلى ، والتفكر والتقدير والتدبر والذكر ، فلا تقرأ منه قليلا الا وتراه يعرض عليك الأكوان ويأمرك بالنظر فيها واستخراج أسرارها واستجلاء حكم اتفاقها واختلافها .

« ١٠ : ١٠١ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » .

« ٢٩ — ١٩ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » .

---

(١) تفسير المنار جـ١ ص ٢٤٩ .

« ٢٢ : ٤٦ افلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بهـا » ٠

« ٨٨ : ١٧ افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت » ٠

الى غير ذلك من الآيات الكثيرة جدا ، واكثار القرآن من شيء دليل على تعظيم شأنه ووجوب الاهتمام به ٠ ومن فوائد الحث على النظر فى الخليقة للوقوف على أسرارها بقدر الطاقة ، واستخراج علومها لترقية النوع الانسانى الذى خلقت هى لأجله ــ مقاومة تلك التقاليد الفاســدة التى كان عليها أهل الكتاب فأودت بهم وحرمتهم من الانتفاع بما أمر الله الناس أن ينتفعوا به ٠

« كانت أوربا المسيحية فى غمرة من الجهل ، وظلمـات من الفتن تسيل الدماء فيها انهارا لأجل الدين ، وباسم الدين وللاكراه على الدين ، ثم فاض طوفـان تعصبهـا على المشرق ورجعت بعد الحروب الصليبية تحمل قبسـا من دين الاسـلام وعلوم أهله ، فظهر فيهم بعد ذلك قوم قالوا لنا الحق فى أن نتفكر ، وأن نعلم ان تستدل فحـاربهم الدين ورجاله حربا عوانا انتهت بظفر العلم ورجاله بالدين ورجاله ، وبعد غسـل الدماء المسفوكة ، قام منذ مائتى سنة الى اليوم رجال منهم يسمون هـذه المدنية القائمة على دعائم العلم ، المدنية المسيحية ٠ ويقولون بوجوب محق سائر الأديان ومحوها بعد انهزامها من أمام الدين المسيحى لأنها لا تتفق مع العلم وفى مقدمتها الدين الاسـلامى ، وحجتهم على ذلك حال المسلمين ، نعم ان المسلمين أمسوا وراء الأمم كلها فى العلم حتى سقطوا فى جاهلية أشد جهلا من الجاهلية الأولى ، فجهلوا الأرض التى هم عليهـا ، وضعفوا عن استخراج منافعها فجـاء الأجنبى يتخطفها من بين أيديهم وهم ينظرون ، وكتابهم قائم على صراطه يصيح بهم **« هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعـا » « وسخر لكم ما فى السـموات وما فى**

الأرض جميعا منه » « **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا »** الآية • وأمثال ذلك ، ولكنهم « **صم بكم عمى فهم لا يعقلون »** الا من رحم الله ، ولو عقلوا لعادوا ، ولو عادوا لاستفادوا وبلغوا ما أرادوا ، وها نحن أولاء نذكرهم بكلام الله لعلهم يرجعون • ولا نيئس من روح الله « **انه لا ييئس من روح الله الا القوم الكافرون »**(١) •

٣ — والاسلام فى مبدئه قائم على الاقتناع والتأمل • فالله تعالى يقول : « **لا اكراه فى الدين »** • وطالما لفت نظر الانسان الى الأدلة على وحدانيته « **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا »** • « **لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا »** •

بل ان القرآن يرفض الاسلام اذا كان قولا باللسان ولم يقتنع به القلب والوجدان • قال تعالى :

« **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم »** •

والمقلد — فى نظر بعض الأئمة — لا يصح أن يدفن فى مقابر المسلمين •

والأستاذ الامام يهاجم لذلك مذاهب المتكلمين وأدلتهم على توحيد الله ، ويبين أن علم الكلام على نحو ما كان متداولا فى الأزهر اذ ذاك — لا يصلح أن يكون وسيلة لتنشئة العقيدة الصحيحة أو تدعيم الايمان بها •

« بل أصلح الوسائل لذلك منهج القرآن نفسه فى عرض الدعوة الاسلامية والاستدلال عليها وهو منهج الاقناع القائم على

---

(١) تفسير المنار جـ١ ص ٢٥١ •

رعاية المظهر العام للطبيعة الانسانية من جانب ، وعلى خصيصة الدين نفسه من جانب آخر ، والطبيعــة الانسانية فى مظهرها العام تتبع أسلوب الاقناع أكثر من أن تتبع قياس المنطق الأرسطى المستخدم فى البرهنة الكلاميــة والذى هو وقف على الخاصــة دون العامــة والدين فى طبيعته يجب أن يكون للكافة وللكثرة من الناس • فأسلوب دعوته يجب أن يبقى فى حدود أفهــام هذه الكثرة ويجب ألا يبعد به عن هذه الحدود حتى يكون فهمــه وقفا على الخاصة التى تدربت على منطق عقلى خاص ولون معين من الثقافة(١) •

وقد أتبع الامام هــذا المنهج فى رســالة التوحيد فكتبهــا فى أسلوب سهل ونظمهــا وبوبها وبين فيهــا فوائد الدين ، وتاريخ التوحيد وضرر خلطه بالفلسفة وضرر البحوث التى لا تنشىء عقيدة اسلامية ، ولا يفقهها الا الذى درب على المنطق الأرسطى ، فمــاذا يضير المسلم اذا لقى ربه ولم يعرف هل الصفات هى عين الذات أو غير عين الذات •

وتحدث فيها عن مزايا الدين الاســلامى حديثا طيبا فياضا وبين فيها ميزة الاسلام فى محاربة التقليد • وحث الانســان على اعمال النظر والفكر ، وأن تكون عقيدته عن اقتناع وأن الاسلام أهاب بالمسلم أن يستغل الأرض ويسيطر على الكون ويحسن الخلافــة فيه • ولا يكون ذلك الا بالعلم بجميع أنواعه •

« أمر الاسلام بالتوحيد فأصبح الانسان عبدا لله خاصة حرا من العبودية لكل ما ســواه • أنحى الاسلام على التقليد ، وصــاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته • وهبت به من نومه •

---

(١) دكتور محمد البهى : الفكر الاسلامى المعاصر ص ١٣١ (بتصرف) •

« علا صوت الاسلام على وساوس الطغاة ، وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام — أعلام الكون ودلائل الحوادث — وانما المعلمون منبهون ومرشدون والى طريق البحث هادون · صرف القلوب من التعلق بما كان عليه الآباء · وما توارثه عنهم الأبناء ،وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ، ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من العرفان ، ولا مسميا لعقول على عقول ولا لأذهان على أذهان ، وانما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان ، بل للاحق من علم الأحوال الماضية ، واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها فى الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه · وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم ، وطغيان الشر الذى وصل اليهم بما اقترفه سلفهم · « ٦ : ١١ **قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين** » ·

« وان أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ، ورحمته التى وسعت كل شىء لن تضيق عن دائب · عاب أرباب الأديان فى اقتفائهم أثر آبائهم · ووقوفهم عندما اختطه لهم سير أسلافهم وقولهم « ٣١ : ٢١ » **بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا** ، ٢٣ : ٢٢ **انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون** » ·

فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده · وخلصه من كل تقليد استعبده ، ورده الى مملكته ، يقضى فيها بحكمه وحكمته مع الخضوع فى ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته ولا حد للعمل فى منطقة حدودها ، ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها ·

بهذا وما سبقه تم للانسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما ، وهما استقلال الارادة · واستقلال الرأى والفكر ·

وبهذا كملت له انسانيته واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها »(١) ٠

٤ ـ وقد تأثر الأستاذ الامام فى حرية الفكر وابداء الرأى مدرسة من طليعة العلماء حملوا راية النهضة ، وظلوا يحققون قول النبى صلى الله عليه وسلم : ((**لن تزال طائفة من أمتى قائمة على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله**)) ٠

ومن أفاضل من تأثروا بالأستاذ الامام ، فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر ، وسأنقل هنا فصلا من كتابه « منهج القرآن فى بناء المجتمع » ليتضح لنا أثر الامام فيمن جاء بعده من المفسرين ٠

قال الشيخ شلتوت :

« الاسلام(٢) وضع للتهذيب الروحى جملة من الوسائل تعمل كلها على تنقية الفطرة من ألوان الشرك وصوره المختلفة التى تطمس فى القلب صورة التوحيد الخالص ، الذى فطر عليه الانسان وربطت به سعادته فى الدنيا والآخرة ٠

وان من أول ما عنى به الاسلام وأرشد اليه التفكير فى ملكوت السموات والأرض اذ به تعرف الآثار الدالة على جلال مصدرها وكماله فى العلوم والقدرة والسلطان والرحمة ٠ ومن هنا تخضع النفوس عن طريق برهانى عقلى ووجدانى ، لارادة مصدرها رب

---

(١) رسالة التوحيد : تأليف الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ص ١٨١ ، ١٨٤ ٠

(٢) منهج القرآن فى بناء المجتمع لفضيلة الاستاذ محمود شلتوت ص ٥٣ ٠

العالمين الرحمن الرحيم ، ويعظم لديها الوعى الدينى الذى يخلق فيها النشاط لطاعتــه ، وتحرى ما يرضــيه فى معاملة النفوس ومعاملة الناس . هذا التفكير الذى دعــا اليه الاسلام للحصول على تلك الغاية لم يكن هو ذلك التفكير الجاف الذى يسخره الانسان فى سبيل المــادة فقط ، ويستخدم آثاره التى يحصــل عليهــا فى العــدوان وتخريب المدائن والعمائر وترويع الآمنين والقضــاء على نعم الله فى خلقه . كما يدرك ذلك الآن المتحسس لنفسيات العــالم فى شرقــه وغربه ، وانما هو تفكير يطمئن القلب ويخدمه قبل أن يخدم العقل ودون أن يروع الآمن . تفكير ينزع بالانسان الى جانب الروحية المهذبة التى تدعوه الى استخدام ما يصل اليه عن طريق التفكير فى المحافظة على الانسانية والأخذ بها الى الكمال الذى قدر لها وخلقت لأجــله .

وقد كان للقرآن الكريم فى الدعوة الى هذا التفكير اســاليب مختلفة من شأنها مضاعفة الرغبة التى تدفع الانسان اليه . فمن أسلوب يعلن أن الله ما خلق السموات والأرض باطلا لا خير فيه ، وانما خلقهما لغاية قضت بها الحكمــة الالهية فى خلقهمــا وخلق الانسان ((**ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك**))(١) . ((**وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق**))(٢) ولا باطل ولا لعب أكثر ولا أشــد من الاعراض عن النظر فيما خلق الله . هــذا الاعراض الذى تظل به أسرار الرحمة

(١) آل عمران ١٩١ .
(٢) الانبياء ١٦ ــ ١٨ .

كامنة فى جوف المخلوقات دون أن تعرف ، ودون أن تظهر بها الرحمة فى خلقه ، وكذلك لا باطل ولا لعب بل لا طغيان ولا عدوان أكثر ولا أشد من معترفها والوصول اليها ، ثم استخدامها فى التخريب والتدمير والقضاء بها على أخضر العالم ويابسه • انقيادا لشهوة زائفة ، أو جبروت كاذب •

ومن أسلوب يعلن أن الله ما خلق العالم على هذا النحو المملوء بالأسرار والسنن التى هيأ الانسان للوصول اليها الا لينتفع الانسان ((**هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا**))(١) •

وليس من شك فى أن الانتفاع بها ينتظم الانتفاع بأعيانها فى الحياة المادية وبادراكها فى الحياة العقلية ، وبدلالتها فى الحياة الروحية • والآية ترشد بعد هذا الى أن مواطن هذا النفع ليست خاصة بظواهر هذا الكون ، وانما هى مبثوثة فى ظاهره الذى نحصل عليه بمجرد النظر ، وفى باطنه الذى نحتاج الى قوة فى اقتحامه وخوض غماره ، وفى هذا ايحاء بالبحث عما استقر فى باطن الأرض وطبقات الجبال ، وقاع البحار ، وما يحمل الماء والهواء من قوى الانتاج ومواد الصناعة والتعمير ، ومن أسلوب يؤكد للانسان أن الله سخر له هذا الكون وأقدره على استخراج أسراره وجعله فى قبضة يده ومتناول عقله ((**ألم تر أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة**))(٢) ((**الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون**))(٣) ((**فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث**

---

(١) البقرة ٢٩ •
(٢) لقمان ٢٠ •
(٣) الجاثية ١٢ •

أصاب »(١) « **والنا له الحديد »**(٢) « **واصلنا له عين القطر »**(٣)
« **وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس »**(٤) .

ومن أسـلوب ينبه احساس النـاس الى التطلع نحو بعض المخلوقات ، ذات الشأن فى الحيـاة ، فيندفع الى تلمس ما اشتملت عليه آيات وأسرار ومنافع وآثار وقد استخدم فى هذا الأسـلوب قسم الله ــ الغنى عن القسم ــ بهذه المخلوقات « **والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها والنهـار اذا جلاها والليل اذا يغشاها والسـماء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سواها فألهمها فجورهـا وتقواهـا »**(٥) .

« **والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا »**(٦) .

ومن أسـلوب يوجه الأنظـار الى أصـول جملة من الثروات التى تتكون منها الاقتصاديات الضرورية فى حياة الأمم ونهضتها ففى الثروة الحيوانية : « **والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنهـا تأكـلون »**(٧) .

وفى الثروات النباتية : « **وهو الذى أنشأ جنات معروشـات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفـا أكله والزيتون والرمـان متشابها وغير متشابه »**(٨) وفى الثروات المـائية « **وهو الذى سخر**

---

(١) ص ٣٦ .
(٢) سـبأ ١٠
(٣) سـبأ ١٢ .
(٤) الحـديد ٢٥ .
(٥) الشمس ١ ــ ٨ .
(٦) العاديات ١ ــ ٥ .
(٧) النحـل ٥ .
(٨) الأنعـام ١٤١ .

البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها »(١)
وفى الثروات الجبلية « ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها
وغرابيب سود »(٢) . ومن هذه الآيات وغيرها وهو كثير واضح
فى القرآن الكريم ، يتجلى أن الاسلام قد وجه الانسان الى البحث،
وتعرف خواص الكائنات وأسرارها ، والانتفاع بها فى بناء الحياة
على أساس أنها نعمة من نعم الله ، وآثار رحمته بالشكر والحمد
والثناء ، وشكرها الايمان بمصدرها ، واستعمالها فيما ينفع
الخلق وعمارة الكون .

وبينما نرى القرآن يدعو الى التفكير على هذا الأساس
نراه ينعى خطة الذين فكروا وعرفوا دون أن يتخذوا من تفكيرهم غذاء
للقلوب ، مددا للأرواح « وبنعمة الله يكفرون »(٣) . « يعرفون
نعمة الله ثم ينكرونها »(٤) . « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين
لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم
أضل أولئك هم الغافلون »(٥) واذا كان هؤلاء مع بحثهم ، وتعرف
أسرار الكون ، فى منزلة الأنعام ، الذين ليس لأرواحهم حظ فيما
يحصلون عليه من المنافع المادية . فما بال قوم ألغوا عقولهم
وسلبوها الاستعداد الفطرى للنظر والبحث ، واكتفوا من النظر
بتقليب الوجوه فى بناء السماء وزرقتها . والكواكب وكثرتها والجبال
وضخامتها والبحار وأمواجها ، وحرموا أنفسهم من التمتع بالمادة
التى تبنى الحياة وبالعلم الذى يغذى العقل . وبالدلالة التى تغذى

---

(١) النحل ١٤ .
(٢) فاطر ٢٧ .
(٣) النحل ٧٢ .
(٤) النحل ٨٣ .
(٥) الاعراف ١٧٩ .

الروح ؟ وكم يضيق الانسان ذرعا حين يرى المسلمين ـ وتلك تعاليم كتابهم وارشاداته ـ فى حرمان من اللذات التى ربط الله بها سعادة الناس وحثهم على تحصيلها والانتفاع بها ، وكم يشتد ضيقه حين يراهم فيها عالة على غيرهم ، يأخذونها عنهم على أنها علومهم ونتائج بحوثهم ، ويأخذونها بمنهجهم فى قطعها عن مصدرها المنعم بها ، المسخر لها ٠

وقد كان هذا الموقف من المسلمين ، مما هيأ لغيرهم أن يتهموا الاسلام بالجمود ٠ وأنه دين يعترض التقدم ، ولا يسمح بلذة العلم ولا بعزة الحياة ، وبذلك اندفعوا الى بلاد الاسلام باسم العمل على تقدمهم ، يختبرون فيها الجبال والوديان ، ويحصلون على الخير من بواطنها ويتخذون لذلك فيها المراكز الشرعية التى بها يستعمرون ٠ الا ان واجب المسلمين اليوم وقد تكشفت نوايا القوم وذاقوا منهم ومن جهلهم بأسرار الكون ما ذاقوا ، ان يستأنفوا لهم حياة جادة عاملة ، عمادها البحث والنظر والانتفاع بما سخر لهم فى مواد الحياة وبذلك يستجيبون لله فى دعوته ويحفظون لأنفسهم سلطان الدنيا ومكانة الآخرة ٠

وانت واجد ان كلا من الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده وفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت ، يلتقيان على بيان عظمة الاسلام وبيان خصائصه وفضائله والاهابة بالمسلمين للتمسك به وتنفيذ أوامره فى البحث والنظر ، والانتفاع بممكناتهم فى الحياة لتكون لهم العزة والمنعة وليستغنوا عن الدخيل المتلصص عليهم ويتمكنوا بأنفسهم من استغلال خيرات بلادهم ٠

حقق الله هذه الأماني والجهود ، اللهم آمين ٠

الأســـاس الســـادس

تحـــكيم العقـــل

والاعتمـــاد عليـــه فى فهم القرآن الكريم

ان القرآن قد احترم العقل وناجاه واستثاره ونبهه فى كثير من آياته مثل قوله تعالى : ((**أفلا تعقلون**)) . ((**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**)) .

بل انه جعل العقـــل مصـــدرا من مصـــادر التشريع وبين أن اعماله والاهتداء بهديه مما يحقق للانسان الفوز بالجنان والبعد عن النيران ، قال تعالى : ((**وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنـــا فى أصحاب الســـعير**)) .

فالوحى والعقل كلاهما أثر من آثار الله فى الوجود ، وآثار الله تهدى اليه وتدل عليه ، ولذلك يجب أن ينسجم بعضها مع بعض لمـــا يأتى :

أولا ـــ لأنها آثار الكامل كمالا مطلقـــا ، وهو الله سبحانـــه وتعالى ، والعقل البشرى يجعل من المحـــال ان يكون هناك شائبة نقص فى آثار الكامل المطلق . وتناقض الآثار أو تعارضها الصـــادرة من مصدر واحد يدل على عدم الكمال المطلق لهذا المصدر . . . .

ثانيا ـ أن الوحى مصـــدر هداية · والعقل الانسانى مصدر هداية وكلاهما يهدف الى تحديد الطريق المستقيم فى الحياة للانسان والى تحديد غايته الأخيرة فى هــذا الوجود · وأمران شأنهما ذلك لابد أن يتوافقا فى التحديد الاجمالى على الأقل بطريق الانســان فى حياته فى وجوده · فان بدا أن هنــاك اختلافا بين تطبيق رسالة الوحى واستخدام العقــل كان منشأ هــذا الاختــلاف اما تحريف رسالة الوحى واما سوء استخدام العقل ، والمحرف للرسالة السماوية هو الانسان هنا وهناك وليس الملك الذى نزل بالوحى ولا الرسول المصطفى لتبليغ الرسالة ·

طبيعة الوحى يجب أن توافق طبيعة العقل الانسانى اذن ، لأنهما مصــدرا هداية لغاية واحدة من كامل واحد كمالا مطلقا ، وهو الله سبحانه وتعالى ·

وقد تأثر الأستاذ الامام بالمعتزلة فى استخدام العقل بحرية فى التأويل والتمثيل · وقد ســمى المعتزلة فى تاريخ الاســلام بأهل النظر والفــكر واستخدموا التمثيل والتأويل والتخييل فى آيــات القرآن ليقربوا فهمها أو لتوافق مذهبهم ·

أما الأستاذ الامام فانه وان وافق المعتزلة فى استخدام العقل · الا أن ذلك لم يكن لتأييد مذهب · أو لتأويل الآيات بما يوافق معتقده السابق · فانه حارب ذلك وحذر من الدخول فى فهم القرآن بعد اعتناق عقيدة سابقة ·

ولكنه استخدم العقل ليقرب الاســلام وأفكاره من العلمــاء المحدثين الذين لا يؤمنون الا بما تقبله عقولهم وما تسلم به مناهجهم العلميــة ·

١ ـ مفهوم الملائـكة :

فمن ذلك حديثه عن الملائكة ، وتوضيح مفهومهم ، فعرض فى بيان ذلك رأيين سابقين :

الأول ـ أنهم خلق غيبى لا تعرف حقيقته ٠ وانما نؤمن بأخبار الله تعـالى التى تقف عنده ولا نزيد عليـه ٠ والقرآن ناطـق بأن الملائكة أصناف وأنواع ولكل صنف وظيفة وعمل ٠ وأن من عمـل الملائكة الأمر بالخير والهداية اليه والاعانة عليه(١) ٠

والثـانى ـ يرويه ناقلا أول الأمر ٠ ولكنـه يؤيده ويحبذه لأن فيه تقريبـا الايمـان بالملائـكة من عقول المـاديين فيقـول : « وذهب بعض المفسرين مذهبا آخر فى فهم الملائكة وهو أن مجموع ما ورد فى الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال من انماء نبات وخلقة حيوان وحفظ انسان فهذا ايماء الى الخاصـة بما هو ادق من ظاهر العبارة ، وهو أن هـذا النمو فى النبات لم يكن الا بروح خاص نفخه الله فى البذرة فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصـة ، وكذلك يقال فى الحيوان والانسان ، فكل أمر كلى قائم بنظـام مخصوص تمت به الحكمة الالهية فى ايجـاده ، فانما قوامه بروح الهى ٠ سمى فى لسـان الشرع ملكا ، ومن لم يبال فى التسميـة بالتوقيف يسمى هذه المعانى القوى الطبيعية اذا كان لا يعرف من عالم الامكان الا ما هو طبيعة ، أو قوة يظهر أثرها فى الطبيعة ٠

والأمر الثابت الذى لا نزاع فيه هو ان فى باطن الخلقـة أمرا هو مناطها ، وبه قوامها ونظامها ، لا يمكن لعاقل أن ينكره وان أنكر غير المؤمن بالوحى تسميته ملكا وزعم أنه لا دليل على وجود

---

(١) المنار جا ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ ٠

الملائكة . أو أنكر بعض المؤمنين بالوحى تسميته قوة طبيعية أو ناموسا طبيعيا ، لأن هذه الأسماء لم ترد فى الشرع ـ فالحقيقة واحدة والعاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات . فكل يقر بوجود شيء غير ما يرى ويحس ويعترف بأنه لا يفهمه حق الفهم ، ولا يصل بعقله الى ادراك كنهه . وماذا على الذى يزعم أنه لا يؤمن بالغيب وقد اعترف بما غيب عنه لو قال : أصدق بغيب أعرف أثره وان كنت لا أقدره قدره فيتفق مع المؤمنين بالغيب ويفهم بذلك ما ورد على لسان صاحب الوحى ، ويحظى بما يحظى به المؤمنون ؟

يشعر كل من فكر فى نفسه ووازن بين خواطره عندما يهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير ، ووجه للباطل أو للشر ، بأن هناك تنازعا فى نفسه وأن هاتفا يهتف به الخير ، وآخر يدفع به عنه . وهذا الهاتف الداعى الى الخير لا يبعد أن يسميه الله ملكا ، والهاتف بالشر يسمى شيطانا .

والسيد رشيد رضا يبين أن لهذا الرأى أصوله عند الأئمة السابقين فيقول :

« فالامام الغزالى قد سبق الى بيان هذا المعنى وعبر عنه بالسبب وقال انه سمى ملكا ، فانه بعد ما قسم الخواطر الى محمود ومذموم قال :

« ثم انك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ، ثم ان كل حادث لابد له من محدث ، ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان ، فسبب الخاطر الداعى الى الخير يسمى ملكا . وسبب الخاطر الداعى الى الشر يسمى شيطانا ، واللطف الذى يتهيأ به القلب لقبول الهام الخير يسمى توفيقا ، والذى يتهيأ به لقبول الشر يسمى اغواء وخذلانا ، فان المعانى المختلفة تحتاج الى أسماء مختلفة » .

قال الأستاذ الامام : فاذا صح الجرى على هذا التفسير فلا يستبعد أن تكون الاشارة فى الآية الى أن الله لما خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التى بها قوامها ونظامها • وجعل كل صنف من القوى مخصوصا بنوع من أنواع المخلوقات لا يتعداه ولا يتعدى ما حدد له من الأثر الذى خص به ، خلق بعد ذلك الانسان وأعطاه قوة يكون بها مستعدا للتصرف بجمع هذه القوى وتسخيرها فى عمارة الأرض • وعبر عن تسخير هذه القوى له بالسجود الذى يفيد معنى الخضوع والتسخير ، وجعله بهذا الاستعداد الذى لا حد له ، والتصرف الذى لم يعط لغيره خليفة الله فى أرضه ، لأنه أكمل الموجودات فى هذه الأرض • واستثنى من هذه القوى قوة واحدة عبر عنها بابليس وهى القوة التى لزها الله بهذا العالم لزا وهى التى تميل بالمستعد للكمال أو بالكامل الى النقص وتعارض فى اتباع الحق وتصد عن عمل الخير وتتنازع الانسان فى صرف قواه الى المنافع والمصالح التى تتم بها خلافته فيصل الى مراتب الكمال الوجودى الذى خلق مستعدا للوصول اليها •

تلك القوة التى ضلت آثارها قوما فزعموا أن فى العالم الها يسمى اله الشر • وما هى باله ولكنها محنة الاله لا يعلم أسرار حكمته الا هو •

قال الأستاذ الامام معلقا : ولو أن نفسا مالت الى قبول هذا التأويل لم تجد فى الدين ما يمنعها من ذلك ، والعمدة على اطمئنان القلب وركون النفس الى ما أبصرت من الحق •

وقال تلميذه السيد رشيد رضا : « ان غرض الأستاذ الامام من هذا التأويل الذى عبر عنه بالايماء وبالاشارة اقناع منكر الملائكة بوجودهم ، بتعبير مألوف عندهم تقبله عقولهم ، وقد اهتدى

به كثيرون ، وضـل به آخرون فأنكروه عليـه وزعموا أنه جهل الملائكة قوى لا تعقل فرد عليهم بأنهم عبيد العادة وأسرى التقليد ، والا فماذا يفهم أحدهم مما يقال لهم « ان الملائكة أجسام نورانيـة قابلة للتشكل »(١) • كيف تكون جسما ، وما معنى نورانيتها ؟ وهل للنور وحده قوام يكون به شخصا ممتازا بدون أن يقوم بجرم آخر كثيف ثم ينعكس عليه كذبالة المصباح أو سلك الكهرباء !

وما معنى قابليته للتشكل ؟ وهل يمكن للشيء الواحد ان ينقلب فى اشكال من الصـور مختلفة حسبما يريد ؟ • وكيف يكون ذلك ؟ ألا يقع فى حيرة ؟ ولو سـئل عما يعتقده من ذلك ألا يحدث فى لسانه من العقد ما لا يستطيع حله ؟ أليس مثل هذه الحيرة يعد شكا ؟ فلا يعد صاحبها ممن آمن بالملائكة ايمانا صحيحا ؟ •

أليس الوجود الالهى الأعلى من عالم الغيب ، وآثاره فى خلقه من عالم الشهادة ؟ أليس هو الذى وهب تلك القوى خواصها وقدر لها آثارها ؟ •

لم لا تقول أيها الغافل : انه بذلك وهبها حياتها الخاصـة بها ، ولم قصرت معنى الحياة على ما تراه فيك وفى حيوان مثلك ؟ مع أنك لو سئلت عن هذا الذى تزعم أنك فهمته وسميته حيـاة لم تستطع له تعريفا ، ولا لفعله تصريفـا ؟ لم لا تقول كما قـال وبه نقول « **تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** » ؟ •

---

(١) هذا هو التعريف المشهور فى كتب الكلام وغيرها واول ما يعترض عليه انه لا يصح فيه معنى الجسم فى اللغة ولكنه صار مألوفا وان لم يكن مفهوما • أ هـ • نقلا من حاشية المنار ص ٢٧ ، جـ١ •

أفلا تزعم أن لله ملائكة فى الأرض ، وملائكة فى السماء ؟ هــل عرفت أين تسكن ملائكة الأرض ؟ وهل حددت امكنتها ، ورســمت مساكنها ؟ وهل عرفت أين يجلس من يكون منهم عن يمينك ؟ ومن يكون عن يسارك ؟ هل ترى أجسامهم النورانيــة تضىء لك الظلام أو تؤنسك اذا هجمت عليك الأوهام ؟ فلو ركنت الى أنها قوى أو أرواح منبثة فيما حولك وما بين يديك وما خلفك ، وان الله ذكرها لك بما كان يعرفهــا سلفك • وبالعبــارة التى تلقفتها عنهم كيلا يوحشك بما يدهشــك ، وترك لك النظر فيما تطمئن اليه نفسك من وجوه تعرفهــا • أفلا يكون ذلك أروح لنفســك ، وأدعى الى طمأنينة عقلك ؟ • أفلا تكون قد أبصرت شيئا من وراء حجاب ، ووقفت على سر من أسرار الكتاب ؟ فان لم تجد فى نفسك استعدادا لقبول أشــعة هذه الحقائق وكنت ممن تؤمن بالغيب ويفوض فى ادراك الحقيقة ويقول (آمنا به كل من عند ربنا) فلا ترم طلاب العرفان بالريب ما داموا يصــدقون بالكتــاب الذى آمنت به ، ويؤمنون بالرســول الذى صدقت برسالته ، وهم فى ايمانهم أعلى منك كعبا ، وأرضى منك بربهم نفسا ، الا ان مؤمنا لو مالت نفسه الى فهم ما أنزل اليه من ربه على النحو الذى يطمئن اليه قلبــه كما قلنا كان من دينه فى ثقة ومن فضل ربه فى سعة •

قال السيد رشيد رضــا : الأستاذ الامام بهذا أراد أن يحتج على المــاديين ويقنعهم بصحة ما جــاء به الوحى من طريق علمهم المسلم عندهم • وهو بمثل هذه الأساليب فى الاقناع بحقيقة الدين كان حجــة الله فى العصر حتى قــال له احد نوابغ رجال القضــاء الأذكياء : انك بتفسيرك القرآن بالبيان الذى يقبله العقل ، ولا يأباه العلم قد قطعت الطريق على الذين يظنون أنه قد اقترب الوقت الذى يهدمون فيه الدين ويستريحون من قيوده وجهل رجاله وجمودهم•

ذلك وان ترتيب النظم يلتئم مع التأويل الذى أورده الأستاذ الامام فى السياق فان هذه المعانى التى وردت بصيغة الحكاية وبرزت فى صورة التمثيل جاءت عقب قوله تعـالى : ((**هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا**))(١) ٠

٢ ـ وأفضل انتفاع يستفيده الأستاذ الامام من تحكيم العقل واللجوء اليه فى فهم آيات القرآن فهما متسقا مع المنطق الفكرى المنظم هو استغلاله طريقة التمثيل والتخييل فى فهم ما أشكل من آيات القرآن الكريم :

(أ) تأويل سجود الملائكة :

فمن ذلك تأويل سجود الملائـكة واباء ابليس بتسخـير قوى الأرض للانسان الا قوة الاغراء بالشر عند تفسير الآيات التى تناولت قصة آدم عليه السلام وهى :

((**واذ قال ربك للملائكة انى جـاعل فى الأرض خليفـة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدمـاء ونحن نسبح بحمـدك ونقدس لك ، قال انى أعلم ما لا تعلمون※ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقـال أنبئونى بأسـماء هـؤلاء ان كنتم صادقين ※ قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنـا انك أنت العليم الحكيم ※ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قـال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ※ واذ قلنـا للملائـكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ※ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ※ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنـا**

---

(١) المنار جـ١ ص ٢٧٤ وما قبلها ٠

اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين*
فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم »(١) .

قال الأستاذ الامام :

« مجمل هذه الآيات أن هذا العالم لما استعد لوجود هذا النوع الانسانى واقتضت الحكمة الالهية ايجاده واستخلافه فى الأرض آذن الله تلك الأرواح المنبثة فى الأشياء لتدبيرها ونظامها بذلك . وأن تلك الأرواح فهمت من معنى كون الانسان خليفة أنه يفسد النظام ويسفك الدماء حتى أعلمها الله تعالى . ثم أوجد آدم وفضله بتعليمه الأسماء كلها على أن كل صنف من تلك الأرواح الا روحا واحدا هو مبعث الشر ومصدر الاغواء فقد أبى الخضوع ، واستكبر عن السجود لما كان فى طبيعته من الاستعداد لذلك ، والاستعداد فى الشىء انما يظهر بظهور متعلقة .

ثم أمر الله آدم وزوجته بسكنى الجنة والتمتع بها ونهاهما عن الأكل من شجرة مخصوصة وأخبرهما أن قربها ظلم . وأن الشيطان أزلهما عنها فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم الى ضده ثم ان آدم تاب الى الله من معصيته فقبله . ثم جعل سعادة هذا النوع باتباع . هدى الله ، وشقاءه بتركه .

وقد سيقت هذه الآيات كلها للاعتبار ببيان الفطرة الالهية التى فطر عليها الملائكة والبشر وتسلية النبى صلى الله عليه وسلم عما يلاقى من الانكار والكفار ، كأنه يقول لا تأس يا محمد على القوم الكافرين ، ولا تبخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا . فقد كان الضعف فى طباعهم ينتهى اليهم من أول سلف لهم ، تغلب عليهم الوساوس . وتذهب بصبرهم الدسائس،

---

(١) الآيات من ٣٠ الى ٣٧ سورة البقرة .

أنظر ما وقع لآدم ، وما كان منه · وسنة الله مع ذلك لا تتبدل ، فقد عوقب آدم على خطيئته باهباطه مما كان فيه ، وان كان قد قبل توبته ، وغفر هفوته ، فالمعصية دائما مجلبة الشقاء ، وقد استقر أمر البشر على أن سعادتهم فى اتباع الهداية الالهية وشقاءهم فى الانحراف عن سبيلها(١) ·

(ب) تأويل معصية آدم بطريقة التمثيل ، وبيان أنها اشارة الى أطوار البشرية :

قال الأستاذ الامام : وأما مسألة معصية آدم فالجرى على طريقة السلف يذهب بنا الى أن العصيان والتوبة من المتشابه ، كسائر ما ورد فى القصة مما لا يركن العقل الى ظاهره ، ولنا أن نقول : ان تلك المخالفة صدرت منه قبل أن يدركه عزم النبوة كما قال جل شأنه (**فنسى ولم نجد له عزما**) والاتفاق انما هو على العصمة عن مخالفة الأوامر بعد النبوة · وقد يكون الذى وقع من آدم نسيانا فسمي تفخيما لأمره عصيانا · والنسيان والسهو مما لا ينافى العصمة ، فان جعلنا الكلام كله تمثيلا فحديث الاخلال بالعصمة مما لا يمر بذهن العاقل ·

وأما تفسير الآيات على طريقة الخلف فى التمثيل فيقال فيه : ان القرآن كثيرا ما يصور المعانى بالتعبير عنها بصيغة السؤال والجواب ، أو بأسلوب الحكاية لما فى ذلك من البيان والتأثير ، فهو يدعو بها الأذهان الى ما وراءها من المعانى ، كقوله تعالى ٥٠ : ٣٠ :
((يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد))
فليس المراد أن الله تعالى يستفهم منها وهى تجاوبه ، وانما هو تمثيل لسعتها وكونها لا تضيق بالمجرمين مهما كثروا ونحوه قوله عز وجل بعد ذكر الاستواء الى خلق السماء ٤١ : ١١ : **((فقال لها**

---

(١) المنار جـ١ ص ٢٧٦ ·

وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » والمعنى فى التمثيل ظاهر .

قال الأستاذ الامام : وتقرير التمثيل فى القصة على هذا المذهب هكذا : ان اخبار الله الملائكة بجعل الانسان خليفته فى الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه التى بها قوامه ونظامه لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها فيكون به كمال الوجود فى هذه الأرض ــ وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد فى الأرض لأنه يعمل باختياره ويعطى استعدادا فى العلم والعمل لا حد لهما : هو تصوير لما فى استعداد الانسان لذلك وتمهيد لبيان أنه لا ينافى خلافته فى الأرض ، وتعليم آدم الأسماء كلها بيان لاستعداد الانسان لعلم كل شىء فى هذه الأرض وانتفاعه به فى استعمارها وعرض الأسماء على الملائكة وسؤالهم عنها وتنصلهم فى الجواب ، تصوير لكون الشعور الذى يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدودا لا يتعدى وظيفته ، وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى له ينتفع بها فى ترقية الكون بمعرفة سنن الله تعالى فى ذلك ــ واباء ابليس واستكباره عن السجود تمثيل لعجز الانسان عن اخضاع روح الشر وابطال داعية خواطر السوء التى هى مثار التنازع والتخاصم والتعدى والافساد فى الأرض ، ولولا ذلك لجاء على الانسان زمن يكون فيه أفراده كالملائكة بل أعظم ، أو يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشرى .

وأما التمثيل فيما بقى من القصة : فيصح أن يراد بالجنة الراحة والنعيم . ويصح أن يراد بالشجرة معنى الشر والمخالفة .

فسكنى الجنة ، والأكل من الشجرة ثم الندم والتوبة تمثيل للأطوار الفطرية للبشر وهى ثلاثة :

طور الطفولة وهو طور نعيم وراحة ، وطور التمييز الناقص وفيه يكون الانسان عرضة لاتباع الهوى بوسوسة الشيطان ، وطور الرشد والاستواء وهو الذى يعتبر فيه بنتائج الحوادث ويلتجىء فيه عند الشدة الى القوة الغيبية العليا التى منها كل شىء واليها يرجع الأمر كله ، فهكذا كان الانسان فى أفراده مثالا للانسان فى مجموعه .

كأن تدرج الانسان فى حياته الاجتماعية ابتدأ ساذجا سليم الفطرة ، قويم الوجه ، مقتصرا فى طلب حاجاته على القصد والعدل ، متعاونا على دفع ما عساه يعييه من مزعجات الكون ، وهذا هو العصر الذى يذكره جميع طوائف البشر ويسمونه بالذهبى .

ثم لم يكفه هذا النعيم المرفه فمد بعض أفراده أيديهم الى تناول ما ليس لهم ، طاعة للشهوة ، وميلا مع خيال اللذة ، وتنبه من ذلك ما كان نائما فى نفوس سائرهم فثار النزاع وعظم الخلاف، واستنزف الشقاء ، وهذا هو الطور الثانى وهو معروف فى تاريخ الأمم .

ثم جاء الطور الثالث وهو طور العقل والتدبر ، ووزن الخير والشر بميزان النظر وتحديد حدود للأعمال تنتهى اليها نزعات الشهوات ويقف عندها سير الرغبات .. وهو طور التوبة والهداية ان شاء الله(١) .

٣ ـ مفسرون سابقون يستخدمون التمثيل والتخييل :

وقد كان الشيخ محمد عبده مسبوقا فى استغلاله طريقة التمثيل والتخييل فى فهم آيات القرآن بمفسرين سابقين :

---

(١) المنار جـ١ ص ٢٨٤ وما قبلها .

(أ) فمثلا فى تفسير قوله تعـالى ((**انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا**)) .

نرى القرطبى ينقل فى تفسيره عن القفال وغيره : « ان العرض فى هذه الآية ضرب مثل ، أى أن السموات والأرض على كبر أجرامها، لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع » ثم يقول : « وقال قوم ان الآية من المجـاز أى أننا اذا قايسنا ثقل الأمانـة بقوة السموات والأرض والجبـال ، لرأينا انها لا تطيقها وأنهـا لو تكلمت لأبت وأشفقت فعبر عن هـذا المعنى بقوله : (انـا عرضنا الأمانة) الآية ، وهذا كما تقول عرضت الحمل على البعير فأباه ، وانت تريد قايست قوته بثقل الحمل فرأيتها تقصر عنه(١) .

(ب) ويذكر الزمخشرى فى الكشاف عند تفسيره لهذه الآية رأيين :

الأول ـ ملخصه أن الأمانة عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين الا أن يؤدينها وأبى الانسـان الا أن يكون محتمـلا لها لا يؤديهـا ، فحمل الأمانـة بمعنى أنه يحتملهـا فلا يؤديها الى صاحبهـا .

والرأى الثـانى ـ يخرجها على سبيل التأويل والتمثيل « وأن ما كلفه الانسان بلغ من عظمته وثقل محمله أنه عرض على أعظم ما خلق الله من الأجرام وأقواه وأشده أن يتحمله ويستثقل به فأبى حمله والاستقلال به وأشفق منه وحمله الانسـأن على ضعفه ورخاوة قوته ((**انه كان ظلوما جهولا**)) . حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها وضمنها ثم خاس بضمانه فيها . ونحو هـذا الكلام كثير

(١) ص ٢٥٦ جـ١٤ من تفسير القرطبى ـ طبعة دار الكتب المصرية .

فى لسان العرب وما جاء القرآن الا على طرقهم وأساليبهم ، من ذلك قولهم لو قيل للشحم أين تذهب لقال أسوى العوج ، وكم لهم من أمثال على ألسنة البهائم والجمادات • وتصور مقالة الشحم محال ولكن الغرض أن السمن فى الحيوان مما يحسن قبحه كما أن العجف مما يقبح حسنه فصور أثر السمن فيه تصويرا هو أوقع فى نفس السامع وهى به آنس وله أقبل وعلى حقيقته أوقف وكذلك تصوير عظم الأمانة وصعوبة أمرها وثقل محملها والوفاء بها •

(فان قلت) قد علم وجه التمثيل فى قولهم للذى لا يثبت على رأى واحد أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، لأنه مثلت حاله فى تميله وترجحه بين الرأيين وتركه المضى على أحدهما بحال من يتردد فى ذهابه فلا يجمع رجليه للمضى فى وجهته ، وكل واحد من الممثل به والممثل شىء مستقيم داخل تحت الصحة والمعرفة وليس كذلك ما فى هذه الآية فان عرض الأمانة على الجماد وإباءه واشفاقه محال فى نفسه غير مستقيم فكيف صح بناء التمثيل على المحال وما مثال هذا الا أن تشبه شيئا والمشبه به غير معقول (قلت) الممثل به فى الآية وفى قولهم لو قيل للشحم أين تذهب وفى نظائره مفروض ، والمفروضات تتخيل فى الذهن كما المحققات مثلت حال التكليف فى صعوبة وثقل محمله بحاله المفروضة لو عرضت على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنها وأشفقن منها »(١) •

(جـ) وفى قوله تعالى : ((**ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين**)) يقول الزمخشرى فى تأويلها : ((ومعنى أمر السماء والأرض بالاتيان

---

(١) الكشاف جـ٣ ص ٢٩٤ ـ ٢٥٠ •

وامتثالها أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ووجدتا كما أرادهما وكانتا فى ذلك كالمأمور المطيع اذا ورد عليه فعل الأمر المطاع وهو من المجاز الذى يسمى التمثيل ، ويجوز أن يكون تخييلا ويبنى الأمر فيه على ان الله تعالى كلم السماء والأرض وقال لهما ائتيا شئتما ذلك أو أبيتماه فقالتا اتينا على الطوع لا على الكره ، والغرض تصوير أثر قدرته فى المقدورات من غير أن يحقق شىء من الخطاب والجواب ونحوه قول القائل قال الجدار للوتد لم تشقنى قال الوتد أسأل من يدقنى فلم يتركنى ورائى الحجر الذى ورائى »(١) .

(د) وفى قوله تعالى : **« لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله »** .

يقول الزمخشرى : « هذا تمثيل وتخييل كما مر فى قوله تعالى **« انا عرضنا الأمانة »** . وقد دل عليه قوله : **« وتلك الأمثال نضربها للناس »** والغرض توبيخ الانسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجره « وتلك الأمثال » اشارة الى هذا المثل والى أمثاله فى مواضع من التنزيل »(٢) .

(هـ) وفى قوله تعالى : **« واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين »** .

يقول الزمخشرى : « ومعنى أخذ ذرياتهم من ظهورهم اخراجهم من أصلابهم نسلا واشهادهم على أنفسهم وقوله **« ألست بربكم قالوا بلى شهدنا »** من باب التمثيل والتخييل ، ومعنى ذلك أنه

---

(١) الكشاف ص ٣٨٥ جـ٣ مطبعة مصطفى محمد ط ١ سنة ١٣٥٤ هـ .

(٢) الكشاف ص ٨٥ جـ ٤ مطبعة مصطفى محمد ط ١ سنة ١٣٥٤ هـ .

نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التى ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم وقال ألست بربكم وكأنهم قالوا بلى أنت ربنا ، شهدنا على أنفسنا أقررنا بوحدانيتك ، وباب التمثيل واسع فى كلام الله تعالى ورسوله عليه السلام وفى كلام العرب ونظيره قوله تعالى : « **انما قولنا لشيء اذا اردناه أن نقول كن فيكون** » « **فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين** » وقوله : « **اذ قالت الانساع للبطن الحق قالت لها ريح الصبا قرقار** » ومعلوم أنه لا قول ثم وانما هو تمثيل وتصوير للمعنى »(١) .

الفرق بين منهج الامام ومنهج المفسرين

مما نقلناه عن الكشاف يتبين لنا أن الشيخ محمد عبده كان متأثرا بالزمخشرى فى استخدام التمثيل والتأويل فى فهم القرآن ، ولكن هناك فارقا واضحا بينهما .

فالزمخشرى كان يستغل ذلك ليوافق النص العقل من جهة وليؤيد بتأويله مذهب المعتزلة من جهة أخرى .

اما الأستاذ محمد عبده ، فقد كان يخرج الآيات على سبيل التمثيل أو التأويل ليوافق النص العقل . بينما حارب تأويل القرآن واستخدامه لتأييد المذاهب الكلامية ، وحذر كثيرا من الدخول فى بحث القرآن بعد الاعتقاد بعقيدة مذهبية سابقة أو تأويل آياته لتوافق مذهبا معينا « وتحريف الكتاب المنزل بتخريج نصوصه تخريجا يبعدها عن هدفه تحت التأثير بعوامل شخصية أو مذهب

---

(١) الكشاف ص ١٠٣ جـ٢ مطبعة مصطفى محمد ط ١ سنة ١٣٥٤ هـ .

معين عمل من شأنه أن يحول بين انسجام الكتـاب المنزل والعقل السليم للانسان ٠

« والدخول فى بحث الكتـاب المنزل والرسـالة الالهيـة بعد الاعتقاد بعقيدة خاصة أو قبل التخلى عن المؤثرات المغرضـة ٠ يجعل من الصعب أن يوافق مثل هـذا العقل الباحث أهداف الكتـاب السماوى ورسالة الله فى جماعة الانسان والانسان هو الذى خرج الكتاب تخريجا فيه بعد او مجافاة لهدفه ٠ والانسان نفسـه هو الذى مال بالعقل الانسانى نحو عقيدة خاصـة أو وجهة معينـة وانحرف به عن أن يكون العقل الخاص الذى فطر الانسان عليه ٠ وبذلك يكون الانسان نفسه هو الذى حال دون أن يوافق الكتاب عقله والعقل الكتـاب ، وليست طبيعـة كل منهما هى التى حالت دون ذلك »(١) ٠

٤ ـ تأثر الامام بالمؤلفين الفرنسيين :

وقد كان الامام الأستاذ متأثرا فى حديثه عن المعجزات والنبوات بالمؤلفين الفرنسيين ٠ فهو يحـاول أن يقرب الى الأذهان المعجزات الالهية ويعلل وقوعها بما يوافق العلم والعقل ٠ ويقربها من خضوع الأسباب للمسببات فمن ذلك حديثـه عن خلق عيسى من غير أب حيث يقول(٢) ويمكن تقريب هذه الآية الالهية من السنن المعروفة فى نظام الكون بوجهين :

الوجه الأول ـ أن الاعتقاد القوى الذى يستولى على القلب وعلى المجموع العصبى يحدث فى عالم المـادة من الآثار ما يكون على

---

(١) الدكتور محمد البهى ٠ الفكر الاسلامى المعاصر ، موضوع محمد عبده ٠

(٢) جـ ٣ ص ٣٠٩ ، تفسير المنار ٠

خلاف المعتاد . فكم من سليم اعتقد أنه مصـاب بمرض كذا وليس فى بدنه شىء من جراثيم هـذا المرض فولد له اعتقاده تلك الجراثيم وصار مريضـا ، وكم امرىء سقى المـاء القراح أو نحوه فشربه معتقدا أنه سم ناقع فمات مسموما به ، والحوادث فى هذا البـاب كثيرة أثبتتها التجـارب ، واذا اعتبرنا بهـا فى أمر ولادة المسيح نقول : ان مريم لمـا بشرت بأن الله تعـالى سيهب لها ولدا بمحض قدرته ، وهى على ما هى عليه من صحة الايمان وقوة اليقين ، انفعل مزاجها بهذا الاعتقاد انفعالا فعل فى الرحم فعل التلقيح ، كما يفعل الاعتقاد القوى فى مزاج السليم فيمرض أو يموت ، وفى مزاج المريض فيبرأ وكان نفخ الروح الذى ورد فى سـورة اخرى متمما لهـذا التـأثير .

الوجه الثانى ــ وهو أقرب الى الحق وان كان أخفى وأدق وبيانه يتوقف على مقدمة وجيزة فى تأثير الأرواح فى الأشـباح وهى ان المخلوقات قسمان : أجسام كثيفة وأرواح لطيفة ، وأن اللطيف هو الذى يحدث فى الكثيف الحى ما نراه فيه من النمو والحـركة والتوالد الذى يكون من النمو أو يكون النمو منه . فلولا الهواء لمـا عاشت هذه الأحياء ، والهواء روح ، ولذلك كان من أسـمائه اذا تحرك الريح ، وأصلها روح بكسر الراء ولأجل الكسر قلبت الواو ياء لتناسـبه . والمـاء الذى منه كل شىء حى من روحين لطيفين وهو يكاد يكون فى حال التركيب وسطا بين الكثيف واللطيف ولكنه أقرب الى الثانى ، والكهربائية من الأرواح وناهيك بفعلها فى الأشباح فهذه الموجودات اللطيفـة التى سميناها أرواحا هى التى تحـدث معظم التغيير الذى نشاهده فى الكون ، حتى أننا قد رأينا فى هـذا العصر من أسرارهـا ما لم يكن يخطر على بـال أحد من قدمـاء فلاسفتنا . ويعتقد علماؤنا اليوم أن ما سيظهر منها فى المسـتقبل

أجل وأعظم . فاذا كان الأمر كذلك فى الأرواح التى لا دليل عندنا على أنها تدرك وتريد ، فلم لا يجوز أن يكون تأثير الأرواح العاقلة المريدة أعظم ؟ .

اذا تمهد هـذا فنقول : ان الله المسخر للأرواح المنبثة فى الكائنات قد أرسل روحا من عنده الى مريم فتمثل لها بشرا ونفخ فيها فأحدثت نفخته التلقيح فى رحمها ، فحملت بعيسى عليه السلام وهل حملت اليها تلك النفخة مادة أم لا ؟ الله أعلم ، اما البحث فى تمثل هذه الأرواح التى تسمى فى لسان الشرع الملائكة(١) ، فسيأتى الكلام عليه فى تفسير قوله تعالى ١٩ : ١٧ ((**فارسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشر سويا**)) .

اذا أنسأ الله لنا فى الأجل ووفقنا للمضى فى هذا العمل .

وقد انتقل رحمة الله الى جوار ربه قبل أن يصل فى تفسيره الى هـذا المكان .

وأنت اذا دققت النظر فى الموضوع ، رأيته فى حقيقته معجزة من الله أراد أن يثبت بها ان أوامره لا تخضع لأسباب الناس وأنه على كل شىء قدير . وأن أمره كن فيكون .

والمعجزة فى تعريفها أمر خارق للعادة ، والله تعالى قال هـذا فى كتابه : ((**ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون**)) ونحن اذا استطعنا أن نعلل خلق عيسى بما يقربه من السنن المعروفة فى نظام الكون ، فماذا عسى نصنع فى تعليل خلق آدم ؟ ألا يكون من الأولى أن نسلم بهذه الأشياء على أنها أثر من قدرة الله وهى فوق القدر ، ومن أرادة الله ، والله فعال لما يريد،

---

(١) انظر أوائل الأساس السادس : (تحكيم العقل) فقرة : (مفهوم الملائكة) .

ومما يعجز العقل عن ادراك سره • وان سلم به وبأثره • والانسان لا يدرك الكهرباء وان أدرك أثرها • فأولى أن يسلم بسر الصنعة الحكيمة الى صانعها •

والأستاذ الامام نفسه ذكر فى رسالة التوحيد أن المعجزة لا تخضع لقانون الأسباب والمسببات « والمعجزة ليست من النوع المستحيل عقلا فان مخالفة السير الطبيعي المعروف فى الايجاد مما لم يقم دليل على استحالته • بل ذلك مما يقع كما يشاهد فى حالة المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات مع وجود العلة التى تزيد الضعف وتساعد الجوع على الاتلاف • فان قيل ان ذلك لابد ان يكون تابعا لناموس آخر طبيعي قلنا ان واضع الناموس هو موجد الكائنات فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات ، غاية ما فى الأمر أننا لا نعرفها ولكننا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضله على أننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار يسهل علينا العلم بأنه لا يمتنع عليه أن يحدث الحادث على اى هيئة وتابعا لأى سبب اذا سبق فى عمله أنه يحدثه كذلك •

المعجزة لابد أن تكون مقرونة بالتحدى عند دعوى النبوة وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده لأن النبى يستند اليها فى دعواه أنه مبلغ عن الله فاصدار الله لها عند ذلك يعد تأييدا منه له فى تلك الدعوى • فمتى ظهرت المعجزة — وهى مما لا يقدر عليه البشر — وقارن ظهورها دعوى النبوة علم بالضرورة أن الله ما أظهرها الا تصديقا لمن ظهرت على يده وان كان هذا العلم قد يقارنه الانكار مكابرة »(١) •

---

(١) رسالة التوحيد ص ١٠٠ •

٥ ـ رأى الامام فى القصة :

والأستاذ الامام يخرج القصة أحيانا عن مدلولها الحقيقى التاريخى الى مدلول تشريعى وتأويل عقلى ، حتى يقبلها المنكرون ويصدق بها المكذبون .

ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى : ((**واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها الله مخرج ما كنتم تكتمون * فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون**)) .

قال الامام فى تفسيرها(١) ((هذا هو أول القصة المحتوية على المخالفة وهى القتل ثم التنازع فى القاتل . ثم تشريع الحكم لكشف الحقيقة بذبح البقرة وتشددهم فى السؤال عن أوصافها ، فقوله تعالى : (**واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها**) أسند فيه القتل الى الأمة ، وان كان القاتل واحدا باعتبار ما تقدم من كونها فى مجموعها وتكافلها كالشخص الواحد . والتدارؤ تفاعل من الدرء وهو الدفع ، فمعناه التدافع وهو يدل على أنه كان خصام واتهام ، وكان كل يدرأ عن نفسه ويدعى البراءة ويتهم غيره ، وكان للقاتلين والعارفين بهم حظوظ وأهواء كتموا فيها الحقيقة ولذلك قال تعالى بعد التذكير بالجريمة (**والله مخرج ما كنتم تكتمون**) أى من الايقاع ببرآءة من تتهمونهم بالقتل لاخفاء القاتل لأنه لا يخفى عليه مكركم .

وأما قوله : (**فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى**) فهو بيان لاخراج ما يكتمون . ويروون فى هذا الضرب روايات كثيرة قيل ان المراد اضربوا المقتول بلسانها وقيل بفخذها وقيل بذنبها.. وقالوا انهم ضربوه فعادت اليه الحياة وقال : قتلنى أخى أو ابن

---

(١) المنار جـ١ ص ٣٥٠ .

أخى فلان الخ ما قالوا . والآية ليست نصا فى مجمله فكيف بتفصيله . والظاهر مما قدمنا أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل فى الدماء عند التنازع فى القاتل اذا وجد القتيل قرب بلد ولم يعرف قاتله ليعرف الجانى من غيره ، فمن غسل يده وفعل ما رسم لذلك فى الشريعة برىء من الدم ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية . ومعنى احياء الموتى على هذا حفظ الدماء التى كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف فى قتل تلك النفس أى يحييها بمثل هذه الأحكام . وهذا الاحياء على نحو قوله تعالى ٥ : ٣٢ ((**ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا**)) وقوله ((**ولكم فى القصاص حياة**)) فالاحياء هنا معناه الاستبقاء كما هو المعنى فى الآيتين . ثم قال ((**ويريكم آياته**)) بما يفصل فى الخصومات ويزيل من أسباب الفتن والعداوات ، فهو كقوله تعالى : ١٣ : ٥١ ((**انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله**)) وأكثر ما يستعمل مثل هذا التعبير فى آيات الله فى خلقه الدالة على صدق رسله (لعلكم تعقلون) أى تفقهون أسرار الأحكام وفائدة الخضوع للشريعة ، فلا تتوهموا أن ما وقع مختص بهذه الواقعة فى هذا الوقت ، بل يجب أن تتلقوا أمر الله فى كل وقت بالقبول من غير تعنت .

فالأستاذ الامام كما نرى يريد أن يفسر الحياة بأنها حياة معنوية . وفى هذا اخراج للفظ عن مدلوله الظاهر الى معنى متأول والحمل على الحقيقة أولى « ويجب أن نقف عند ما ورد فى القرآن الكريم مع الاحتفاظ بدلالة الألفاظ اللغوية على معانيها وافادتها لواقع هى تعبير صحيح عنه »(١) .

---

(١) فضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمود شلتوت : تفسير سورة البقرة بمجلة رسالة الاسلام .

قال الأستاذ الامام « يقول أهل الشبهات فى القرآن : ان بنى اسرائيل لا يعرفون هذه القصة اذ لا وجود لها فى التوراة فمن أين جاء بها القرآن »(١) ونقول : ان القرآن جاء بها من عند الله الذى يقول فى بنى اسرائيل المتأخرين : انهم نسوا حظا مما ذكروا به وانهم لم يؤتوا الا نصيبا الا من الكتاب . على أن هذا الحكم منصوص فى التوراة وهو أنه اذا قتل قتيل لم يعرف قاتله فالواجب ان تذبح بقرة غير ذلول فى واد دائم السيلان ويغسل جميع شيوخ المدينة القريبة من المقتل أيديهم على العجلة التى كسر عنقها فى الوادى . ثم يقولون ان أيدينا لم تسفك هذا الدم ، اغفر لشعبك اسرائيل ويتمون دعوات يبرأ بها من يدخل فى هذا العمل من دم القتيل ، ومن لم يفعل يتبين انه القاتل ، ويراد بذلك حقن الدماء . فيحتمل ان يكون الحكم هو من بقايا تلك القصة أو كانت هى السبب فيه .

وما هذه بالقصة الوحيدة التى صححها القرآن ، ولا هذا الحكم بالحكم الأول الذى حرفوه أو أضاعوه وأظهره الله تعالى .

وذكر تلميذه السيد الأستاذ رشيد رضا نص الحكم من التوراة فقال : « ان ما أشار اليه الأستاذ الامام من حكم التوراة المتعلق بقتل البقرة هو فى أول الفصل الحادى والعشرين من سفر تثنية الاشتراع ونصه :

١ ـ اذا وجد قتيل فى الأرض التى يعطيك الرب الهك لتمتلكها واقعا فى الحقل لا تعلم من قتله .

٢ ـ ويخرج شيوخك وقضاتك ويقيسون الى المدن التى حول القتيل .

---

(١) تفسير المنار جا ص ٣٤٧ .

٣ ــ فالمدينة القربى من القتيل يأخذ شـيوخ تلك المدينـة عجلة من البقر لم يحرث عليها لم تجر بالنير ٠

٤ ــ وينحـدر شـيوخ تلك المدينـة بالعجلة الى واد دائم السيلان لم يحرث فيه ولم يزرع ويكسرون عنق العجلة فى الوادى ٠

٥ ــ ثم يتقدم الكهنـة بنى لاوى لأنه اياهم اختار الأب الهك ليخدموه ويباركوا باسم الرب وحسب قولهم تكون كل خصـومة وكل ضربـة ٠

٦ ــ ويغسل جميع شيوخ تلك المدينـة القريبين من القتيل أيديهم على العجلة المكسورة العنق فى الوادى ٠

٧ ــ ويصرخون ويقولون : أيدينا لم تسفك هـذا الدم وأعيننا لم تبصره ٠

٨ ــ اغفر لشعبك اسرائيل الذى فديت يارب ٠ ولا تجعل دم برىء فى وسط شعبك اسرائيل ٠ فيغفر لهم الدم أ هـ(١) ٠

رد على الامام :

هذا هو نص ما ورد فى التوراة وهو صريح فى أن هذا التشريع وهو ذبح بقرة من أجل معرفة القتيل المجهول ــ كان معروفـا عند بنى اسرائيل ٠ فلا يمنع أن تكون آية القرآن تشير الى قصـة تاريخيـة كانت أصل هذا التشريع عند بنى اسرائيـل ٠ وتعبير الآية نفسه صريح فى أن الاحياء فى قوله تعالى : ((**كذلك يحيى الله الموتى**)) أحياء حقيقى بعد موت تسلب فيه الروح وليس أحيـاء حكميا يحصل بمعرفة القاتل والاقتصـاص منه حتى يكون بمثابة ((ولكم فى القصاص حياة)) كما يريد الشيخان ، ولو كان الأمر

---

(١) تفسير المنار جـ١ ص ٣٤٨ ٠

كما يقرران لما صح تقرير احياء الموتى للبعث والجزاء بهذا النوع من الاحياء الحكمى المجازى . ولو أن قائلا قال : « ان الله يحيى النفوس الجاهلة بالعلم ، وكذلك يحيى الموتى من قبورهم ، لما كان مثل هذا التشبيه والقياس سائغا ، وان قوله تعالى **« ويريكم آياته »** لواضح فى الاراءة البصرية للآيات الكونيـة لا فى الاراءة العقلية للأحكام الشرعية حتى يكون من قبيل « لتحكم بين الناس بما أراك الله » .

وكل هذا لا يتفق وما يريده الشيخان من حمل الآية على المعنى التشريعى فهذا الحمل تأويل منهما ولكنه تأويل لا تساعد عليه اللغة وما هو المعهود من كلام العرب .

« والتأويل اذا كان لا يقضى على أصل دينى ولا يمس عقيدة ثابتة وهو فى الوقت نفسه يحتفظ للعبارة القرآنية بواقع تعبر عنه تعبيرا صادقا وكانت اللغة تسمح به فانه يكون مقبولا من الوجهتين الدينية واللغوية . واذا لم تسمح به اللغة فهو مرفوض من هذه الجهة ، صادر عن جهل من صاحبه بقانون التأويل ومرفوض ايضا من جهة ما يلزمه من الحكم بصدور التلبيس من الله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . أما اذا كان يقضى على أصل دينى أو يمس عقيدة فانه يكون مرفوضا أيضا من الوجهة الدينية »(١) .

٦ ـ رأى الامام فى الجن والسحر وتقديس الأولياء :

والأستاذ الامام مقتنع تماما بأن الدين المملوء بالخرافات والعقل المستنير لا يجتمعان فى دماغ واحد ، فلا يمكن ان يشتمل القرآن

---

(١) مجلة رسالة الاسلام ص ٢٢٦ العدد الثالث السنة الاولى موضوع تفسير سورة البقرة للاستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت .

على شيء من الخرافات ولا يمكن أن يتعارض القرآن مع العقل الرشيد .

ولذلك فانه هاجم كثيرا من الخرافات الشائعة بين جماهير العامة من المسلمين : عن الجن والسحر والحسد والشفاعة وكرامات الأولياء .

وكان متأثرا فى ذلك بابراز الاسلام فى صورة جميلة متحضرة من جهة ونتلاءم مع التفكير الاستشراقى الذى يحترم العقل ويعتمد عليه ولا يقبل من الأشياء الا ما طابق طرق البحث العلمى من جهة أخرى :

١ - الجن :

والجن تحدث عنهم القرآن ، ولكن لم يتحدث عنهم بالكثرة التى تحدث بها عن الانسان . فان القرآن يهدف فى حديثه عن الانسان الى بيان أن الدنيا كلها خلقها الله من أجل الانسان ، وسخر له كل ما فى الكون وأقدره على الانتفاع به . وميزه بميزة العقل والتفكير وجعل طاعة الانسان لله تفضل جميع الطاعات لأنها صادرة عن عقل وارادة .

فاذا تحدث القرآن بعد ذلك عن الجن أو الملائكة أو غيرهما فانه يتحدث عنهم على أنهم شيء ثانوى فى هذا الكون .

ولكن الخرافات التى كانت تدور فى أذهان العامة عن قدرة الجن على التلبس بالأشخاص ، والاستعانة بهم فى مهام الأمور وفى عقد المحبة بين الزوجين ، وفى القدرة على عمل غرائب الأشياء جعلت الزار ينتشر بين جماهير العامة ، فضلا عن الخاصة ، والزار بدعة تدور على وهم خاطىء واعتقاد أن الجن يتلبسون جسم

المريض ، خصوصــا المرضى بالأمراض العصبية ، ولا تخرج الجن الا بتقديم الضحايا وعمل حفـلات للطبل والرقص وما يتبع ذلك من مســاخر .

وقد كان الأستاذ الامام منهجيا فى بيانه لحقيقة الجن :

فهو لم يقل بما قــال به بعض المعتزلة من انكارهــم للجن أو انكار اى أثر لهم بالكلية فى هذا الكون ، وانما شدد النكير على الخرافات التى تتصل بالجن . وجوز أن يكون لهم أثر فيما يســمى بالصرع ، بل انه ذكر أكثر من مرة فى تفسيره أن الجن يمكن أن تطلق على الميكروب الخفى الذى يسبب كثيرا من الأمراض . فعند تفسيره لقوله تعالى : ((**ان الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كمـا يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس**)) ، يقول « وأما قيــام آكلى الربا كما يقوم الذى يتخبطــه الشيطان من المس فقد قال ابن عطيه فى تفسيره : المراد تشبيه المرابى فى الدنيــا بالمتخبط المصروع كما يقال لمن يصرع بحركات مختلفة قد جن » وهو قول ظاهر فى نفسه فان أولئك الذين فتنهم المــال واستعبدهم حتى ضربت نفوســهم بجمعه وجعلوه مقصــودا لذاته وتركوا لأجل الكسب به جميــع موارد الكسب الطبيعى أخرج نفوسهم عن الاعتدال الذى عليه أكثر الناس ويظهر ذلك فى حركاتهم وتقلبهم فى أعمالهم ، كمــا نراه فى حركات المونعين بأعمــال البورصــة والمغرمين بالقمــار يزيد فيهم النشاط والانهماك فى أعمالهم حتى يكون خفــة تعقبها حركات غير منتظمة . وهذا وجه الشبه بين حركاتهم وبين تخبط الممسوس ، فان التخبط من الخبط وهو ضرب غير منتظم كخبط العشواء » .

« ثم ان التشبيــه مبنى على أن المصروع الذى يعبر عنــه بالممسوس يتخبطــه الشيطان أى أنه يصرع بمس الشيطــان وهو ما كان معروفا عند العرب وجاريا فى كلامهم مجرى المثل . قــال

البيضاوى فى التشبيه : وهو وارد على ما يزعمون أن الشـيطان يخبط الانسـان فيصرع والخبط ضرب على غير اتسـاق كخبط العشواء ، أ هـ . وتبعه أبو السعود كعادته فذكر عبارته بنصها .

فالآية على هذا لا تثبت أن الصرع المعروف بفعل الشيطان حقيقة ولا تنفى ذلك . وفى المسألة خلاف بين العلماء . أنكر المعتزلة وبعض أهل السنة ، أن يكون للشيطان فى الانسان غير ما يعبر عنه بالوسوسـة ، وقال بعضهم : ان سبب الصرع مس الشيطان كما هو ظاهر من التشبيه ، وان لم يكن نصـا فيه ، وقد ثبت عند أطبـاء هـذا العصر أن الصرع من الأمراض العصبية التى تعـالج كأمثالها بالعقاقير وغيرها من طرق العلاج الحديث . وقد يعالج بعضها بالأوهام ، وهذا ليس برهانا قطعيا على أن هذه المخلوقات الخفية التى يعبر عنها بالجن يستحيل أن يكون لها نوع اتصـال بالناس المستعدين للصرع . فتكون من أسبابه فى بعض الأحوال . والمتكلمون يقولون ان الجن أجسام حيـة خفية لا ترى ، وقد قلنا فى (المنار) غير مرة : أنه يصح أن يقال : ان الأجسـام الحيـة الخفية التى عرفت فى هذا العصر بواسطة النظارات المكبرة ، وتسمى بالميكروبات يصح أن تكون نوعـا من الجن . وقد ثبت أنها علل لأكثر الأمراض ، قلنا ذلك فى تأويل ما ورد من أن الطـاعون من وخز الجن على أننا نحن المسلمين لسنا فى حاجة الى النزاع فيما أثبته العلم وقرره الأطباء ، أو اضافة شيء اليه مما لا دليل فى العلم عليه لأجـل تصحيح بعض الروايات الأحادية فنحمد الله على أن القرآن أرفع من أن يعارضه العلم »(١) .

---

(١) تفسير المنار جـ٣ ص ٩٦ .

رؤيـة الجـن :

والأستاذ الامام يذهب الى عدم امكان رؤية الجن وهو قول قاله الزمخشرى من قبل عند تفسـير قوله تعـالى : ((**يا بنى آدم لا يفتننكم الشـيطان كمـا أخرج أبويكم من الجنـة ينزع عنهمـا لباسـهما ليريهمـا سـوءاتهما لانـه يراكم هو وقبيـله من حيث لا ترونهم**)) .

يقول : ((**لا يفتننكم الشـيطان**)) لا يمتحنكم بألا تدخـلوا الجنة كما محن أبويكم بأن أخرجهما منها ((**ينزع عنهما لباسهما**)) حال : أى أخرجهما نازعا لباسهما بأن كان سببا فى أن نزع عنهمـا ((**انه يراكم هو**)) تعليـل للنهى وتحـذير من فتنته بأنه بمنزلة العدو المداجى يكيدكم ويغتالكم من حيث لا تشعرون . وعن ملك بن دينار : ان عدوا يراك ولا تراه لشـديد المؤنة الا من عصـم الله « وقبيله » وجنوده من الشياطين وفيه دليل يبين أن الجن لا يرون ولا يظهرون للانس وان اظهارهم أنفسهم ليس فى استطاعتهم وان زعم من يدعى رؤيتهم زورا ومخرفة »(١) .

ويعلق أحمد بن المنير على كلام الزمخشرى مسفها رأيه مؤيدا رؤية الجن فيقول « أين يذهب به كما ورد فى الحديث الصحيح من اعتراض ابليس رأسهم ومقدمتهم النبى صلى الله عليه وسلم يروم أن يشغله عن صلاته حتى أمكنه الله منه فأخذه عليه الصلاة والسلام، وأراد أن يربطـه الى سارية من سوارى المسجد ، يلعب به الصبيان. حتى ذكر دعوة سليمان عليه السـلام فتركه . واذا جاز ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم كان جائزا لأولياء الله والمتبعين لسنة رسـول الله صلى الله عليه وسلم كرامة . لكن الزمخشرى يصـده عن ذلك

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص ٩٥ .

جحده لكرامة الأولياء لأنه عقيدة اخوانه ، اذ الكرامة انما يؤتاها الولي الصـادق فكيف ينالها من يشك في اسلامه فانهم لفي عذر من جحدها والتكذيب بها ، رزقنا الله الايمـان بالكرامات وان لم نكن لها أهلا والله الموفق ٠

وأنت ترى أن ابن المنير مبالغ في حملته على الكشـاف ٠ وقد حمله على ذلك تعصبه لمذهب أهل السنة ضد المعتزلة ٠

ولو أنصف لنظر الى الآية وحدها فوجدها صريحة في أن الجن لا يرون ٠

وأما الحـديث الذى أورده فهو حـديث صحيـح أخرجـه البخارى(١) ٠ ولكنه خاص بالنبى صلى الله عليـه وسلم فيقتصر عليه ٠ والا فهل يلزم من رؤية النبى صلى الله عليه وسلم ربه ليلة الاسراء والمعراج أن يراه المسلمون فى هذه الدنيا ؟ ٠

ان رؤية الجن أمر خارق للعادة ، وقد ورد الحديث بحصوله للنبى صلى الله عليـه وسـلم فيوقف عنده ولا يتعداه الى غـيره **((وان اختلفتم فى شىء ، فردوه الى الله))** ٠

(ب) السـحر :

لم يعترف الأستاذ الامام بالسحر على أنه جزء من العقيدة الدينية ٠ بل صرح بأن السحر من الأمور العادية والعلوم الانسانية، فهو متروك الى بحوث الناس ٠ وتقدم معلوماتهم عنه وتوضيحهم لحقائقـه ٠

والقـرآن الكريم قد ذكر السـحر وأثره فى قوله تعـالى : **((واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن**

---

(١) البخارى العمل فى الصلاة رقم ١٠ ٠

الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمـان من أحد حتى يقولا انمـا نحن فتنـة فلا تكفر فيتعلمون منهمـا ما يفرقون به بين المرء وزوجـه وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله ٠ ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » ٠

ولكن ذكر هـذه القصـة فى القرآن لا يقتضى أن يكون كل ما يحكى فيها عن الناس صحيحا ، فذكر السحر فى هـذه الآيـات لا يستلزم اثبات ما يعتقد الناس منه ، كما أن نسبة الكفر الى سليمان التى علمت من النفى لا تستلزم ان تكون صحيحة لأنهـا ذكرت فى القرآن ولو لم يكن ذكرها فى سياق النفى ٠

وقد بينا غير مرة أن القصص جاءت فى القرآن لأجل الموعظـة والاعتبار لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين ، وانه ليحكى من عقـائدهم الحق والباطل ، ومن تقاليدهم الصـادق والكاذب ، ومن عاداتهم النافع والضار ، لأجل الموعظـة والاعتبـار ، فحكايـة القرآن لا تعدو موضـع العبرة ولا تتجاوز موطن الهداية ، ولابد أن يأتى فى العبارة أو السـياق وأسلوب النظم ما يدل على استحسان الحسن واستهجان القبيح ٠ وقد يأتى فى الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين أو المحكى عنهم وان لم تكن صحيحـة كقولـه : ((**كما يقوم الذى يتخبطـه الشيطان من المس**))(١) وكقوله : ((**بلغ مطلع الشمس**)) وهـذا الأسلوب مألوف ، فاننا نرى كثيرا من كتاب العربيـة وكتـاب الافرنج يذكرون آلهـة الخير والشر فى خطبهم ومقالاتهم لاسيما فى سياق كلامهم عن اليونان والمصريين القدماء ، ولا يعتقد أحد منهم

---

(١) انظر صفحة ١٠٥ ـ ١٠٨ من هذا البحث ٠

شيئا من تلك الخرافات الوثنية · ويقول أهل السواحل غربت الشمس أو سقط قرص الشمس فى البحر أو فى الماء ، ولا يعتقدون ذلك وانما يعبرون عن المرئى ·

جاء ذكر السحر فى مواضع متعددة فى القرآن وأكثره فى قصة موسى وفرعون ، وذكر هنا فى الكلام عن اليهود · واذا أردنا فهمه من عرف اللغة وجدنا ان السحر عند العرب كل ما لطف مأخذه ودق وخفى وقالوا سحره وسحره بمعنى خدعه وعلله ، وقالوا عين ساحرة وعيون سواحر ، وفى الحديث الصحيح « ان من البيان لسحرا » والسحر بالفتح وبالتحريك الرئة وهى أصل هذه المادة والرئة فى الباطن فما لطف مأخذه ودق صنعه حتى لا يهتدي اليه غير أهله فهو باطن ، ومنه الخداع وهو أن يظهر لك شيئا غير الواقع فى نفس الأمر ، فالواقع باطن خفى ، وتأثير العيون فى عشاق الحسان ، والكلام البليغ فى عشاق البيان مما يخفى مسلكه ويدق سببه حتى يعسر على أكثر الناس الوقوف على العلة فى تأثيره ·

وقد وصف الله السحر فى القرآن بأنه تخييل يخدع الأعين فيريها ما ليس بكائن كائنا ، فقال : ((**يخيل اليه من سحرهم انها تسعى**)) والكلام فى حبال السحرة وعصيهم ، وفى آية أخرى : ((**سحروا أعين الناس واسترهبوهم**)) وفى هذه الآية التى نفسرها أن السحر كان يؤخذ بالتعليم والتاريخ يشهد بهذا ، وقد كان المصريون يطلقون لقب الساحر على العالم كما يؤخذ من قوله تعالى : ((**وقالوا يايها الساحر ادع لنا ربك**)) ·

ومجموع هذه النصوص يدل على أن السحر اما حيلة وشعوذة ، واما صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس ويجهلها الأكثرون

فيسمون العمل بها سحرا لخفاء سببه ولطف مأخذه . ويمكن ان يعد منه تأثير النفس الانسانية فى نفس اخرى لمثل هذه العلة . وقد قال المؤرخون ان سحرة فرعون قد استعانوا بالزئبق على اظهار الحبال والعصى بصور الحيات والثعابين وتخييل أنها تسعى .

وقد اعتاد الذين اتخذوا التأثيرات النفسية صناعة ووسيلة للمعاش أن يستعينوا بكلام مبهم وأسماء غريبة اشتهر عند الناس أنها من أسماء الشياطين وملوك الجان وأنهم يحضرون اذا دعوا بها ويكونون مسخرين للداعى . ولمثل هذا الكلام تأثير فى اثارة الوهم عرف بالتجربة ، وسببه اعتقاد الواهم أن الشياطين يستجيبون لقارئه ويطيعون أمره ، ومنهم من يعتقد أن فيه خاصية التأثير وليس فيه خاصية ، وانما تلك العقيدة الفاسدة تفعل فى النفس الواهمة ما يغنى منتحل السحر عن توجيه همته وتأثير ارادته . وهذا هو السبب فى اعتقاد الدهماء أن السحر عمل يستعان عليه بالشياطين وأرواح الكواكب ، وقد اختلف المتكلمون والمفسرون والفقهاء فى حقيقة السحر وفى أحكامه ، وعده بعضهم من خوارق العادات وفرقوا بينه وبين المعجزة ولم يذكروا فى فروقهم أن السحر يتلقى بالتعليم ويتكرر بالعمل فهو أمر عادى قطعا بخلاف المعجزة »(١) .

مناقشة راى الأستاذ الامام فى السحر :

يذهب الأستاذ الامام كما شاهدنا الى أن السحر تخييل وخداع للأعين وليس حقيقة لقوله تعالى : ((**سحروا أعين الناس**)) ونقول له اذا جاز على الساحر أن يسحر جميع أعين الناظرين مع كثرتهم حتى يروا الشىء بخلاف ما هو به ، مع أن هذا تغيير فى احساسهم فما الذى يحيل تأثيره فى تغيير بعض أمراضهم وقواهم

---

(١) تفسير المنار جـ١ ص ٣٩٩ وما بعدها .

وطباعهم ، وما الفرق بين التغيير الواقع فى الرؤية والتغيير الواقع فى صفة أخرى من صفات النفس والبدن ؟ فاذا كان احساسه قد تغير حتى يرى الساكن متحركا ، والمتصل منفصلا ، والميت حيا ، فما المحيل لأن يغير صفات نفسه حتى يجعل المحبوب اليه بغيضا والبغيض محبوبا وغير ذلك من التأثيرات • وقد قال تعالى عن سحرة فرعون انهم ٧ : ١١٥ ((**سحروا أعين الناس واسترهبوهم**)) وذلك يوضح أن أعينهم سحرت ، وذلك اما أن يكون لتغيير حصل فى المرئى وهو الحبال والعصى مثل أن يكون السحرة استعانت بأرواح حركتها وهى الشياطين ، فظنوا أنها تحركت بنفسها • وهذا كما اذا جر من لا تراه حصيرا أو بساطا فترى الحصير والبساط ينجر ولا ترى الجار له ، مع أنه هو الذى يجره ، فهكذا حال الحبال والعصى التبستها الشياطين فقلبتها كتقليب الحية فظن الرائى أنها تقلبت بأنفسها ، والشياطين هم الذين يقلبونها • واما ان يكون التغيير حدث فى الرائى ، حتى رأى الحبال والعصى تتحرك ، وهى ساكنة فى أنفسها • ولا ريب أن الساحر يفعل هذا وهذا ، فتارة يتصرف فى نفس الرائى واحساسه حتى يرى الشىء بخلاف ما هو به ، وتارة يتصرف فى المرئى باستعانته بالأرواح الشيطانية حتى يتصرف بها •

وأما قول الأستاذ الامام ، ان سحرة فرعون قد استعانوا بالزئبق على اظهار الحبال والعصى بصورة الحيات • فانه لو كان كذلك لم يكن هذا خيالا ، بل حركة حقيقية ولم يكن ذلك سحرا لأعين الناس ولا يسمى ذلك سحرا بل صناعة من الصناعات المشتركة • وقد قال تعالى : ٢٠ : ٦٦ ((**فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى**)) ولو كانت تحركت بنوع حيلة ـ كما يقول الأستاذ الامام ـ لم يكن هذا من السحر فى شىء •

وايضا لو كان ذلك بحيلة لكان طريق ابطالها اخراج ما فيها من الزئبق وبيان ذلك المحـال ولم يحتج الى القاء العصا لابتلاعها .

« وايضا فمثل هذه الحيلة لا تحتـاج فيهـا الى الاستعانة بالسحرة بل يكفى فيها حذق الصناع . ولا يحتاج فى ذلك الى تعظيم فرعون للسحرة ، وخضـوعه لهم ، ووعدهم بالتقريب والجزاء ، وأيضا فانه لا يقال فى ذلك ٢٠ : ٧١ ٢٦ : ٤٩ ((**انه لكبيركم الذى علمـكم السـحر**)) فان الصناعـات يشـترك النـاس فى تعلمهـا وتعليمها »(١) .

والأسـتاذ الامام يذهب الى ان السـحر لا أثر له فى المرض أو الحل أو العقد ، وانما هو الوهم الذى يحل بالنفوس والاعتقـاد الخرافى المنتشر بين العامة فى السحرة هو الذى يؤثر فيهم .

ولا انكار على أن الوهم له أثر كبير فى المرض والحب والبغض ولكن هـذا لا يمنع أن السحر فى حد ذاته حقيقة قائمـة بذاتهـا وهو يؤثر ــ من غيروهم فى المرض والثقل والعقد والحب والبغض والنزيف وغير ذلك من الآثار الموجودة والملموسـة بالمشـاهدة بين النـاس .

والله تعالى قال : ((**ومن شر النفاثات فى العقد**)) وهذا دليل على أن النفث يضر المسـحور فى حـال غيبته عنه ولو كان الضرر لا يحصل الا بمباشرة البدن ظاهرا ، لم يكن للنفث ولا للنفاثات شر يستعاذ منه(٢) .

---

(١) تفسير سورة الكافرون والمعوذتين للامام ابن القيم بتصرف ص ٥٣ مطبعة السنة المحمدية .

(٢) تفسير سورة الفلق للامام ابن القيم .

رأى الأستاذ الامام فى النفاثات فى العقد :

يذهب الأستاذ الامام الى تأويل النفاثات فى العقد ، بالنمامين والمفسدين بين الناس . كما يذهب الى رفض الحديث الذى يذكر أن النبى عليه الصلاة والسلام قد سحر . ويؤول السحر بالطرق الخفية التى تفسد بين الزوجين وتفرق بين المتحابين . فيقول : « والمراد(١) بالنفاثات فى العقد النمامون المقطعون لروابط الألفة المحرقون لها بما يلقون عليها من ضرام نمائمهم . وانما جاءت العبارة بالنفاثات فى العقد لأن الله جل شأنه أراد أن يشبههم بأولئك السحرة المشعوذين الذين اذا أرادوا أن يحلوا عقدة المحبة بين المرء وزوجه مثلا فيما يوهمون به العامة عقدوا عقدا ثم نفثوا فيها وحلوها ليكون ذلك حلا للعقدة التى بين الزوجين ، والنميمة تشبه أن تكون ضربا من السحر لأنها تحول ما بين الصديقين من محبة الى عداوة بوسيلة خفية كاذبة والنميمة تضلل وجدان الصديقين كما يضلل الليل من يسير فيه بظلمته ، ولهذا ذكرها عقب ذكر الغاسق اذا وقب ، ولا يسهل على أحد أن يحتاط للتحفظ من النمام فانه يذكر عنك ما يذكر لصاحبك وأنت لا تعلم ماذا يقول ولا ما يمكن أن تقول ، واذا جاءك فربما دخل عليك بما يشبه الصدق حتى لا يكاد يمكنك تكذيبه فلابد لك من قوة أعظم من قوتك تستعين بها عليه وهى قوة الله . وقد رووا ههنا أحاديث فى أن النبى صلى الله عليه وسلم سحره لبيد بن الأعصم وأثر سحره فيه حتى كان يخيل اليه أنه يفعل الشىء وهو لا يفعله أو يأتى شيئا وهو لا يأتيه وأن الله أنبأه بذلك ، وأخرجت مواد السحر من بئر وعوفى صلى الله عليه وسلم مما كان نزل به من ذلك ونزلت هذه السورة.

---

(١) تفسير جزء عم تاليف الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ص ١٨٣ .

ولا يخفى أن تأثير السحر فى نفسه عليه السلام حتى يصل به الأمر الى ان يظن انه يفعل شيئا وهو لا يفعله ليس من قبيل تاثير الأمراض فى الأبدان ولا من قبيل عروض السهو والنسيان فى بعض الأمور العادية بل هو ماس بالعقل آخذ بالروح ، وهو مما يصدق قول المشركين فيه ((**ان تتبعون الا رجلا مسحورا**)) وليس بالمسحور عندهم الا من خولط فى عقله وخيل له أن شيئا يقع وهو لا يقع فيخيل اليه أنه يوحى اليه وهو لا يوحى اليه ، وقد قال الكثير من المقلدين الذين لا يعقلون ما هى النبوة ولا ما يجب لها أن الخبر بتأثير السحر فى النفس الشريفة قد صح فيلزم الاعتقاد به ، وعدم التصديق به من بدع المبتدعين لأنه ضرب من انكار السحر وقد جاء القرآن بصحة السحر ، فانظر كيف ينقلب الدين الصحيح والحق الصريح فى نظر المقلد بدعة نعوذ بالله ٠ يحتج بالقرآن على ثبوت السحر ويعرض عن القرآن فى نفيه السحر عنه صلى الله عليه وسلم وعده من افتراء المشركين عليه ويؤول فى هذه ولا يؤول فى تلك مع أن الذى قصده المشركون ظاهر لأنهم كانوا يقولون ان الشيطان يلابسه عليه السلام ، وملابسة الشيطان تعرف بالسحر عندهم ، وضرب من ضروبه ، وهو بعينه أثر السحر الذى نسب الى لبيد فانه قد خالط عقله وادراكه فى زعمهم ٠ والذى يجب اعتقاده أن القرآن مقطوع به ٠ وأنه كتاب الله بالتواتر عن المعصوم صلى الله عليه وسلم ، فهو الذى يجب الاعتقاد بما يثبته وعدم الاعتقاد بما ينفيه ٠ وقد جاء بنفى السحر عنه عليه السلام حيث نسب القول باثبات حصول السحر له الى المشركين أعدائه ٠ ووبخهم على زعمهم هذا فاذن ليس النبى بمسحور قطعا ، وأما الحديث فعلى فرض صحته هو آحاد الآحاد لا يؤخذ بها فى باب العقائد ، وعصمة النبى من تاثير السحر فى عقله عقيدة من العقائد

لا يؤخذ فى نفيها عنه الا باليقين . ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن والظنون ، على ان الحديث الذى يصل الينا من طريق الآحاد انما يحصل الظن عند من صح عنده أما من قامت له الأدلة على أنه غير صحيح فلا تقوم عليه حجة . وعلى أى حال فلنا . بل علينا أن نفوض الأمر فى الحديث ولا نحكمه فى عقيدتنا ونأخذ بنص الكتاب وبدليل العقل ، فاذا اذا خولط النبى كما زعموا جاز عليه أن يظن أنه بلغ شيئا وهو لم يبلغه أو أن شيئا نزل عليه وهو لم ينزل عليه والأمر ظاهر لا يحتاج الى بيان . ثم ان نفى السحر عنه لا يستلزم نفى السحر مطلقا فربما جاز أن يصيب السحر غيره بالجنون نفسه ، ولكن من المحال أن يصيبه لأن الله عصمه منه ، ما اضر المحب الجاهل وما أشد خطره على من يظن أنه يحبه ، نعوذ بالله من الخذلان . على ان نافى السحر بالمرة لا يجوز أن يكون مبتدعا لأن الله تعالى ذكر ما يعتقد به المؤمنون فى قوله : (**آمن الرسول**) الآية . وفى غيرها من الآيات ، ووردت الأوامر بما يجب على المسلم أن يؤمن به حتى يكون مسلما ، ولم يأت فى شىء من ذلك ذكر السحر على أنه مما يجب الايمان بثبوته أو وقوعه على الوجه الذى يعتقد به الوثنيون فى كل ملة . بل الذى ورد فى الصحيح هو أن تعلم السحر كفر ، فقد طلب منا الا ننظر بالمرة فيما يعرف عند الناس بالسحر ويسمى باسمه ، وجاء ذكر السحر فى القرآن فى مواضع مختلفة ، وليس من الواجب أن نفهم منه ما يفهم هؤلاء العميان ، فان السحر فى اللغة معناه صرف الشىء عن حقيقته ، قال الفراء فى قوله تعالى ((**فانى تسحرون**)) أى انى تؤفكون وتصرفون . سحره وافكه واحد . وماذا علينا لو فهمنا من السحر الذى فرق بين المرء وزوجه تلك الطرق الخبيثة الدقيقة التى تصرف الزوج عن زوجته والزوجة عن زوجها ؟ وهل يبعد أن مثل هذه الطرق مما يتعلم وتطلب له الأساتذة ونحن نرى أن كتبا

الفت ودروسا تلقى لتعليم اساليب التفريق بين الناس لمن يريد أن يكون من عمال السياسة فى بعض الحكومات ؟ وقد يكون ذكره المرء وزوجه من قبيل التمثيل واظهار الأمر فى أقبح صورة أى بلغ من امر ما يتعلمونه من ضروب الحيل وطرق الافساد أن يتمكنوا به من التفريق بين المرء وزوجه · وسياق الآية لا يأباه ، وذكر الشياطين لا يمنعنا من ذلك بعد أن سمى الله خبثاء الانس المنافقين بالشياطين فقال : ((**واذا خلوا الى شياطينهم**)) وقال : ((**شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض**)) وسحر سحرة فرعون كان ضربا من الحيلة ، ولذلك قال : ((**يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى**)) وما قال انها تسعى بسحرهم قال يونس تقول العرب ما سحرك عن وجه كذا ، أى ما صرفك عنه · ولو كان هؤلاء يقدرون الكتاب قدره ويعرفون من اللغة ما يكفى لعاقل أن يتكلم ما هذروا هذا الهذر ولا وصموا الاسلام بهذه الوصمة · وكيف يصح ان تكون هذه السورة نزلت فى سحر النبى صلى الله عليه وسلم مع انها مكية فى قول عطاء والحسن وجابر ، وفى رواية كريب عن ابن عباس · وما يزعمونه من السحر انما وقع فى المدينة لكن من تعود القول بالمحال ، لا يمكن الكلام معه بحال ، نعوذ بالله من الخبال(١) ·

مناقشة رأى الأستاذ الامام فى النفاثات فى العقد :

رأيت مما نقلته من تفسير الأستاذ الامام للسحر أنه ركز اهتمامه على ثلاثة أشياء هى :

١ ــ دفع السحر عن النبى صلى الله عليه وسلم ·

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٨٦ ·

٢ ـ التهوين من قيمة الحديث الوارد فى سحره صلى الله عليه وسلم والتشكيك فى صحته ٠

٣ ـ حمل السحر على الأمور المعنوية والافساد بين الناس ٠
ونحن سنناقش هذه الأمور الثلاثة ٠

هل سحر النبى صلى الله عليه وسلم :

ونحن معه فى أنه صلى الله عليه وسلم لم يسحر السحر الحقيقى الذى يصل به الى الجنون كما قال الكفار « معلم مجنون » ٠

ولكنا نرى أنه أصيب بنوع من الهم أو الثقل والكدر امتحانا له عليه السلام ٠ فقد تعرض الأنبياء والمرسلون لكثير من المحن والشدائد ، فقد خرج آدم من الجنة ، ومكث نوح مع قومه مئات السنين ويئس منهم ، والقى فى النار ابراهيم ، وأضجع للذبح اسماعيل ، وابتلع الحوت يونس ، وابتلى أيوب وكان رمزا للبلاء والصبر ، وذهب اليهود ليصلبوا المسيح ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ٠

وتعرض النبى صلى الله عليه وسلم لكثير من البلاء فى مكة ، فخنقه عقبة بن أبى معيط ٠ وحوصر فى شعب بنى هاشم ٠ وذهب الى الطائف وبها قبائل ثقيف فلقى أشد وأعنت مما لقى من أهل مكة ، ومكر به الذين كفروا ليقتلوه أو يثبتوه أو يخرجوه فنجاه الله بالهجرة ٠ وقد حارب وقاتل وأصيب فى أحد وانخدش شقه ودخلت حلقتان من المغفر فى وجنته وتخضب وجهه الشريف بالدم ٠

فليس ببعيد أن يصيبه بعض الأذى والهم والثقل من صنيع

هؤلاء اليهود امتحانا من الله له ورفعا لدرجاته كما قال عليه الصلاة والسـلام « **اشـدكم بلاء الأنبيـاء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثـل يبتلى الرجل على حسب دينه فاذا كان قويا فى دينـه قوى به البلاء واذا كان رقيقا فى دينـه رق به البلاء ولايزال البلاء يصيب المؤمن حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة** » فكانت اصابته من اليهود امتحانا له وابتلاء له عليه السلام واملاء لأعدائه حتى يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ٠

وأما أن القرآن نفى عنه السحر ، فنحن سلمنا مقدما أنه لم يكن سحرا أثر فى عقله ٠ وهذا ما نفاه القرآن ولكن نقول انه أصيب عليه السـلام بنوع من المرض ، ولا نقص فى ذلك ولا عيب ٠ فان المرض جائز على الأنبياء وكذلك الاغمـاء ، فقد أغمى عليه صلى الله عليه وسلم ٠ وأصيب كثير من الأنبيـاء والمرسلين بالقتل والضرب والشتم والحبس ، وقال الله تعالى : « **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل** » ٠ فليس ببدع أن يبتلى عليه الصلاة والسلام بنوع السحر لا يؤثر فى عقله وانما يؤثر فى بدنه ٠ وهـذا هو قول صاحب الكشـاف فى تفسـير قوله تعـالى : « **وقال الظـالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا** » : « سحر فغلب على عقله أو ذا سحر وهو الرئة عنوا أنه بشر لا ملك ويرشحه أن الآية السابقة تقول « **وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق** » أى أنه بشر مثلكم »(١)٠ فالقرآن نفى عنه أن يكون أصيب بسحر أو جنون يفسـد عقله بحيث لا يدرى ما يقول ، فأما لو أصيب فى بدنه بمرض من أمراض البدن فان ذلك لا يمنع من اتباعه ٠

وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض البدن ـ وانما قذفوهم بما يحذرون سفهاءهم من اتباعهم ، وهو أنهم سحروا حتى صاروا

---

(١) الكشاف جـ٣ ص ٨٩ ٠

لا يعلمون ما يقولون بمنزلة المجانين ولهذا قال تعالى (١٧ : ٤٨): ((انظر كيف ضربوا الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا)) مثلوك بالشاعر مرة والساحر أخرى ، والمجنون مرة والمسحور أخرى. فضلوا فى جميع ذلك ضلال من يطلب فى تيهه وتحيره طريقا يسلكه فلا يقدر عليه . فانه أى طريق أخذها فهى طريق ضلال وحيرة فهو متحير فى أمره لا يهتدى سبيلا ، ولا يقدر على سلوكها ، فهكذا حال أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم معه ، حتى ضربوا له أمثالا ، برأه الله منها ، وهو أبعد الناس عنها ، وقد علم كل عاقل أنها كذب وافتراء وبهتان »(١) .

حديث السحر :

وأما الأمر الثانى : الذى أراد الأستاذ الامام أن يثبته ، وهو التهوين من قيمة حديث سحره عليه الصلاة والسلام والتشكيك فى صحته .

فنحن ننقل ما يثبت صحة الحديث ويؤيد قوته :

١ ـ روى البخارى ـ فى باب هل يستخرج السحر ـ من حديث ابن عيينة قال : « أول من حدثنا به ابن جريج يقول : حدثنى آل عروة عن عروة . فسألت هشاما فحدثنا عن أبيه عن عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سحر حتى كان يرى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن - قال شعبان وهذا أشد ما يكون من السحر . اذا كان كذا فقال : يا عائشة ، أعلمت أن الله قد أفتانى فيما استفتيته فيه : أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى فقال الذى عند رأسى للآخر : ما بال الرجل ؟ قال : مطبوب قال : ومن طبه ؟ قال لبيد بن الأعصم رجل من بنى زريق حليف

---

(١) تفسير سورة الفلق للامام ابن القيم الجوزية .

اليهود وكان منافقا . قال : وفيم ؟ قال : فى مشط ومشاقه . قال وأين ؟ قال : فى جف طلع ذكر ، تحت زاعوفة فى بئر ذروان . قال فأتى البئر حتى استخرجه . فقال هذه البئر التى رأيتها وكأن ماءها نقاعة الحنـاء ، وكأن نخلهـا رءوس الشـياطين . قال : فاستخرج قالت . فقلت : أفلا ــ اى تنشرت ــ ؟ قال : أما الله فقد شفانى وأكره أن أثير على أحد من الناس شرا » .

« هذا هو الحديث الذى رواه البخـارى ، وهو ثابت عند أهل العـلم بالحـديث لا يختلفون فى صحتـه ، وقـد اتفق أصحـاب الصحيحين على تصحيحه . ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحـديث بكلمة واحدة ، والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقهاء ، وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله وأيامه »(١) .

٢ ــ وقد قال أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد بن حباب عن زيد بن أرقم قال : « سحر النبى صلى الله عليه وسلم رجل من اليهود فاشتكى لذلك أياما . قال : فأتاه جبريل فقال : ان رجلا من اليهود سحرك ، وعقد لذلك عقدا . فأرسل رسـول الله صلى الله عليه وسلم عليا فاستخرجها فجـاء بها . فجعل كلمـا حل عقدة وجد لذلك خفة فقـام رسـول الله صلى الله عليه وسلم كأنما نشط من عقال فما ذكر ذلك لليهود ، ولا رآه فى وجهه قط » .

٣ ــ وقال ابن عباس وعائشة : « كان غلام من اليهود يخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فدنت اليه اليهود . فلم يزالوا حتى اخذ مشاط رأس النبى صلى الله عليه وسلم وعدة أسـنان

(١) التفسير القيم لابن القيم ــ سورة الفلق .

من مشطه · فأعطاها اليهود فسحروه فيها · وتولى ذلك لبيد بن الأعصم رجل من اليهود ، فنزلت هاتان السورتان فيه » ·

قال البغوى : « وقيل كانت مغروزة بالابرة ، فأنزل الله عز وجل هاتين السورتين وهما احدى عشر آية · سورة الفلق خمس آيات · وسورة الناس ست آيات فكلما قرأ آية انحلت عقدة ، حتى انحلت العقد كلها · فقام النبى صلى الله عليه وسلم كأنما نشط من عقال » قال وروى أنه لبث فيه ستة اشهر ، واشتد عليه ثلاثة أيام فنزلت المعوذتان ·

وأنت ترى أنه لو استمر سحره عليه الصلاة والسلام ستة أشهر لكان ذلك سببا فى نفرة الناس وتشهير المشركين به فى هذه المدة · حتى يبتعد عنه المسلمون ·

وهذا يؤيد أن الذى استمر به بعض الهم الذى يصيب البدن ابتلاء له عليه السلام ورفعا لدرجاته ·

واذا صح الحديث السابق وأنه نزل من أجل تلك العقد احدى عشرة آية · كان المراد بالنفاثات فى العقد الساحرات حقيقة ، فالحمل على الحقيقة أولى من الحمل على المجاز خاصة وأن حديث ابن عباس وعائشة رشح الحمل على الحقيقة وهى أن النفاثات فى العقد هن الساحرات ·

موافقة رأى الامام للزمخشرى :

والزمخشرى ـ من قبل الأستاذ الامام ـ قد أنكر حقيقة السحر ونفى تاثيره وأول النفاثات فى العقد وأجاب عن معنى الاستعاذة منهن بواحد من ثلاثة ·

« أحدها أن يستعاذ من عملهن الذى هو صفة السحر ومن اثمهن فى ذلك ٠

والثانى أن يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن وما يخدعنهم به من باطلهن ٠

والثالث أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن ويجوز أن يراد بهن النساء الكيادات من قوله ان كيدهن عظيم تشبيها لكيدهن بالسحر والنفث فى العقد أو اللاتى يفتن الرجال بتعرضهن لهم وعرضهن محاسنهن كأنهن يسحرنهم بذلك »(١) ٠

وقد علق على كلامه هذا أحمد بن المنير بقوله : « ان مذهب المعتزلة انكار حقيقة السحر ، على أن الكتاب والسنة قد وردا بوقوعه والأمر بالتعوذ منه ٠ وقد سحر صلى الله عليه وسلم فى مشط ومشاطة فى جف طلعة ذكر والحديث مشهور وانما الزمخشرى استفزه الهوى حتى أنكر ما عرف وما به الا أن يتبع اعتزاله ويغطى بوجهه كف الغزالة ٠ ولو فسر غيره النفاثات فى العقد بالمتخيلات من النساء ولسن ساحرات حتى يتم انكار وجود السحر لعده من بدع التفاسير ٠

ونستطيع أن نوجز آراء الامام فى السحر والنفاثات فى العقد فيما يلى :

١ ـ السحر ليس جزءا من العقيدة الدينية بل هو من الأمور العادية والعلوم الانسانية متروك الى بحوث الناس وتقدم معلوماتهم عنه وتوضيحهم لحقائقه ٠

---

(١) تفسير الكشاف جـ٤ ص ٢٤٤ مطبعة مصطفى محمد سنة ١٣٥٤ هـ ٠

٢ ـ جاء ذكر السحر فى سورة البقرة ولا يستلزم ذلك اثبات ما يعتقد النـاس منه · فالقرآن قـد يأتى فى الحـكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين أو المحكى عنهم وان لم تكن صحيحـة فى نفسها كقوله تعالى : ((**حتى اذا بلغ مطلع الشمس**)) ·

٣ ـ جاء ذكر السحر فى القرآن فى مواضـع متعددة ومجموعها يدل على أن السحر أحد شيئين :

(أ) اما حيلة وشـعوذة ·

(ب) واما صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس ويجهلهـا الأكثرون فيسمون العمل بها سحرا لخفـاء سببه ولطف مأخذه ويمكن أن يعد منه تأثير نفس فى نفس أخرى ·

٤ ـ السحر تخييل وخداع للأعين وليس حقيقة ولذلك قال سبحانه : ((**يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى**)) ·

فسحرة فرعون قد اسـتعانوا بالزئبـق على اظهار الحبـال والعصى بصورة الحيات والثعابين وتخييل أنها تسعى ·

٥ ـ اعتاد من يتخذ السحر وسيلة ان يستعين بأسماء الجـان والشياطين فيعتقد الدهماء انه يستعين بهم ويلقى ذلك فى روعهم وهذا الوهم يصنع صنع السحر ·

ولا يستطيع الساحر أن يؤثر الا فى شخص عزيمتـه هبـاء ونفسه هواء وعنده قابلية لتأثير غيره فيه ، فينتهز ذلك السـاحر ليوهمه بما يشاء ·

الامام ينفى أن يكون الرسول قد سحر :

وهـذا موجز لأدلتـه :

١ ــ القرآن نفى السحر عنه صلى الله عليه وسلم فهو ليس بمسحور قطعـا ٠

٢ ــ حديث سحره عليه السلام حديث آحاد والآحاد لايؤخذ بها فى باب العقائد لأن عصمة النبى صلى الله عليه وسلم من تأثير السحر فى عقله عقيدة من العقائد ولا يؤخذ فى نفيها عنه الا باليقين٠ فعلينا أن نفوض الأمر فى الحديث ولا نحكمه فى عقيدتنا ونأخذ بنص الكتـاب ٠

٣ ــ نافى السحر بالمرة لا يصح أن يكون مبتدعا لأنه لم يأت شىء يوجب الايمـان بالسحر على الوجه الذى يعتقد به الوثنيون فى كل ملة ٠

٤ ــ المراد بالنفاثات فى العقد نفث المفسـدين سمومهم بالكذب والغيبة والنميمة وقالة السـوء فى عقد الصـلات بين الناس حتى يفكوا عرى الزوجيـة والمودة والرحمة وغيرها ٠ وشر هذا فى الناس أكثر جدا من شر من يقولون انهم سحرة ٠

وقد ناقشت رأى الامام فى شيئين :

١ ــ السـحر عمومـا ٠

٢ ــ سحر الرسول صلى الله عليه وسلم خصوصا ٠

فالامام يريد أن ينفيهما ٠ وقد رأيت ثبوتهما ٠

(أ) ثبوت السـحر :

١ ــ السحر ثابت بالحس والمشـاهدة ونص القرآن وتواترت به الآثار عن الصحابة والسلف وأهل التفسـير والحديث والفقهاء ، والسحر يؤثر مرضـا وثقلا وعقدا وحبا وبغضا ونزيفا وغير ذلك

من الآثار الموجودة والتى تعرفهـا عامة الناس ، وكثير قد علمـه ذوقا بما أصيب به ٠

٢ ـ بين الامام أن السحر تخييل للأعين ٠

وقلنا فى الرد عليه اذا جاز على الساحر أن يسحر جميع عيون الناظرين وبغير احساسـهم حتى يروا السـاكن متحركا والمتحرك ساكنا جاز ان يغير صفات النفس حتى يجعل المحبوب اليها بغيضـا والبغيض محبوبا ٠

٣ ـ نقل الامام أن السحرة فعلوا بالحبـال ما أوجب حركتها ومشيها مثل الزئبق وغيره حتى سعت وهذا مردود من وجوه ٠

(أ) لو كان عمل السحرة ينحصر فى دهن الحبال بالزئبق لمـا احتيج الى القاء العصـا لابتلاع الحبال بل كان يكفى اخراج ما فى الحبال من الزئبق وغيره ٠ وذلك يكون أوقع فى ابطـال عمل السحر ٠ وتبيين أن عملهم من الوهن والضعف بحيث يكفى لابطاله ان يتقدم أى انسان فيزيله من على الحبال ٠

(ب) قال تعالى حكاية عن السحرة : ((**فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم**)) ٠

فبين سبحانـه ان أعينهم سحرت وذلك اما أن يكون لتغيير حصل فى المرئى أو لتغيير حصل فى الرائى ٠

والساحر يفعل هذا وهذا ٠ فتـارة يتصرف فى نفس الرائى واحساسه حتى يرى الشىء بخلاف ما هو به ٠ وتارة يتصرف فى المرئى باستعانته بالأرواح الشيطانية حتى يتصرف فيها ٠

(ب) ثبوت سحره عليه أفضل الصلاة والسلام :

١ ــ ثبت سحره عليه الصلاة والسلام بالروايات الصحيحة المتعددة ٠

٢ ــ قال الامام ان سحره عليه السلام يخالف القرآن لأنه قد نفى عنه السحر ٠ والجواب أن القرآن نفى عنه السحر الذى يصيب عقله بالخبل والجنون ٠ قال الكشاف المسحور الذى لا يتبع هو الذى فسد عقله بحيث لا يدرى ما يقول فهو كالمجنون ولهذا قالوا فيه (٤٤ : ١٥) ((**معلم مجنون**)) ٠

والحديث أثبت السحر الذى يصيب الجسم بنوع من الثقل أو المرض بحيث لا يمنع ذلك من اتباعه عليه الصلاة والسلام ، فلا تعارض بينهما ٠

٣ ــ قال الامام ان سحر الأنبياء ينافى حماية الله لهم ٠

والجواب أنه سبحانه يمتحن عباده وأولياءه وأصفياءه كما يمتحن أنبياءه ورسله بايذاء قومهم لهم بالضرب أو القتل أو السحر الذى يوهن الجسم ٠ رفعا للأنبياء فى درجاتهم واملاء للكفار حتى تمتلىء صاعهم فيستحقوا ما اعد لهم ٠

ويتضح لك أن الخلاف بينى وبين الامام ليس على سحر الرسول عموما بل على سحر موجه الى جسم الرسول دون عقله ٠ فبيننا عموم وخصوص مطلق ، فقد اجتمعنا على نفى السحر عن عقل الرسول صلى الله عليه وسلم وانفرد الامام بنفى السحر عن الرسول فى بدنه ٠ وانفردت أنا باثبات سحر الرسول فى بدنه عليه الصلاة والسلام ٠

٤ ــ ومذهب الأشعرية ان للسحر تأثيرا حقيقيا وليس كله حيلا ومنه أنه أثر فى جسم النبى صلى الله عليه وسلم وخياله دون

عقله وروحه فكان يخيل اليه أنه اتى نساءه ولم يكن أتاهن ولم يتجاوز هذا الحد(١) ٠

وذلك ما يعبر عنه فى ايامنا بالرباط (وهو عدم القدرة على اتيان النسـاء) وذلك أمر يتعلق بالجسم والخيال لا بالعقل والروح ٠

وأرى أن الأستاذ الامام كان متأثرا فى نفيه السحر على الرسول صلى الله عليه وسلم بعدة أمور ٠

١ - محاولة اظهار الاسلام أمام المستشرقين والمتمدينين بمظهر الدين العلمى المنهجى الذى لا يعترف بالسحر ولا بالخرافة ٠

٢ - وجد الامام فى آراء المعتزلة تراثا عقليا وذخيرة فكرية فهم يرفضون الايمان بالسحر والكهانة والشفاعة وكرامات الأوليـاء ٠

ويؤولون النصوص الدينية التى تثبتها ، وقد سار الامام على طريقهم ٠

٢ - لما كان هدف الامام من انكار السحر محاربة الخرافة واظهار الاسلام بأنه دين العقل ، واعترض طريقه حديث صحيح قال انه حديث آحاد « والحديث الذى يصل الينا عن طريق الآحاد انما يحصل الظن عند من صح عنده أما من قامت الأدلة على أنه غير صحيح فلا تقوم به حجة ٠ وعلى فرض صحته يؤول أو يفوض الأمر فيه »(٢) ٠

« وغره ان المقلدين يسلمون له بالتأويل ولو متكلفا ، ونسى

---

(١) تفسير المنار جـ٩ ص ٥٩ حاشية ٠
(٢) تفسير جزء عم ص ١٨٤ ٠

أن أعـداء الاسـلام ومستقلى الفكر من غيرهم لا يقبلون التأويل المتكلف الذى لا يطمئن له القلب »(١) ٠

سند حديث السحر :

اذا رجعنـا الى كتب الحـديث تجد أن حديث السحر الذى ذكرناه مروى بأصح الأسانيد ٠ فان سنده هشام بن عروة عن ابيه عن عائشة ٠ وهذا السند من أصح الأسانيد المروية عن عائشـة (رضى الله عنها) ان لم يكن أصحها »(٢) ٠

والعلماء يقسمون السنة باعتبار سندها ثلاثة أقسام :

١ ـ المتواتـرة :

وهى ما رواه فى العصور الثلاثة جمع تحيل العادة تواطؤهم على الكذب لكثرتهم وتباعد أماكنهم وهـذا النوع قطعى الثبوت عن النبى صلى الله عليه وسلم فيفيد علمـا يقينا ٠ ويجب العمل به ويكفر جاحده ومنه كثير من السنن الفعلية : كالذى روى فى كيفية الوضوء والصلاة والصـوم والحج وغير ذلك مما يطلع عليه جمهور الناس فينقله جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب الى أمثالهم ثم ينقله عن هؤلاء مثليهم ويندر أن يقع هـذا فى السنن القولية وقد مثلوا له بقوله صـلى الله عليه وسـلم (من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده فى النـار) ٠

---

(١) تفسير المنار جـ٩ ص ٥٩ حاشية ٠

(٢) كتاب الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث للحافظ ابـن كثير ، تحقيق الاستاذ احمد محمد شاكر ٠

٢ ــ المشهورة أو المستفيضة :

وهى ما رواه من الصحابة عدد لا يبلغ حد التواتر ثم تواتر فى عهد التابعين وتابعيهم ، وهو عند الحنفيــة يفيد ظنا قريبــا من اليقين لأن الأمة تلقته فى عهد التابعين بالقبول • فكان قطعى الثبوت عن الصحابى • واذا لم يكن متواترا فى عهد الصحابــة فالراجح فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نالوا شرف الصحبــة التنزه عن وصمة الكذب • فيجب العمــل به ولا يكفر جاحده وبه يخصص عام الكتــاب ويقيد مطلقه وهو كثير فمنه حديث « انمــا الأعمال بالنيات » • وحديث « لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها الخ » • وهو مخصص لعموم قوله تعــالى : **((وأحــل لكم ما وراء ذلكم))** •

٣ ــ خبر الآحــاد :

وهو ما رواه عدد لا يبلغ حد التواتر فى العصر الأول وغيره • ولا عبرة بما بعد العصــور الثلاثة وهو لا يفيد علما بل ظنا ، ويجب العمل به متى تحققت شروط قبوله •

شروط قبول الخبر :

لقبول خبر الآحاد شروط فى الراوى وشروط فى لفظ الخبر وشروط فى معناه •

فيشترط فى الراوى لصحة التحمل التمييز والضبط : فلا يصح تحمــل الصبى غير المميز ومن فى معنــاه لعدم ضبطه لمــا يســمع أو يرى •

ويشترط فى الراوى لصحة الأداء :

(أ) البــلوغ •

(ب) الاســلام ·

(ج) العــدالة ·

(د) الضــبط ·

ويشترط فى لفظ الخبر ألا يحذف الراوى منه ما يتوقف تمام المعنى عليه ، ففى مثل حديث عبـادة بن الصامت « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن بيع الذهب بالذهب ·· الا سواء بسواء عينــا بعين » ·

لا يصح للراوى أن يحذف الاستثناء الأخير والا أفسد المعنى ·

ويشترط فى معنى الخبر ألا يعارضــه ما هو أقوى منه من آية أو حديث متواتر أو مشهور · واشترط الكرخى وبعض الحنفية ألا يكون موضــوع الحديث مما تعم به البلوى ، اذ لو كان كذلك لذاع واشتهر ، فعدم ذيوعه حينئذ يورث شكا ·

والأكثرون على قبول خبر الواحد ولو كان فيما تعم به البلوى لاطلاق النصــوص الدالة على وجوب العمل بالخبر واتفاق الصحابة على العمل به فى ذلك(١) ·

والأستاذ الامام يعمل بالسنة العملية والمشهورة · ويقبل خبر الآحاد بالشروط السابقة ويضيف اليها أن يكون معناه مما يقبله المجتهد ويرى لنفسه حق الاجتهاد · وحق قبول الخبر ورفضه »(٢)·

وقد وضحت أن معنى حــديث السحر لا يعارض القرآن لأن حديث السحر خاص بالجسم والخيال ، والقرآن بالعقل والروح ،

---

(١) اصول التشريع الاسلامى ص ٤٢ للاستاذ على حسب الله ·
(٢) تفسير جزء عم ص ١٨٤ ·

« أو لأن اليهود عملوا سحرا وظنوا انه سيؤثر فى عقله وروحه عليه السلام كما يؤثر فى سائر البشر ، فلم يؤثر السحر الا فى بدنه ، فلا يلزم من صحة الحديث كونه عليه السلام أصيب بالسحر المرادف للجنون »(١) ٠

وأخيرا نرى أن فى موضوع السحر تعبيرات للامام جانبها الصواب :

١ ـ واذا ثبت أن بعض السحر علم يعتمد على الحقائق ، كان كلام الامام مجانبا للصواب وما بنى عليه مجانب للصواب أيضا »(٢) ٠

٢ ـ قال الامام ان تعلم السحر كفر ، والأولى أن يقال ان تعلم السحر للعمل به كفر ٠ أما تعلمه للرد على المبطلين فليس بكفر ، لأن الأعمال بالنيات ٠ ولأن كفر السحرة مصدره اعتقادهم أن النجوم والكواكب أو غيرها قادرة على جلب نفع أو دفع ضر ٠ وذلك الاعتقاد هو سبب الكفر لا تعلم السحر فى حد ذاته ٠

ونضرب مثلا بالسم ، فان تعلم صناعته للدواء حلال ولكن تعلم صناعته لقتل انسان حرام ، كما أن تعلم تركيب السم فى حد ذاته مباح ، فالأصل فى الأشياء الاباحة ٠

٣ ـ قال الامام : ان ذكر القرآن للسحر فى سورة البقرة لا يستتبع اعترافه به أو التسليم بأنه علم لا خرافة « فالقرآن

---

(١) انظر تفسير الجصاص المسمى احكام القرآن عند الكلام على قوله تعالى : واتبعوا الشياطين على ملك سليمان ٠٠ الآية ٠

(٢) انظر مجلة الازهر المجلد ٢٥ (٤) عدد ربيع الآخر ١٣٧٣ (٨ ديسمبر ١٩٥٣) نفحات من القرآن سحر هاروت وماروت لفضيلة الشيخ عبد اللطيف السبكى عضو جماعة كبار العلماء ٠

يحكى من عقائد السابقين الحق والباطل ، وقد يأتى فى الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين وان لم تكن صحيحة فى نفسها لقوله تعالى : ((**كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس**))(١) •

وعلماء الأصول يقولون : « ان القرآن اذا حكى أمرا لا يقره أو ذكر شيئا يوهم غير المراد ، فانه يتبعه بما يشير الى بطلانه ، أو يأتى بما يدفع الوهم وينفى الاحتمال • كما فى قوله تعالى : **وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها الا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون**)) •

((**وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم**)) • ذلك لأن الله أنزل كتابه لارشاد الناس وسماه فرقانا وهدى ونورا وجعله بيانا وتبيانا وبرهانا • فلا يناسبه ــ وهذا شأنه ــ أن يحكى ما ليس بحق ثم لا ينبه عليه ، فان السكوت عنه يعد اقرارا له • ومن هنا نشأت القاعدة الآتية :

قاعدة : ما حكى فى القرآن ــ اذا ورد معه ما يفيد رده فهو باطل لا يصح الاستنباط منه • واذا لم يرد معه رد له فهو صحيح معتد به(٢) •

فالامام يرى أن ما حكى فى القرآن ولم يرد معه ما يفيد رده لا يلزم أن يكون صحيحا • والقاعدة أنه يكون صحيحا معتدا به ، فحكاية القرآن لتعليم السحر ، تفيد أن السحر حقيقة فى حذا ذاتها •

---

(١) تفسير المنار جا ص ٣٩٩ •
(٢) اصول التشريع الاسلامى للاستاذ على حسب الله ص ٢٨ و ٢٩ •

(ج) تقديس الأولياء :

جاهد الأستاذ الامام فى تنقية الاسلام من الشوائب التى طرأت عليـه · ولذلك حـارب النزعات الصـوفية المتطرفة · وقد تطور الأستاذ الامام نفسه فى موقفه من الصوفية ·

فبينما نجده فى نشأته صوفيا سلبيا يميل الى كثرة الذكر والعبادة ، ويعتمد على بعض اشـارات عابرة فى توجهه مثل حكايته عن نفسه حينما كان يدرس فى طنطا ، قال : « فرأيت أمامى شخصا يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجـاذيب فلمـا رفعت رأسى اليه قال ما معناه : ما أحلى حلوى مصر البيضـاء : فقلت : وأين الحلوى التى معك ؟ فقـال : سبحان الله من جد وجد · ثم انصرف، فعددت ذلك القول منه الهاما ساقه الله الى ليحملنى على طلب العلم فى مصر دون طنطا »(١) ·

وفى القاهرة اتصل الأستاذ الامام بالسيد جمال الدين · وهو رجل يفهم الاسـلام على أنه الرباط الوثيق بين المسـلمين ، وأن العمل له والجهاد فى سبيله واجب حتى يخلص المسلمون من الذل والاستعمار ويكونون جامعة اسلامية يستردون بها مجدهم القديم وعزهم الغابر ·

وقد تأثر الأستاذ الامام بجمال الدين تأثرا بالغا وبدأ ينزع عن التصـوف السلبى الى المعـانى الأخلاقيـة والسـلوك العلمى والجهاد بلسانه وقلمه فى سبيل اصـلاح الأمة وتربية أخلاقهـا وتقويم سلوكها ·

وقد تأثر كذلك بابن تيمية وابن القيم وتلميذهما محمد بن

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ٤ ص ٢٤ ·

عبد الوهاب فى محاربة البدع والخرافات والطقوس الدينية البعيدة عن الروح الأصيلة للاسلام(١) .

فحمل حملة شعواء على تقديس الأولياء والتضرع اليهم وسؤالهم قضاء الحاجات ، وحمل على المتصوفة والادعياء الذين يتكاسلون عن العمل(٢) والانتاج . وذكر انهم من أسباب تأخر المسلمين وضعفهم ، كما هاجم مذهب الجبريين وبرأ الاسلام منهم لأن المسلم الجبرى عنصر سلبى لا يعمل ولا يكافح ولا يأخذ بأسباب الحياة ، وبين ان الاسلام دين العمل والجد لا دين الكسل والتواكل « والاحتجاج على ترك العمل بالقدر من عقائد الملحدين . وقد جاء الكتاب الكريم بتشنيع اعتقادهم ، والنعى عليهم فيه . وقد حكى لنا ما كانوا يقولون من نحو « لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء » فلا يسوغ لأحد منا وهو يدعى أنه مؤمن بالقرآن ، أن يحتج بما كان يحتج به المشركون . من يزعم أنه متوكل من المتظاهرين بالصلاح فهو كاذب زنديق لأنه انما يدعى التواكل اذا طولب بأمر فيه مشقة عليه أو يجد فى نفسه عجزا عنه ، ولاسيما اذا كان فى مصلحة عامة . فهو يرضى بما يجد ، فاذا رجع أولئك المتبتلون الى منافعهم الخاصة ، لم تجد للتوكل فى نفوسهم أثرا . فهم يغشون ويخادعون ويحتالون لتحصيل ما به يعيشون أو ما به على الناس يظهرون وحينئذ لا يرجعون الى التواكل فهم كذبة لا يصح الاقتداء بهم . وكفانا قدوة وخير أسوة سيد

---

(١) مختصر الفتاوى لابن تيمية : تأليف الشيخ بدر الدين محمد بن على الحنبلى من ص ٢٤٠ ـ ٢٤٥ وانظر مذاهب التفسير الاسلامى ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ص ٣٦٣ .

(٢) المنار جزء ١ ص ١٨٨ تفسير آية « فلا تجعلوا لله أندادا وانتم تعلمون » .

المتوكلين صلى الله عليه وسلم فانه كان على شدة توكله واعتصامه بالاستعانة بالله جل شأنه ، لا يفتر عن العمل فى الدعوة الى الحق وحمل الناس عليه .

يحتج بعض الناس على كسلهم بقوله صلى الله عليه وسلم : لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا .

« ويفسرون ذلك بأننا لو القينا اثقالنا على الله وتركنا أسباب عيشنا فى كسبنا ومأكلنا ومطبخنا ومرقدنا لرزقنا كما ترزق الطير تابث فى أعشاشها وتفتح أفواهها فتصبح خماصا وتمسى بطانا . يظنون أن هذا الحديث حث على البطالة وترك العمل . والكلام فى معنى حق التوكل مظنة ترك السعى بالمرة ، وهو خطأ محض . فالمراد من حق التوكل أن يعتمد الانسان على الله سبحانه وتعالى مع اتباع سنته التى سنها فى الطلب فيحصل الطالب من أسباب مطلوبة ما جعله الله سببا ويدقق النظر فى ذلك ما شاء حسبما طالبه الله تعالى به ، ثم بعد أن يستعمل الأسباب ينادى ربه فى سره : أن قد أتيت بما فى استطاعتى على مقدار ما وهبتنى وما بقى مما لا أعلم ولا أملك فهو فى يدك فأغنى بقدرتك ولا تحرمنى من معونتك ، ثم يمضى فى عمله . هذا هو حق التوكل . وقد أشار اليه صلى الله عليه وسلم « تغدو خماصا وتروح بطانا » فانه أراد بذلك أن الطير انما تسير فى تحصيل معاشها على الالهام الذى أودعه الله فيها، ألهمها معرفة الأماكن التى فيها أقواتها ، كما ألهمها الغدو الى نلك الأماكن لتصيب أقواتها منها ، فهى تعمل بارادتها على ذلك الشعور الذى منحه الله اياها . فحق التوكل لا يتم لنا الا بان نجرى فى أعمالنا على ما يقوم عندنا مقام الالهام عند الطير . والذى يقوم عندنا مقام الالهام هو العقل ، فلا نكون متوكلين حق

التوكل حتى نستعمل عقولنا فى الوسـائل التى توصلنا الى بلوغ الغاية من أعمالنا وأن نجيد الاستعمال حتى لا يقع لنا ضـلال فى طرق الوصـول الى المقصود ، فالاعتماد على الله بهذه الطريقـة كافل لنجاح الأعمال »(١) .

مفسرون متأثرون بالامام فى حربه للبدع وتقديس الأولياء

١ ـ رشـيد رضـا :

وقد سار فى طريق الأستاذ الامام تلميذه الوفى السيد الأستاذ محمد رشـيد رضـا وقد كان أصرح من اسـتاذه محمـد عبده ، اذ وجه أعنف ثوراته من بين جميـع البدع الى هـذا القالب من التقديس الذى هو عريب على روح الاسـلام الأول وكان يدمغه دون انقطاع بأنه وثنية تسربت الى الاسـلام . « ولكن وجد أيضا فى مجرى مشروعاته الدينية فرصـة للاقتناع بمبلغ الصعوبة فى انتزاع هذه العادة المتأصلة فى مجـال اوسـع كثيرا من دائرة الشـعب الجاهل . واقتلاعها من المحصول الدينى عند السذج من المسلمين . وقد ألقى سلسلة من المحـاضرات فى مسجد الحسين وتعرض فى احدى محاضراته الى نقد الحديث « لو حسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه » وهو حديث حصـل كثيرا الانتفاع به فى اثبات جواز تقديس الأشياء التى يظن بها القداسـة . واثبت السيد محمد رشيد رضـا لحلقة المستمعين اليه أنه موضـوع ، ثم تبع هذه النظرية باستخدام تطبيق عملى ، ففى فناء هذا المسجد تخص العقيدة الشعبية أحد الأعمدة المرمرية القائمـة به بتقديس خاص . اذ يقال أن القطب أى كبر ديوان الأولياء يظهر عنده فى أوقات معلومة ويؤدى الصـلاة الى

---

(١) كتاب الهلال : دروس من القرآن الكريم للأستاذ الامام محمد عبده العدد ٩٦ ـ شعبان ١٣٧٨ مارس ١٩٥٩ ص ١٣٥ .

جانبه ، فهذه العلاقة بذلك الشخص الذى يبلغ أسمى مراتب القداسة والذى يسعى بين أظهر المسلمين دون أن يعرفه أحد تعير هـذا العامود مكانة من التقديس غير طبيعية تماما وهذه مزية يشترك فيها هـذا العامود مع غيره من الأشياء التى تتعلق بها مثل هـذه الخرافة ، ويمنى الناس أنفسهم بفوز كبير من أجل الصلاة عند هذا العامود أو التمسح به وهو مثال آخر للعقيدة المنتشرة بما للمسح والتمسح من قوة سحرية ٠

وفى جوار هذا الموضع المقدس وجد المحاضر فى نفسه الشجاعة للقصد الى تعليم الناس ان هذه المـادة الحجرية لا تستطيع نفعـا ولا ضرا وان النافع الضـار هو الله وحده « ولكنـه جعل للنفع والضر أسبابا ، وهدانا لاجتناب الضـار واجتلاب النافع بما وهب لنا من العقل والحواس والدين ، وعم اللغط بذلك حتى نصرنا الله رب العالمين »(١) ٠ وقد عقد السيد رشيد رضـا فصلا كاملا عن الوسيلة عند تفسيره لقوله تعـالى : ((**يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة**)) ٠ وبين أنها العمل الصـالح والطرق التى أمر الدين باتباعهـا ، ولا يجوز التوسل بالأبدال والأولياء كمـا يفعل الناس ٠ فالعمدة فى النجاة والفلاح تزكية النفس بالايمـان والفضائل والأعمال الصالحة فبذلك تصلح نفوسهم وتكون أهـلا لرضوان الله تعالى ٠ وأما من دنس نفسه بالشرك والفسق والفساد فى الأرض فلا يكون أهلا لمرضاة الله ودار كرامته ٠ فلا يقبل منه فداء ولا تنفعه شفاعة الشافعين»(٢) ٠

---

(١) مذاهب التفسير الاسلامى ترجمة دكتور عبد الحليم النجار ص ٣٦٥ والمنار جـ٦ من صفحة ٣٦٨ الى ٣٧٩ ٠

(٢) المنار جـ٦ ص ٣٧٨ ٠

٢ ـ عبد الجليـل عيسى :

وممن تأثر بالأستاذ الامام فى نزعته السلفية وحربه البدع والخرافات فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجليل عيسى فى تفسـيره الذى ظهر حديثا(١) . وهو يحيل فى مواضـع كثيرة من هذا التفسير على كتابه : « صفوة صحيح البخارى » ومما أحال عليـه شرحه للحديث رقم (٦٦) عن عائشة وابن عباس رضى الله عنهما قالا : لمـا نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصـة له على وجهه فاذا اغتم بها كشفها عن وجهه . فقال وهو كذلك « لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما صنعوا .

وقال الشيخ عبد الجليل عيسى فى تعليقه على هذا الحديث : « ومع هذا التحذير الشـديد الذى صدر منه صلى الله عليه وسلم فى آخر لحظـة من حياته الشريفة ولم يشغله عند خطورة مرض ولا سكرات موت فقد وقع كثير من المسـلمين فيما حذرهم منه فيا هى ذى المساجد قد اتخذت على القبور فى كل بلد ومكان . وها هم أولاء المسلمون قد نصبوا عليها أمثال التماثيل من العمائم والخمر ، كمـا وقع كثـير من الجهـال فيما وقع فيه المشركون قبلهم ، فصاروا يستغيثون بقبور الصـالحين ، ويطوفون حولها ، ويتمسحون بها كما يفعل بالكعبة المشرفة ، ويطلبون من اصحابها ما لا يقدر عليه الا الله : كشفاء المريض وقذف المحبة والبغض فى القلوب ، وسعة الرزق . وبعضهم يشكو اليهم ظلم الحـاكم وجور الوالى ، فيرفع العرائض مكتوبة بالبريد وغير البريد . ومن العـار

---

(١) نجد فى هذا التفسير بحوثا كاملة صرح المؤلف بنقلها عن الامام ، انظر تفسيره الاول سورة النساء : « يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » واسم هذا التفسير ، تيسير التفسير .

والخزى أن يقع هذا كل يوم صباحا ومساء تحت بصر رجال الدين وسمعهم ، ولا انكار ولا ارشـاد ولا حول ولا قـوة الا بالله العلى العظيم »(١) ٠

ومما تقدم نلاحظ أن هناك نزعة سلفية كانت رد فعل لانتشار الخرافات والبدع الغريبة عن روح الاسـلام فقامت تدعو الى الاسلام فى بساطة وايمان بالله وحده والتوسـل اليه بالعمل الصالح ونبذ الوسائط والشفعاء ، واعتبار ذلك شركا أصغر ٠

هذه النزعة قادها الامام ابن تيمية وابن القيم ، والحنابلة من قبلهم ونفذ فكرتها الامام محمد بن عبد الوهاب ودعـا اليها الامام محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضـا ٠

ولا يزال أحرار المفكرين والطليعـة من الموجهين فى العـالم الاسلامى يدينون بهذه العقيدة السلفية ٠

وقد بالغ قوم فى هذه الفكرة فجعلوها محور نشاطهم ، وثبتوا عليها جهادهم ودعواتهم ٠ مثل جماعة أنصار السنة(٢) بمصر التى تقصر كل نشاطها على حرب البدع والنواحى السلبية غير الايجابية٠ وهذا خطـأ جسيم لأن الاسـلام لا يصلح أن يؤخذ جزء منه ونترك الأجزاء الباقية ، والقرآن كل يكمل بعضه بعضـا ، وقد أنزله الله روحا يحيى به القلوب بعد موتهـا ، وعاب على أهل الكتاب قائلا : **« أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزى فى الحيـاة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشـد العذاب وما الله بغافل عما تعملون »** ٠

---

(١) صفوة صحيح البخارى شرح الشيخ عبد الجليل عيسى مطبعـة حجازى عام ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م الجزء الثانى ص ٢٢ ٠

(٢) تمول هذه الجماعة الحكومة السعودية ، وتوفى قريبا رئيسـها المرحوم الشيخ حامد الفقى ٠

الأســـاس الســـابع

ترك ألاطنـــاب فى الكـــلام

عما ورد فى القرآن بصـــورة مبهمة

١ ــ منهج الامام فى تفسير المبهم :

القرآن الكريم كتاب هداية يذكر من الأخبار والحوادث وأحوال السابقين ما يحقق هذه الهداية ويمســـك عما لا فائدة من ذكره فالبحث عنه تكلف ٠

وقد جرت عادة المفسرين أن يطنبوا فى الكلام عما ذكره القرآن بصـــورة موجزة ٠ ويفيضوا فى تفاصيل قصـــة أو حادثة أشـــار اليها القرآن ٠

وغالب هذه الافاضـــة لا تعتمد على طريق موثوق به ، بل تعتمد غالبا على النقل من الاسرائيليات ، وقد أمرنا الا نصـــدق اهل الكتاب وألا نكذبهم فيما لا علم عندنا به ٠

والأســـتاذ الامام يعتمد على القرآن وحده فى فهم القـــرآن ولا يجاوز فى شرحه ما يحتمله مضمون النص ٠ مثال ذلك تحديد القرية الواردة فى قوله تعالى : ((**واذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا**)) ٠

فهو يقول : « ونسكت عن تعيين القريــة كما ســكت عنها القرآن ، فقد أمر بنو اسرائيل بدخول بلاد كثيرة . وكانوا يؤمرون بدخولها خاشعين لله خاضعين لأمره مستشعرين عظمتــه ونعمــه وافضاله وهو معنى السجود وروحه المراد هنا » .

وفى تحديد القرية التى نتق فيها الجبل فوق بنى اسرائيــل يقول : « وذهب جمهور المفسرين الى أن تلك القرية ايله وقيل طبرية أو مدين وقالوا ان ذلك كان فى زمن داود عليه الســلام . والقرآن لم يعين المكان ولا الزمان ، والعبرة المقصــودة لا تتوقف على تعيين هذه الجزئيات . فالحجة فيما ذكر قائمة على بنى اسرائيل ومبنية على أن مجاحدتهم ومعاندتهم للنبى صلى الله عليه وســلم ليست بدعا من أمرهم ثم انها عبرة بينة لكل من يفسق عن أمر ربه فيتخذ الهه هواه ويعيش عيشة بهيمية »(١) .

وفى تفسيره لقوله تعالى : **« فانزلنا على الذين ظلموا رجزا من الســماء »** نراه يقول : « ونسكت عن تعيين نوع الرجز كمــا هو شأننا فى كل ما أبهمه القرآن »(٢) .

وفى تفسيره لقوله : **« وفاكهة وأبــا »** يقول الفاكهــة ينتفع بها الانسان والأب المرعى الذى ينتفع به الحيوان لأنه يؤب أى يؤم وينتجع . ويروى أن أبا بكر رضى الله عنه سئل عن الأب فقال : اى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى اذا قلت فى كتاب الله ما لا علم لى به . وعن عمر رضى الله عنه أنه قرأ هذه الآية : « كل هــذا قد عرفنــا فما الأب » ثم رفض عصــا كانت بيده اى كسرها غضبا على نفسه وقال : « اتبعوا ما تبين لكم من هــذا الكتــاب ، ومالا

---

(١) المنار جـ١ ص ٣٤٤ .
(٢) المنار جـ١ ص ٣٢٥ .

فدعوه » ويقول الامام معلقا : « اذا سمعت هذه الروايات فلا تظن أن سيدنا عمر بن الخطـاب ينهى عن تتبع معانى القرآن والبحث عن مشكلاته ولكنه يريد أن يعلمك أن الذى عليك من حيث أنت مؤمن انما هو فهم جملة المعنى ، فالمطلوب منك فى هذه الآيات هو أن تعلم أن الله يمن عليك بنعم أسـداها فى نفسك وتقويم حياتك وجعلها متاعا لك ولأنعامك ، فاذا جاء فى سردها لفظ لم تفهمـه لم يكن من جد المؤمن أن ينقطع لطلب هذا المعنى بعد فهم المراد من ذكره ، بل الواجب على أهل الجد والعزيمـة أن يعتبروا بتعداد النعم ، وأن يجعلوا معظم همهم الشكر والعمل ، هكذا كان شـأن الصحابـة رضى الله عنهم . ثم خلف من بعـدهم خلف وقفوا عند الألفاظ وجعلوها شغلا شاغلا لا يهمهم الا التشدق بتصريفها وتأويلها وتحميلها ما لا تحتمله ، وقد تركوا قلوبهم خالية من الفكر والذكر، واعضاءهم معطلة عن العمل الصالح والشكر .

وقد نهج فى القصة القرآنية منهجه فى تفسير الألفاظ المبهمة فهو يفسر القصـة بما يدل عليه ظاهر لفظها ، ولا يخرج عن مدلول اللفظ جريا وراء كلام السابقين . ما دام ذلك لم يرد عن المعصوم صلى الله عليه وسلم ، أو ما دام لا يتوقف عليه بيان المعنى .

ففى سورة البقرة أمر الله بنى اسرائيل بذبح بقرة وتشـدد بنو اسرائيل فى ذكر صفاتها وماهيتها فشدد عليهم .

« ويذكر المفسرون قصـة فى حكمة هذا التشديد وهو المصير الى بقرة معينة لشخص معين كان بارا بوالديه . وقد يكون هـذا صحيحا غير أنه لا داعى اليه فى التفسير وبيان المعنى »(١) .

وفى قصـة الأخدود التى وردت فى سـورة البروج يقول :

---

(١) المنار جـ١ ص ٣٥٠ .

« أما تعيين أصحاب الأخدود وأنى كانوا ؟ ومن هم أولئك المؤمنون ؟ وأين كان منزلهم من الأرض ؟ فقد كثرت فيه الروايات والأشهر أن المؤمنين كانوا نصارى نجران عندما كان دينهم دين توحيد ليس فيه حدث ولا بدعة وأن الكافرين كانوا أمراء اليمن أو اليهود الذين لا يبعدون عن هؤلاء فى حقيقة الوثنية ، غير أن المؤمن لا يحتاج فى الاعتبار واشعار قلبه الموعظة الى أن يعرف القوم والجهة ، وخاصة الدين الذى كان عليه أولئك أو هؤلاء حتى يطير وراء القصص المشحونة بالمبالغات والأساطير المحشوة بالخرافات وانما الذى عليه هو أن يعرف من القصة ما ذكرناه أولا ، ولو علم الله خيرا فى أكثر من ذلك لتفضل علينا به »(١) ٠

وفى قصة مريم الواردة فى سورة آل عمران يذكر القرآن الكريم انه : ((**كلمة دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب**)) ٠ قالوا كان يجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف ، والله لم يقل ذلك ولا قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا هو مما يعرف والتاريخ المعتد به لم يثبته٠

واسناد الرزق الى الله فى الآية لا يدل على أنه كان من خوارق العادات فاسناد المؤمنين الأمر الى الله فى مثل هذا المقام معهود فى القديم والحديث ٠

ثم يقول الأستاذ الامام : « ان القرآن نزل سائغا يسهل على كل أحد فهمه من غير حاجة الى عناء ولا ذهاب فى الدفاع عن شىء خلاف الظاهر ٠ فعلينا الا نخرج عن سنته ولا نضيف اليه حكايات اسرائيلية أو غير اسرائيلية لجعل القصة من خوارق العادات ٠

---

(١) تفسير جزء عم ــ سورة طبرق ص ٥٩ ٠

والبحث عن الرزق ما هو ومن أين جاء ؟ فضول لا يحتـاج اليه لفهم المعنى ولا لمزيد العبرة ولو علم الله أن فى بيانه خيرا لنا لبينــه » ٠

٣ ــ الصراط والميزان والجنة والنار :

وقد ذكر القرآن الكريم أمورا وأشياء تتعلق بعالم الآخرة ، كالصراط والميزان والجنة والنار والصحف والكتب واللوح المحفوظ والكرام الكاتبين ٠

وقد أفاض بعض المفسرين فى وصفها وبيان ماهيتها من غير اعتماد على سند قوى ، وعلى الرغم من افاضتهم لم يصــلوا الى ما يشفى النفس فى معرفة حقائق هذه الأشياء ٠

وكان تفسير الامام لهذه الغيبيات مختصرا وواضحا ٠ فهو يوافق رأى السلف فى أن علينا أن نؤمن بها كما وردت ونفوض معرفة حقيقتها الى الله تعالى ٠

فالميزان الذى يزن الله به الأعمال يوم القيامة . فمن ثقلت موازينــه دخل الجنة ومن خفت موازينــه دخل النار ٠ علينا أن نؤمن به كما أخبر القرآن ٠

« أما كيفية تقدير الله للأعمــال وما تستحقه من الجزاء فى ذلك اليوم فانما يكون على حسب ما يعلم لا على طريقة ما نعلم ، فعلينا أن نفوض الأمر فيه اليه سبحانه مع الايمان به ، ومن عجيب ما قاله بعض المفسرين « أنه ميزان بلسان وكفتين كأطباق السموات والأرض ولا يعلم ماهيته الا الله » ٠

« فماذا بقى من ماهيته بعد لسانه وكفتيه حتى يفوض العلم فيه الى الله ؟ والكلام فيه جرأة على غيب الله بغير نص صريح متواتر

عن المعصوم ، ولم يرد فى الكتاب الا كلمة الميزان وقد عرفت ما يمكننا أن نفهم منها لننتفع بما نعتقد ٠ وما عدا ذلك فعلمه الى الله سبحانه ، وقد قالوا ان منكر الميزان بالمعنى المعروف لا يكفر خصوصا اذا كان القائل به يحدد له لسانا وكفتين ، مع أن البشر قد اخترعوا من الموازين ما هو أتقن من ذلك وأضبط وأوفى ببيان الموزون ٠ أفيأبى الحكيم الخبير الا استعمال ذلك الميزان الخشن الناقص الذى هدى العلم عقول البشر الى ما هو أدق منه ؟ أيأبى عالم الغيب والشهادة أن يستعمل فى وزن المعانى والمعقولات الا ذلك الميزان الذى اخترعه بعض البشر قبل أن يبلغ بهم العلم ما بلغ بأهل العصر الحاضر وما سيبلغ بأهل العصور المقبلة ؟ على أن جميع ما اخترع البشر وما يخترعون مهما دق ولطف انما هو معيار للأثقال الجسمانية والأوزان المحسوسة ، وهلا يكون الأليق بالمقام الألهى أن يكون ميزان المعانى المعقولة لديه اسمى واعلى من أن يكون على نمط ما يستعمله البشرمهما ارتقت المعارف وسمت بهم العلوم ؟ وهل يليق بمن يخاف مقام ربه أن يجرؤ على القول بوجوب الاعتقاد بأن الميزان الذى يزن الله به الأعمال يوم القيامة هو الميزان الذى تستعمله القبائل التى لم تزل فى مهد الانسانية الأولى ، ميزان ضعفاء العقول ٠ قصار الأنظار الذين لا يعرفون قيمة للايمان بالغيب ولا لحياء العقل من الله واطراقه عن أن ينظر الى ما تشامخ من غيوب الله تعالى علمه وتعاظمت قدرته ٠ عليك أيها المؤمن المطمئن الى ما يخبر الله به أن توقن أن الله يزن الأعمال ويميز لكل عمل مقداره ولا تسل كيف يزن ولا كيف يقدر ، فهو اعلم بغيبه والله يعلم وانتم لا تعلمون »(١) ٠

---

(١) جزء عم ص ١٣٩ ٠

والجنة دار النعيم يتمتع بها المؤمنون يوم القيامة . وعلينـا أن نعتقد أن النعيم واللذة فيها اكمل وأوفر من جميع لذائذ الدنيا ، وأنها دار خلد وأن من دخلها من اهلها لا يخرج أبدا ولا يجوز لنا البحث فى حقيقتها ولا أين موضعها ولا كيفية التمتع بها فان ذلك لا يعلمه الا الله(١) .

والنـار هى دار العـذاب والآخرة يعـذب بها أهـل الكفر والطغيان . والواجب علينا الايمان بها والتصديق بأن العذاب فيها أشد من العذاب فى نار الدنيـا ، وأنها تسعر وتوقد على المعنى الذى يريده الله .

أما كون الايقـاد بالحطب أو الفحم الحجرى أو الخشـبى أو ما أشبه ذلك مما هو معروف فى حياتنـا هذه ، فذلك غير واجب أن نعتقد به(٢) .

والصحف التى تنشر يوم القيامـة بعد البعث هى صـحف الأعمال والذى يجب علينـا اعتقاده أن أعمال العباد تظهر لهم ثابتة مبينة لا يرتابون فيهـا يوم الجزاء ويعبر عن معنى ذلك الثبوت والبيان بنشر صحف الأعمال . أما كون الصحف على مثال الأوراق التى نكتب عليها فى الدنيـا أو على مثال الألواح أو ما يشبه ذلك مما جرى استعماله للكتابة عليه فذلك مما لم يصـل علمنـا اليه ولن يصـل اليه بمجرد العقل ، ولم يرد عن المعصـوم صـلى الله عليه وسلم فيه نص قاطع(٣) .

وكتابة الله واحصاؤه لأعمال الانسـان هى كتابة على النحو

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٤٩ .
(٢) جزء عم ص ١٤٠ .
(٣) جزء عم ص ٢٧ .

الذى يليق بتنزيه الله تعالى . وهى أعلى من كتابتنا التى نعرفها وأشد منها ضبطا لكنا لا نكلف بالبحث عنها فذلك مما نؤمن به ونكل علم حقيقته الى الله(١) .

واللوح المحفوظ شيء أخبر الله به وأنه أودعه كتابه ولم يعرفنا حقيقتـه فعلينـا أن نؤمن بأنه شيء موجود وأن الله قد حفظ فيه كتابه ايمانا بالغيب ، وأما دعوى أنه جرم مخصوص فى سماء معينة ووصفـه بما جاء فى روايات مختلفـة فهو لم يثبت عن المعصـوم صلى الله عليه وسلم بالتواتر ، فلا ينبغى أن يدخل فى عقائد أهل اليقين من المؤمنين(٢) .

والكرام الكاتبون : ملائكة يكتبون أعمالنا حسنات وسيئات ، وعلينا أن نؤمن بهم وأنهم مطهرون عن الغرض والنسيان ، ولكن ليس علينـا أن نبحث عن حقيقة هؤلاء ومن أى شيء خلقوا وما هو عملهم فى حفظهم وكتابتهم ، هل عندهم أوراق وأقلام ومداد كالمعهود عندنا وهو ما يبعد فيمه ، او هناك ألواح ترسم فيها الأعمال وهل الحروف والصـور التى ترسم هى على نحو ما نعهد أو انما هى أرواح تتجلى لها الأعمال فتبقى فيها بقاء المداد فى القرطاس ، الى أن يبعث الله الناس ، كل ذلك لا نكلف العلم به وانما نكلف الايمان بصـدق الخبر وتفويض الأمر فى معناه الى الله ، والذى يجب علينا اعتقاده من جهة ما يدخل فى عملنا هو أن أعمالنا تحفظ وتحصى لا يضيع منها نقير ولا قطمير(٣) .

واحيانا يعرض الأستاذ الامام أكثر من رأى فى تفسيره لغيبيات القرآن مثل قوله تعالى ((**وجاء ربك والملك صفا صفا**)) . ويقول ،

---

(١) جزء عم ص ٦ .

(٢) جزء عم ص ٦١ .

(٣) جزء عم ص ٣٦ .

اما اسـناد المجيء لله فى هذه الآية ففيه رأى السلف رضى الله عنهم، وهو أن ذلك مجيء نؤمن به ولا نطلب معناه ولكنه يمثل لنا الهيبة والعظمة وظهور السلطان الالهى فى ذلك اليوم وهو الأفضل .

وفيه مذهب الخلف وهو أنه على تقدير وجاء أمر ربك أو أنه من قبيل التمثيل لتجلى السطوة الالهية على القلوب ، كما تتجلى أبهة الملك للأعين اذا جاء فى جيوشه ومواكبه ولله المثل الأعلى(١) .

واذا قارنا هذا المنهج الروحى العملى ، بما ورد فى بعض كتب التفاسير فى مثل هذه المواضـع تجلى لنا أن الأسـتاذ الامام سلك سبيلا مستقيما وحفظ على القرآن قداسـته وعلى الغيب حرمته . ورد التهجم على الغيب من غير دليـل . وأبعد عن التفسـير آثار المجسمة والمشبهة ، ونقاه من الروايات المـأثورة التى لا تستند الى دليل علمى أو سند سليم .

مقارنة بين المفسرين :

مثال لمقارنة رأى الامام فى الغيبيات بآراء المفسرين السابقين :

جاء فى تفسير الجـلالين لقوله تعـالى : ((**وجاء ربك والملك صفا صفا**)) (جاء ربك) أى جاء أمره (والملك) أى الملائكة (صفا صفا) حال أى مصطفين أو ذوى صفوف كثيرة .

وهذا تفسـير مختصر وواضح وكان الامام يعتمد عليـه وان خالفه ونقده فى كثير من المواضع .

ولكن اذا نظرنا الى تعليق سليمان بن عمر العجيلى الشـهير بالجمل فى حاشيته « الفتوحات الالهية بتوضيح تفسـير الجلالين للدقائق الخفية » رأيناه يعلق على تفسـير الجلالين للآية بقوله :

---

(١) جزء عم ص ٨٤ .

« قوله أى جاء أمره » أى حصـل تجليه على الخلائق وظهر سلطان من آثار هيبته وسياسته ٠ أ هـ (قوله صفا صفا) أى تنزل ملائكة كل سماء صفا على حدة فيصطفون صفا بعد صف محدقين بالجن والانس فيكونون سبع صفوف أ هـ خازن ٠ وفى تذكرة القرطبى ما نصـه وذكر أبو حامد فى كتاب كشف علوم الآخرة عن ابن عباس والضحاك فقال : ان الخلائق اذا اجتمعوا فى صعيد واحد الأولين والآخرين أمر الجليل جل جلاله بملائكة سـماء الدنيا أن يتولوهم فيأخذ كل واحد منهم انسانا وشخصا فى المبعوثين انسا وجنا ووحشا وطيرا وحولوهم الى الأرض الثانيـة أى التى تبدل وهى أرض بيضاء من فضـة نورانيه ، وصارت الملائكة منوراء الخلق حلقـة واحدة ، فاذا هم أكثر من أهل الأرض بعشر مرات ٠ ثم تنزل ملائكة السماء الثانيـة فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة فاذا هم مثلهم ضعفا ٠ ثم تنزل ملائكة السـماء الثالثة فيحدقون من وراء الكل حلقة واحـدة فيكونون أكثر منهم بثلاثين ضعفا ٠ ثم تنزل ملائكة السماء الرابعة فيحدقون من وراء الكل حلقـة واحدة فيكونون أكثر منهم بأربعين ضعفا ٠ ثم تنزل ملائكة السماء الخامسة فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة فيكونون مثلهم خمسين مرة ٠ ثم تنزل ملائكة السماء السادسـة فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة وهم مثلهم ستون مرة ٠ ثم تنزل ملائكة السماء السابعة فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة وهم مثلهم سبعون مرة ٠ والخلق تتداخل وتندمج حتى يعلو القدم ألف قدم لشدة الزحـام ويخوض الناس فى العرق على أنواع مختلفـة الى الأذقان والصـدور والى الحقوين والى الركبتين ومنهم من يصيبه الرشح اليسير كالقاعد فى الحمام ، ومنهم من يصيبه البلة بكسر الموحدة وتشديد اللام كالعاطش اذا شرب المـاء وكيف لا يكون القلق والعرق والأرق وقد قربت الشمس من رءوسهم حتى لو مد أحدهم يده لنالها وتضـاعف حرها سبعين

مرة . وقال بعض السلف ولو طلعت الشمس على الأرض كهيئتها يوم القيامة لاحترقت الأرض وذاب الصخر ونشفت الأنهار ، فبينما الخـلائق يموجون فى تلك الأرض البيضـاء التى ذكرها الله حيث يقول : ((يوم تبدل الأرض غير الأرض)) الخ .

الى غير ذلك مما لا يصدقه العقل ، ولم يصح به النقل فان كثرة الملائكة الى هـذا الحد وتحديد صفوفهم وغير ذلك من أحوال الموقف أما أن يكون من اختراع الخيال أو نقلا عن الاسرائيليات .

وبذا يتضح لنا صـواب موقف الامام من هذه الغيبيات وطلبه الايمان بها كما وردت وتفويض حقيقتها الى الله تعالى .

٣ ــ القضـاء والقـدر :

وقد سلك الأسـتاذ الامام هـذا المسلك الروحى العملى فى تفسيره للقضاء والقدر . فقد شغلت مسألة القضاء والقدر حيزا كبيرا من كتب التفسير المذهبية . مثل كتاب الكشاف للزمخشرى الذى يمثل منهج المعتزلة . وكتاب الفخر الرازى الذى يمثل مذهب أهل السنة ويهتم كثيرا بعرض آراء المعتزلة مفصلة والرد عليهم بقوة فى الخصومة واهتمام بالدليل والحجة .

ولكن الأستاذ الامام يصرح فى تفسيره لسـورة العصر « بأن مسائل علم الله وقضـائه السابق من حيث يتعلقان بأفعال العباد هى من سر القدر الذى لا تكاد العقول أن تصل اليه .

فوجب على المسلم أن يعتقد بأن الله خالق كل شىء على النحو الذى يعلمه . وبأنه يجب عليـه مع ذلك أن يقر بأن أعماله منسوبة اليه ، وأن يعمل بما أمره به ويتجنب ما نهاه عنه وذلك باستعمال تلك الحرية التى يجدها من نفسه . وليس على المسـلم بعد هذا أن يبحث فيما وراء ذلك . وقدنهى القرآن والحديث عن الخوض

والجدال فى القدر لما فيه من جسيم الخطر . على أن الايمان ليس بحاجة الى بحث هذه المشكلة الغامضة . وانما التطلع الى حلها هو شره العقول فى طلب رفع الأستار عن الأسرار . وليس فى مقدور العامة ان تنفذ بصائرها الى اسرار الحرية والقدر فذلك شأن من شئون القليلين من أهل الولاية والصفاء(١) .

وقد رفض الأستاذ الامام مذهب الجبر الذى يذهب الى أن الانسان مجبور فى عمله كالريشة فى مهب الرياح . وحارب المتواكلين من الصوفية ونبههم الى الأخذ بالأسباب وطرح التواكل والكسل وبين أن عمل الانسان مناط ثوابه وعقابه . وان ايماننا بالقضاء والقدر لنستمد من الله العون ولنأخذ بأسباب الحياة واثقين أن قدرة الله فوق قدرتنا ، فنستمد منه التوفيق والهداية والعون والمساعدة .

« والاعتقاد بالقضاء والقدر يؤيده الدليل القاطع بل ترشد اليه الفطرة ويسهل على من له فكرة أن يلتفت الى ان كل حادث له سبب يقارنه فى الزمان . وأنه لا يرى من سلسلة الأسباب الا ما هو حاضر لديه ، ولا يعلم ماضيها الا مبدع نظامها وأن لكل منها مدخلا ظاهرا فيما بعده بتقدير العزيز العليم » .

وارادة الانسان انما هى حلقة من حلقات تلك السلسلة وليست الارادة الا أثر من آثار الادراك ، والادراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس ، وشعورها بما أودع فى الفطرة من الحاجات فلظواهر الكون من السلطة على الفكرة والارادة ما لا ينكره أبله ، فضلا عن عاقل ، وان مبدأ هذه الأسباب التى ترى فى الظاهر مؤثرة انما هو بيد مدبر الكون الأعظم الذى أبدع الأشياء على وفق حكمته

---

(١) رسالة التوحيد ص ٧٠ .

وجعل كل حادث تابعا لشبهه كأنه جزاء له ، خصــوصا فى العالم الانســانى ٠

ولو فرضنا أن جاهلا ضل عن الاعتراف بوجود اله صــانع للعالم فليس فى امكانــه أن يتخلص من الاعتراف بتأثير العوامــل الطبيعية والحوادث الدهرية فى الارادات البشرية ٠

فهل يستطيع انسان أن يخرج عن هــذه السنة التى ســنها الله فى خلقه ، هذا أمر يعترف به طلاب الحقــائق ، فضــلا عن الواصلين ، الاعتقاد بالقضاء والقدر اذا تجرد عن شــناعة الجبر يتبعه صفة الجرأة والاقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة ٠ ويبعث على اقتحام المهــالك التى ترتجف لها قلوب الأســود وتنشق منها مرائر النمور (هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثقــة والثبات واحتمال المكاره ومقاومة الأهوال ، ويحليها بحلى الجود والسخاء ويدعوها الى الخروج عن كل ما يعز عليهــا بل يحملهــا على بذل الأرواح والتخلى عن نضرة الحياة ٠ كل هذا فى سبيل الحق الذى قد دعاها للاعتقاد تهذه العقيدة ٠

الذى يعتقد بأن الأجل محدود ، والرزق مكفول والأشــياء بيد الله كيف يرهب الموت فى الدفــاع عن حقه واعلاء كلمة أمتــه أو ملته ؟ والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله فى تعزيز الحق وتشييد المجد على حسب الأوامر الالهية واصــول الاجتماعات البشرية ٠

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضله فى قوله الحق:
((الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشــوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم ســوء واتبعوا رضــوان الله ، والله ذو فضل عظيم))

هذا الاعتقاد هو الذى ثبتت به أقدام بعض الأعداد القليلة منهم أمام جيوش يغص بها الفضاء ، ويضيق بها بسيط الغبراء · فكشفوهم عن مواقعهم وردوهم على أعقابهم ·

واندفع المسلمون فى أوائل نشـأتهم الى الممالك والأقطـار يفتحونها ويتسلطون عليها فأرغموا الملوك وأذلوا القياصرة والأكاسرة فى مدة لا تتجـاوز ثمانين سنة · ان هـذا ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات · دمروا بلادا ودكدكوا أطوادا وأرجفوا كل قلب ، وأرعدوا كل فريصـة وما كان قائدهم وسـائقهم فى جميع هـذا الا الاعتقاد بالقضاء والقدر ، بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالشرق ، وانقضت شهبها على الحيارى فى هبوات الحروب من أهل المغرب ، وهو الذى حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق فى سبيل اعـلاء كلمتهم لا يخشون فقرا ولا يخـافون فاقة · هـذا الاعتقاد هو الذى سهل عليهم حمل اولادهم ونسائهم ومن يكون فى حجورهم الى ساحات القتال فى أقصى بلاد العالم ، كأنما يسيرون الى الحدائق والرياض ، وكأنهم أخذوا لأنفسهم بالتوكل على الله أمانا من كل غادرة · وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصـن يصونهم من كل طارقة وكان نسـاؤهم وأولادهم يتولون سقاية جيوشـهم وخدمتها فيما تحتـاج اليه لا يفترق النساء والأولاد عن الرجـال والكهول الا بحمل السـلاح ، ولا تأخذ النساء رهبـة ولا تغشى الأولاد مهابـة ·

هذا الاعتقاد هو الذى ارتفع بهم الى حد كان ذكر اسـمهم يذيب القلوب ويبدد أفلاذ الأكبـاد ، حتى كانوا ينصرون بالرعب يقذف فى قلوب أعدائهم فيهزمون بجيوش الرهبة قبل أن يشيموا

بروق سيوفهم ولمعان أسنتهم ، بل قبل أن تصل الى تخومهم أطراف جحافلهم »(١) .

٤ ــ الأسباب التى دعت الامام الى هذا التفسير للقضاء والقدر :

لقد كان الأستاذ الامام مدفوعا الى هذا التفسير العملى بعوامل عدة :

أولا ــ حسن فهمه لطبيعة الاسلام وأنه يدعو الى الايمان بالله والاعتقاد بقدرته وعلمه الأزلى القديم وأن الله بكل شىء عليم .

وهذا الاعتقاد يجب أن يكون دافعا قويا للانسان نحو العمل، مع ثقته بالقوة العليا التى منحته العقل والتفكير والارادة والاختيار . فلا تناقض بين الايمان بالقضاء والقدر والاعتقاد بحرية الكسب والاختيار ولا تخالف بينهما فى الحقيقة : فالله فاعل من حيث العبد فاعل والعبد فاعل من حيث الرب فاعل ، والوجود فى جميع مراتبه مختار(٢) .

وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم صعد المنبر فرفع يده اليمنى وقال : هؤلاء أصحاب أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم وأمهاتهم لا يزيدون ولا ينقصون . ورفع يده اليسرى وقال : هؤلاء أصحاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وامهاتهم لا يزيدون ولا ينقصون . وان الرجل من أهل الجنة ليعمل بعمل أهل النار

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام الجزء الثانى ص ٢٦٤ نقلا عن جريدة العروة الوثقى ــ العدد الخامس الذى نشر فى ١٤ جمادى الآخرة ١٣٠١ هـ ، ١٠ ابريل ١٨٨٤ م .

(٢) الاستاذ الامام محمد عبده : رسالة الواردات ص ٢١ .

حتى اذا لم يبق بينه وبين النار الا مقدار فواق ناقة يسبق عليه القضاء ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة ، وان الرجل من أهل النار ليعمل بعمل أهل الجنة حتى اذا لم يبق بينه وبين الجنة الا مقدار فواق ناقة يسبق عليه القضاء فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار .

قالوا افلا نتكل يا رسول الله ؟ قال لا . اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، ان الله عز وجل يقول : ((**فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى**)) .

وهكذا يجمع الاسلام بين الايمان بالقدر والدعوة الى العمل فيقف موقفا وسطا بين الجبر المطلق ، والحرية المطلقة .

ثانيا - رده على المستشرقين والمستعمرين الذين يزعمون أن سبب تأخر المسلمين هو شيوع الايمان بالقضاء والقدر ، واعتقادهم أن العبد مسير غير مخير ، وأن عقيدة الجبرية التى تزعم أن العبد مجبر فى جميع أعماله كالريشة فى مهب الرياح مما يدين بها المسلمون ، وهى السبب فى تخلفهم وعجزهم .

وقد نهض الأستاذ الامام للرد على هانوتو - وزير خارجية فرنسا سابقا - « الذى ادعى أن مسافة الخلف بين الاسلام والنصرانية واسعة . من حيث البحث فى القدرة الالهية والحرية الانسانية وأن الاسلام بتمسكه بعقيدة القضاء والقدر ، انما ينحط بالانسان الى الدرك الأسفل ، ويرفع الاله عنه فى علاء لا نهاية له ، فى حين أن عقائد المسيحية ترتفع بمعتقديها الى أعلى مراتب الكمالات الانسانية »(١) .

---

(١) دكتور عثمان أمين - رائد الفكر المصرى الامام محمد عبده ص ١٠٧ - وتاريخ الاستاذ الامام ج٢ ص ٤٢٠ و ٤٢١ .

على ذلك الادعاء اجاب الأستاذ الامام :

« هل نسى مسيو هانوتو أن البحث فى القدر لم يختص بملة من الملل وأن منشأ الكلام فيه هو الاعتقاد باحاطة علم الله بكل شيء وشمول قدرته لكل ممكن ؟ وهل نسى أن الخلاف فى المسألة قد عظم بين المسيحيين أنفسهم قبل الاسلام ، واستمر الى هذه الأيام ، ان أتباع « القديس توما » وان « الدمينيكيين » وان فى خطب « لوثر » و « كلفان » ما يثبت قول المسيحيين بالقدر ونزوعهم اليه »(١) .

ويذكر الأستاذ الامام أن « بوسويه » حين اتخذ موقفا وسطا بين الجبر المطلق والحرية الخاصة لم يصنع اكثر من اتخاذه موقفا اسلاميا فى صميمه(٢) .

ونشر الامام بالعروة الوثقى مقالا وضح فيه أن الاسلام يدعو المسلم الى الانشاء والعمل ويحفزه الى البناء والانتاج ويفهمه أن له حرية واختيارا وفرق الامام بين القضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبريين : « اعتقد الافرنج أنه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبريين القائلين بأن الانسان مجبور جبرا محضا فى جميع أفعاله . وتوهموا أن المسلمين بعقيدة القضاء والقدر يرون أنفسهم كالريشة فى الهواء تقلبها الريح كيفما تعمل ، ومتى رسخ فى نفوس قوم أنه لا اختيار لهم فى قول ولا عمل ولا حركة ولا سكون وانما جميع ذلك بقوة جابرة وقدرة قاسرة . فلا ريب تتعطل قواهم ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى وتمحى من خواطرهم داعية السعى والكسب . وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود الى عالم الفناء » .

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام للسيد رشيد رضا جـ٢ ص ٤٢١ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٢٠ .

هكذا ظنت طائفة من الافرنج ـ وذهب مذهبها كثيرون من ضعاف العقول فى الشرق . ولست أخشى أن أقول كذب الظان وأخطأ الواهم وبطل الزاعم وافتروا على الله والمسلمين كذبا . لا يوجد مسلم من سنى وشيعى واسماعيلى وزيدى ووهابى وخارجى يرى مذهب الجبر المحض ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة . بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزءا اختياريا فى أعمالهم . ويسمى بالكسب ، وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم ، وأنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختيارى ومطالبون بامتثال جميع الأوامر الالهية والنواهى الربانية الداعية الى كل خير ، الهادية الى كل فلاح . وأن هذا النوع من الاختيار هو مورد التكليف الشرعى ، وبه تتم الحكمة والعدل .

نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى بالجبرية ذهبت الى أن الانسان مضطر فى جميع أفعاله اضطرارا لا يشوبه اختيار وزعمت أن لا فرق بين أن يحرك الشخص فكه للأكل والمضغ ، وبين أن يتحرك بقفقفة البرد عند شدته . ومذهب هذه الطائفة يعده المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة ، وقد انقرض أرباب هذا المذهب فى أواخر القرن الرابع الهجرى ولم يبق لهم أثر ، وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ، ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد ما ظنه أولئك الواهمون(١) .

ويتضح لنا مما سبق أن الأستاذ الامام تأثر بعصره واعتبر نفسه لسان الاسلام والمبعوث للدفاع عنه وتنبيه الغافلين من أمته الى محاسن الاسلام ، وتحذيرهم كيد أعدائهم وتربيتهم تربية

---

(١) العروة الوثقى عدد ٤ رجب سنة ١٣٠١ اول مايو ١٨٨٤ ـ وتاريخ الامام ص ٢٦١ جـ٢ .

اســلامية صحيحة تؤمن بالفرد وممكناته وتؤمن بالله لتستمد منه التوفيق والهدى والعون السداد ٠

٥ ـ القضاء والقدر فى التفاسير السابقة :

شغلت مباحث القضاء والقدر الفرق الاسلامية زمنا طويلا ، والاسلام فى طبيعته قائم على البحث والنظر الى درجــة أنه يكاد يجعل هذا النظر العقلى فرض كفاية ، والقرآن حافل بالنصوص التى تحفز العقل الى الفكر والاستدلال على وجود الله ٠

ولكنه حارب الجدل العقيم الذى يتعصب للرأى ولا يبحث عن الحق ٠ فعن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتمــارى فى شىء من أمر الدين ، فغضب غضبا شديدا لم يغضب مثله ٠ ثم قال : « يا امة محمد ذروا المراء فان المراء لا يأتى بخير ، ذروا المراء فان الممارى قد تمت خسارته ، ذروا المراء فكفى اثما ألا تزال مماريا ، ذروا المراء فان أول ما نهانى عنه ربى بعد عبادة الأوثان المراء ٠ ذروا المراء فأنــا زعيم بثلاثة أبيات فى الجنة فى رياضها ووسطها واعلاها لمن ترك المراء وان كان محقا » ٠

وقد أدى الخلاف السياسى بين المسلمين فى القرن الأول أى فى عهد الأمويين الى نشــأة فرق لجــأت الى الدين تستمد منــه حججها ، وكان ذلك نذيرا بالخلاف بينهم فى فهم النصوص الدينية٠ وانتهى ذلك الى نشأة طائفتين دينيتين كبيرتين ٠ وهما طائفــة السلف التى تريد الوقوف عند ظاهر النصوص وطائفة المعتزلة التى مجدت العقل وأوجبت التأويل ٠

وامتد الخلاف الى تفسير القرآن الكريم كل يحاول أن يؤيد رأيه به ويؤول آياته مما يوافق مذهبه وتحولت كتب التفسير الى

نقاش جدلي طويل ، الغرض منه الانتصار للمذهب قبل تفهم كتاب الله .

وسنعرض نموذجا من تفسير « مفاتيح الغيب » للفخر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ وتفسير «الكشاف » للزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ .

(أ) الفخر الرازى :

فى تفسير قوله تعالى : ((**ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب**)) . قال الفخر الرازى :

« فى هذه الآية دلالة على أن الهدى والضلال من قبله تعالى وأنه متفضل بما ينعم به على عباده من غير ان يجب عليه شىء .

وفى هذه الآية اختلف كلام أهل السنة وكلام المعتزلة . أما كلام أهل السنة فظاهر وذلك لأن القلب صالح لأن يميل الى الايمان وصالح لأن يميل الى الكفر ، ويمتنع أن يميل الى أحد الجانبين الا عند حدوث داعية وارادة يحدثها الله تعالى فان كانت تلك الداعية داعية الكفر فهى الخذلان والازاغة والصد والختم والطبع والرين والقسوة والوخز والكتمان وغيرها من الألفاظ الواردة فى القرآن الكريم . وان كانت الداعية داعية الايمان فهى التوفيق والرشاد والهداية والتسديد والتثبيت والعصمة وغيرها من الألفاظ الواردة فى القرآن . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » ، والمراد من هاتين الاصبعين الداعيتان ، فكما أن الشىء الذى يكون بين اصبعى الانسان ينقلب كما يقلبه الانسان بواسطة تلك الاصبعين فكذلك القلب لكونه بين الداعيتين يتقلب كما يقلبه الحق بواسطة تلك

الداعيتين . ومن أنصف ولم يتعسف وجرب نفسه وجدا هذا المعنى كالشيء المحســوس ، ولوجوز حدوث احدى الداعيتين من غير محدث ومؤثر لزمه نفى الصــانع ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبى على دينك » . ومعنــاه ما ذكرنا . فلما آمن الراسخون فى العلم بكل ما أنزل الله تعــالى من المحكمات والمتشابهات ، وتضرعوا اليه سبحانه وتعالى فى ألا يجعل قلوبهم مائلة الى الباطل بعد أن جعلهــا مائلة الى الحق ، فهذا كلام برهانى متأكد بتحقيق قرآنى .

وأما المعتزلة فقد قالوا لمــا دلت الدلائل على أن الزيغ لا يجوز أن يكون بفعل الله تعــالى وجب صرف هذه الآية الى التأويل ، فأما دلائلهم فقوله تعالى : « **فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم** » وهو صريح فى أن ابتداء الزيغ منهم ، ولهم أدلة أخرى ، اما تأويلاتهم فى هذه الآية فمن وجوه ، الأول وهو الذى قاله الجبائى واختــاره القاضى أن المراد بقوله : « **لا تزغ قلوبنا** » يعنى لا تمنعها الألطاف التى معها يستمر قلبهم على صفة الايمــان . وذلك لأنه تعــالى لمــا منعهم الطافه عند استحقاقهم منع ذلك جاز أن يقال أزاغهم ويدل على هذا قوله تعــالى : « **فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم** » . والثانى قال الأصم : لا تبلنا ببلوى تزيغ عندها قلوبنــا . فهو كقوله : « **ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليــل منهم** » . وقوله : « **لجعلنــا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة** » والمعنى لا تكلفنا من العبــادات ما لا نأمن معه الزيغ ، وقد يقول القائل لا تحملنى على ايذائك اى لا تفعل معى من الأفعال ما اكون معه مؤذيا .

واستمر الفخر الرازى فى تخريج الآية على رأى المعتزلة على ستة وجوه ثم تعقبها بالرد عليها واحدا واحدا .

فلما انتقل الى تفسير المقطع الثانى فى الآية وهو : ((**بعد اذ هديتنا**)) قال : أى بعد أن جعلتنا مهتدين ، وهذا أيضا صريح فى أن حصول الهداية فى القلب بتخليق الله تعالى · ثم قال : ((**وهب لنا من لدنك رحمة**)) · واعلم أن تطهير القلب عما لا ينبغى مقدم على تنويره بما ينبغى ، فهؤلاء المؤمنون سألوا ربهم أولا ألا يجعل قلوبهم مائلة الى الباطل والعقائد الفاسدة ، ثم انهم اتبعوا ذلك بأن طلبوا من ربهم أن ينور قلوبهم بأنوار المعرفة وجوارحهم وأعضاءهم بزينة الطاعة ، وانما قال رحمه ليكون ذلك شاملا لجميع أنواع الرحمة ·

فاولها ـ أن يحصل فى القلب نور الايمان والتوحيد والمعرفة ·

وثانيها ـ أن يحصل فى الجوارح والأعضاء نور الطاعة والعبودية والخدمة ·

وثالثها ـ أن يحصل فى الدنيا سهولة أسباب المعيشة من الأمن والصحة والكفاية ·

ورابعها ـ أن يحصل عند الموت سهولة سكرات الموت ·

وخامسها ـ أن يحصل فى القبر سهولة سؤال القبر وسهولة ظلمة القبر ·

وسادسها ـ ان يحصل فى القيامة سهولة العقاب والخطاب وغفران السيئات وترجيح الحسنات ·

فقوله من لدنك رحمة يتناول جميع هذه الأقسام ، ولما ثبت بالبراهين أنه لا رحيم الا هو ، ولا كريم الا هو ، لا جرم أكد ذلك بقوله : ((**من لدنك**)) تنبيها للعقل والقلب والروح أن هذا المقصود

لا يحصل الا منه ، ولما كان هـذا المطلوب فى غاية العظمة بالنسبة للعبد ذكرها على سبيل التنكير كأنه يقول أطلب رحمـة واى رحمة أطلب ، رحمـة من لدنك وتليـق بك ولك يوجب غاية العظمـة « **انك أنت الوهاب** » أى المعطى وهو تعليل للسـؤال أو الاعطـاء المسئول • وفيه دلالة على أن الهدى والضلال من قبله تعـالى ، وأنه متفضل به على عباده من غير أن يجب عليه شىء(١) •

وأيضـا يقول الفخر الرازى عند تفسـيره لقوله تعـالى : « **يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الألباب** » •

احتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى وذلك لأن الحكمـة ان فسرناها بالعـلم لم تكن مفسرة بالعـلوم الضرورية لأنها حاصلة للبهائم والمجانين والأطفال وهذه الأشـياء لا توصف بأنها حكم فهى مفسرة بالعلوم النظرية ، وان فسرناها بالأفعال الحسية فالأمر ظـاهر وعلى التقـديرين فيلزم أن يكون حصول العلوم الفطرية والأفعال الحسية ثابتـا من غيرهم وبتقدير مقدر غيرهم وذلك الغير ليس الا الله تعـالى بالاتفاق ، فدل على أن فعل العبد خلق الله تعالى فان قيل : لم لا يجوز أن يكون المراد من الحكمة النبوة والقرآن • أو قوة الفهم والحسبة ؟ على ما هو قول الربيع ابن أنس • قلنا : الدليل الذى ذكرناه يدفع هـذه الاحتمالات وذاك لأنه بالنقل المتواتر ثبت انه يستعمل لفظ الحكيم فى غير الأنبياء فتكون الحكمة مغايرة للنبوة والقرآن • بل هى مفسرة اما بمعرفة حقائق الأشياء أو بالاقدام على الأفعال الحسنة الصائبة وعلى التقديرين فالمقصـود حاصـل فان حاولت المعتزلة

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٢ ص ٦٠٥ •

حمل الايتاء على التوفيق والاعانة والألطاف ، قلنا كل ما فعله من هذا الجنس فى حق المؤمنين ، قد فعل مثله فى حق الكفار ومع أن هذا المدح العظيم المذكور فى هذه الآية لا يتناولهم . فعلمنا أن الحكمة المذكورة فى هذه الآية شيء آخر سوى فعل الألطاف والله أعلم(١) .

قدمت لك تفسير آيتين فقط للفخر الرازى ، وقد رأيت من تفسيرهما أنه كان مهتما بعرض آراء أهل السنة فى القضاء والقدر ، وتأكيد أن الهدى والضلال منه سبحانه ، وأن فعل العبد مخلوق له تعالى ، وفى ثنايا هذا التفسير الكبير نجد الامام الرازى مهتما بتفنيد جميع آراء المعتزلة والرد عليها فى اسهاب وتطويل : مثل أن الايمان غير العمل(٢) ، لا كما يزعم المعتزلة أن الايمان هو التصديق والعمل . وأن الانسان اما مؤمن واما كافر ، وليس هناك منزلة بين المنزلتين(٣) وان ليس فى الدين تكليف بما لا يطاق(٤) .

وأن أفعاله سبحانه منزهة عن العلة لا كما يقول المعتزلة من أن افعال الحكيم لا تخلو من الحكمة(٥) . وأن عذاب القبر ونعيمه(٦) حق وثابت . وأن الخلود فى النار هو المكث الطويل لا المكث الدائم(٧) ، وأن اثابة الطائع غير واجبة عليه سبحانه بل تفضل منه وكرم وأنه اذا شاء أخلف وعيد العاصى فعفا عنه وصفح.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٢ ص ٥١٦ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٢ ص ١٨ و جـ٣ ص ٣٥٤ .
(٣) المصدر السابق جـ٣ ص ٣١ .
(٤) المصدر السابق جـ٢ ص ٣٤ .
(٥) المصدر السابق جـ٢ ص ٥ .
(٦) المصدر السابق جـ٢ ص ٥٣ .
(٧) المصدر السابق جـ٢ ص ٥٣ ، جـ٣ ص ١٧٩ .

لا كما يقول المعتزلة ، من انه يجب عليه سبحانه اثابة الطـائع ، وتعذيب العاصى(١) • وأن جميع أفعال العبد بارادته وخلقه ، لا كما يقول المعتزلة ان الله لا يريد الظلم ولا القبائح ولا يخلق الشرور والمعاصى(٢) وأن صاحب الكبيرة مؤمن فى المشيئة(٣) •

وأن الطاعة موافقة الأمر لا موافقة الارادة • لا كمـا يقول المعتزلة ان الطاعة موافقة الارادة(٤) •

(ب) تفسير محمود بن عمر الزمخشرى فى كتاب الكشـاف للآيتين السابقتين :

قال فى تفسير قوله تعـالى : « **ربنا لا تزغ قلوبنـا بعد اذ هديتنـا** •• » •

« **ربنا لا تزغ قلوبنا** » أى لا تبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا • « **بعد اذ هديتنا** » وأرشدتنا لدينك ، أو لا تمنعنا ألطافك بعد اذ لطفت بنا(٥) •

وقال فى تفسير قوله تعالى : « **يؤت الحكمة من يشاء** •• » • « يؤت » يوفق للعلم والعمـل به ، والحـكيم عند الله هو العالم العامل(٦) •

ويعلق أحمد بن المنير فى حاشيته على الكشاف مبينا أن الهدى خلق الله بقوله: « قال أحمد » المعتقد الصحيح ان الله هو الذى

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٢ ص ٦٠٨ و جـ٢ ص ٤٤٢ •
(٢) المصدر السابق جـ٣ ص ٣٤ ، ص ٣٥ •
(٣) المصدر السابق جـ٣ ص ١٧٧ •
(٤) المصدر السابق جـ٣ ص ٣٥٧ •
(٥) الكشاف جـ١ ص ١٧٦ •
(٦) الكشاف جـ ١ ص ١٦٣ •

يخلق الهدى لمن يشاء هداه وذلك هو اللطف لا كما يزعم الزمخشرى أن الهدى ليس خلق الله وانما العبد يخلقه لنفسه وان أطلق الله تعالى اضافة الهدى اليه فهو مؤول على زعم الزمخشرى بلطف الله الحامل للعبد على أن يخلق هداه ان هذا الا اختلاق وهذه النزعة من توابع معتقدهم السيىء فى خلق الأفعال وليس علينا هداهم ولكن الله يهدى من يشاء وهو المسئول ألا يزيغ قلوبنا بعد اذ هدانا .

« ومثل هذا التفسير من الزمخشرى ، ورجع الجدل الذى يثيره ابن المنير عليه يواجهنا على طول نصوص القرآن كلما جرى الحديث عن هداية العباد وضلالهم .

هكذا فى الآيتين ١٢٥ ــ ١٢٦ من سورة الأنعام « **فمن يرد الله أن يهديه** » أن يلطف به ولا يريد أن يلطف الا بمن له لطف « **يشرح صدره للاسلام** » يلطف به حتى يرغب فى الاسلام وتسكن اليه نفسه ويحب الدخول فيه « **ومن يرد أن يضله** » أن يخذله ويخليه وشأنه وهو الذى لا لطف له « **يجعل صدره ضيقا حرجا** » بمنعه الطافة حتى يقسو قلبه وينبو عن قبول الحق ، وينسد فلا يدخله الايمان .

« **وهذا صراط ربك مستقيما** » وهذا طريقه الذى اقتضته الحكمة وعادته فى التوفيق والخذلان »(١) .

بمثل هذا التأويل يخضع الزمخشرى مواضع القرآن المستعصية لنير الاعتزال ويعلو تهليل الشراح السنيين من نشوة الفرح عند موضع كالآية ٤١ من سورة المائدة « **ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم** » فهى تقرر فى صراحة

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٣١١ .

لا يختلف فيها الفهم أن الله (سبحانه) يريد فتنة العصاة ولا يريد أن يطهر قلوبهم . وأنهم عصاة بارادة الله وتقديره .

ولا يدع الزمخشرى لهذا القول الفصل ، الذى هو ظاهرى عنده فحسب سبيلا للتأثير عليه . فهو يقول : « **ومن يرد الله فتنته** » تركه مفتونا وخذلانه (فالفتنة نفسها غير صادرة عن الله).. « **أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم** » أن يمنحهم من ألطافه ما يطهر به قلوبهم » .

ونموذج تفسير الآيات التى يجرى فيها الحديث عن الأكنة التى يجعلها الله على القلوب والوقر الذى يجعله فى الآذان . كما فى قوله تعالى : « **ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا** »(١) .

فيقول الكشاف فى تفسيرها : « هذا تمثيل لنبو قلوب الضالين ومسامعهم . وما يظهر من اسناد الفعل الى ذاته (تعالى) فوجهه أن ذلك للدلالة على أنه أمر ثابت لايزول عنهم كأنهم مجبولون عليه »(٢) .

وايضا قد جاء فى القرآن على لسان اليهود اعتذارهم لتسويغ كفرهم : « **وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون** »(٣) . وفى التعبير : « **قلوبنا غلف** » وان جرى على لسان الكفار يشم المعتزلى شهادة بامكان أن تكون طبيعة قلوبهم هى المانع من قبول الاسلام ، على معنى أن الله هو الذى يخلقها للكفر ، ومن ناحية أخرى أن الارادة الطيبة أمر لا قدرة عليه ،

---

(١) سورة الانعام آية ٢٥ .
(٢) الكشاف جـ١ ص ٢٧٩ .
(٣) البقرة آية ٨٨ .

فينبغي استبعاد مثل هذا الافتراض الذى يفهم من الآية بتغيير يسير للنص فقرءوا بدلا من « غلف » بسكون اللام (جمع اغلف كأنه مغطى بغلاف) : غلف باقحام ضمة اخرى على اللام ، على أنه جمع غلاف أى وعاء ، وعلى ذلك بدا كلام اليهود لا على أنه اعتذار بل افتخار : أى قلوبنا أوعية « للعلم » وهذا الوجه قد يجىء أيضا مع الاحتفاظ بالقراءة المعروفة « غلف » طبقا للتفسير النحوى بأنه تخفيف : غلف بضم اللام واستعمال العربية لا ينافى هذا القياس(١) ٠

مقـــارنة :

وبعد ، فقد رأيت هذا الجدل الطويل والتمحل اللفظى من أجل تأييد مذهب ، أو الانتصار لطائفة ٠

واذا قرنا الشرح السابق ، بشرح الأستاذ الامام للقضاء والقدر ، ذلك الشرح الروحى العملى الذى يصرح مبدئيا بأن مسألة علم الله ومسألة السابق من حيث يتعلقان بأفعال العباد هى من سر القدر الذى لا تكاد العقول تصل اليه(٢) ٠ نرى أن الأستاذ الامام كان حكيما فى دعوته المسلمين أن يكفوا عن هذا الجدل العقيم الذى استمرت ناره بينهم زمانا طويلا وملئت كتب الكلام والتفسير بمناقشات طويلة عن افعال الرب وافعال العباد ٠ وهى مناقشات فارغة جوفاء لا تنشىء عقيدة ولا تزيد فى ايمان مؤمن ، ولا يفهمها الا فئة خاصة من الناس ٠ وما أجدر بنا أن نستجيب لدعوة القرآن وان نحمل المتشابه على المحكم وأن نقول **« آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الألباب »** ٠

---

(١) مذاهب التفسير الاسلامى : ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، ص ١٧٦ ــ ١٩٦ ٠

(٢) محمد عبده : رسالة التوحيد ص ١٧ ٠

الأســـاس الثـــامن

التحفظ فى الأخذ بما سمى بالتفسير المـأثور

والتحذير من الاسرائيليـات

١ ـ أسباب ضعف التفسير بالمـأثور :

نزل القرآن الكريم بالعربية الفصحى **« لسانا عربيـا غير ذى عوج »** ، وكان القرآن يخـاطب عربا خلصـا يفهمون القرآن ويتسابقون الى الامتثال والتنفيذ لأوامره • ويرون القرآن مشروحا شرحا عمليـا فى أخلاق الرســول صلى الله عليه وســلم وعاداته ومعاملاته • فيغنيهم ذلك عن طلب التفسير •

ومع هذا فربما استشكل على أحدهم معنى من القرآن فيسأل عنه النبى صلى الله عليه وسلم ، والنبى يجيبه تحقيقا لقوله تعالى : **« وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم »** •

ومن ذلك ما روى أنه لمـا نزل قوله تعالى : **« الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون »** ، قـال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأينا لم يلبس ايمانـه بظلم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : ليس كما تظنون وانما هو الشرك

ألم تسمعوا الى ما قال لقمـــان : ((**ان الشرك لظلم عظيم**)) ، فطابت أنفســهم(١) .

وأحيانا كان النبى صلى الله عليه وسلم يتكفل بتوضيح معنى الآية من القرآن ابتداء من غير ســؤال كما روى أنه عليه الصلاة والسلام قال يوم الأحزاب « شغلونا عن الصــلاة الوسطى صلاة العصــر » .

وبعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم كان المسلمون يلجئون الى علماء الصحابة بالتفسير مثل : عبد الله بن عباس ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبى بن كعب وزيد بن ثابت ، وأبى موسى الأشعرى ، وعبد الله بن الزبير .

وقد جعلهم أهلا للتفسير ما كان لهم من سعة المعرفــة بمفردات اللغة وأساليبها والاتصــال بالرسول صلى الله عليه وسلم والاطلاع علىأسباب النزول وعدم التحرج من الاجتهاد فى الفهم .

وفى عهد التابعين كثر التفسير النقلى ولجــأ المسلمون الى من اسلم من اليهود والنصــارى يسألونهم ويأخذون عنهم مع أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن تصــديق أهل الكتاب أو تكذيبهم .

ومما زاد ثقــة المســلمين بهم أن بعض أجلاء الصحابــة كان يجالسهم مثل عبد الله بن عباس الذى روى أنه كثيرا ما كان يجالس كعب الأحبار ويأخذ عنه .

وكان بطل الرواية فيما يتصــل باليهود من الآيات ــ وهب بن منبه ــ وهو ممن أســلم من اليهود ، وبطلها فيما يتصل بالنصارى من الآيات ــ ابن جريج ، وهو نصرانى الأصــل لأنه رومى ــ ويقال

---

(١) فتح البارى جـ ١ ص ٦٦ .

انه من الوضـــاع ، ولهذا كان النقل عن أهل الكتاب من أســباب ضعف التفسير بالرواية ٠

قال ابن خلدون فى التفسير النقلى : « وقد جمع المتقدمون فى ذلك وأوعوا الا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين والمقبول والمردود ٠ والسبب فى ذلك ان العرب لم يكونوا أهــل كتاب ولا علم وانما غلبت عليهم البداوة والأمية ، واذا تشــوفوا الى معرفة شيء مما تشوف اليه النفوس البشرية من أسباب المكونات وبدء الخليقــة وأسرار الوجود ، فانمــا يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ، ويستفيدونه منهم وهم أهــل التوراة الذين بين العــرب يومئذ بادية مثلهم ٠ ولا يعرفون من ذلك الا ما تعرفه العامــة من أهل الكتاب ٠ ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعيــة التى يحتاطون لها مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع الى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك ٠ وهؤلاء مثل كعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وعبد الله بن ســلام وأمثالهم ٠ فامتلأت التفاسير من المنقولات عندهم فى أمثال هذه الأغراض بأخبــار موقوفة عليهم ، وليست مما يرجع الى الأحكام فتتحرى فيها الصحة التى يجب بها العمل ٠ فتساهل المفسرون فى مثل ذلك وملئوا كتب التفسير بهذه المنقولات ، وأصلها كما قلنا من أهل التوراة الذين يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلون من ذلك الا أنهم بعد صيتهم وعظمت أقــدارهم لمــا كانــوا عليــه من المقامات فى الدين والملة ، فتلقت بالقبــول من يومئذ »(١) ٠

وهذا النوع من التفسير المعتمد على نقل الرواية عن الرسول أو اصحابه أو التابعين كثير ، ولكن الصحيح منه قليل ٠ ويظهر

---

(١) ص ٤٨١ : المقدمة ٠

أن القصاص والوضاع أدخلوا فيه كثيرا مما ليس منه لأغراض مختلفة حتى قال الامام أحمد : « ثلاثة ليس لها أصل ، التفسير والملاحم والمغازى »(١) .

ولهذا الضعف فى المروى من التفسير لم يقف المشتغلون به عند حد الرواية ، بل كان منهم من يدلى برأيه وما أداه اليه اجتهاده بعد أن يحكى ما أثر بالرواية مثل ابن جرير الطبرى .

وانصراف الجهود الى تفضيل رواية أو ترجيح أخرى تشتيت للفكر وصرف للجهد « الى خدمة هذه الروايات نفسها والى التفكير فى نطاقها . والغرض أن التفكير كان يجب أن يسير فى نطاق التفسير وأن الجهد يجب أن يوفر لفهم كلام الله تعالى لا لفهم كلام الناس فى تفسيره »(٢) .

٢ ـ رأى الامام فى المأثور ، والمتواتر :

ولذلك يوجه الامام نصيحته الى المهتمين بالروايات ونقل ما قاله العلماء فى كتب التفسير فيقول : « ان الله تعالى لا يسألنا يوم القيامة عن أقوال الناس وما فهموه ، وانما يسألنا عن كتابه الذى أنزله لارشادنا وهدايتنا وعن سنة نبيه الذى بين ما نزل الينا ، ، يسألنا هل بلغتم الرسالة ؟ هل تدبرتم ما بلغتم ؟ هل عقلتم ما عنه نهيتم وما به أمرتم »(٣) .

وقد يرفض الأستاذ الامام التفسير بالمأثور لما فيه من

---

(١) الاستاذ على حسب الله : القرآن الكريم ص ٥٩ .

(٢) فضيلة الاستاذ أحمد محمد المدنى : المجتمع الاسلامى فيما تنظمه سورة النساء ص ١١ .

(٣) الاستاذ الامام ، تفسير سورة الفاتحة ص ٢٠ ـ ٢١ .

الفساد وتناقض الروايات فى الآية الواحدة وعن الصحابى الواحد . مثل تفسير « الفجر » فى قوله تعـالى : « **والفجر وليال عشر** » . عن ابن عباس الفجر النهار كله . وعن ابن عباس أنه فجر أول يوم من المحرم منه تنفجر السـنة . وعنه أيضا صـلاة الصبح . وعن ابن عبـاس انه فجر يوم النحر وعن الضحاك فجر أول يوم من ذى الحجة لأن الله قرن الأيام به فقال وليال عشر أى من ذى الحجة . وعن ابن عباس هى العشر الأواخر من رمضان . وعنه أنها العشر الأول من المحرم أ هـ قرطبى »(١) . ولهذا الاضطراب الذى شاهدته يبتدىء الامام تفسيره لسورة الفجر بقوله : « كثر خلاف المفسرين والرواة فى معنى كل من الفجر وليال عشر الى آخر ما أقسـم به وقد يفسر الواحد منهم الفجر بمعنى . ثم يأتى فى الليالى العشر بما لا يلائمه ، وغالب ذلك يجرى على خلاف ما عودنا الله من نسق كتابه الكريم »(٢) .

والأستاذ الامام بهـذا يريد أن نرجع فى تفسير القرآن الى الفهم السليم والعقل الرشيد والقلب المتفتح وذلك فضل من الله يعطيه من يشاء من عباده وليس مقصـورا على السابقين ولا محجوبا عن اللاحقين .

أخرج البخارى فى صحيحه « أن عليـا بن أبى طالب سـئل هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء من دون المسلمين ، قال : لا ، الا فهما يؤتيه الله لرجل فى كتاب الله تعالى » .

وليس معنى ما تقدم أن الأسـتاذ الامام يرفض التفسـير المـأثور جملة ولكنه يقبل منه ما قامت الأدلة على صحته وقوة متنه وسلامة سنده وأصبح خبرا قطعيا يوجب اليقين .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٥٢٨ .

(٢) تفسير جزء عم ص ٧٧ .

« وحد التواتر هو ما نراه فى القرآن تعرفه طبقة عن طبقة يؤمن من تواطؤ كل منها على الكذب الى أن وصل اليك · لا تنكره فرقة من فرق المسلمين قاطبة »(١) ·

فمثلا يرى بعض المفسرين أن لفظ « الكوثر » الوارد فى سورة « الكوثر » هو اسم لنهر فى الجنة وأن الله منح النبى ذلك النهر لكن الأستاذ الامام ينكر ذلك ويرى أن الكوثر هنا انما يفيد ذلك الخير الذى أفاضه الله على الانسانية ، وهو الرسالة · أما أحاديث النهر فانها وان كثرت لا ترتفع الى مرتبة اليقين « فلا يصدق عليها اسم المتواتر ، خصوصا وأنه يظن بالرواة سهولة التصديق فى مثل هذا الخبر لما فيه من غرابة الكرامة وجمال الوصف ، فيسهل على كل راو الميل الى تصديق ما يقال له · وهذا يخل بشرط التواتر لأن أول شرط فيه ألا يكون فى الطبقات رائحة التشيع للمروى ذلك أن شرط صحة الخبر هو ألا يتضمن شيئا يمس التنزيه »(٢) ·

٣ ـ تأثر الامام بابن خلدون :

وقد تأثر الأستاذ الامام بابن خلدون · فالمعروف أن الامام شرح مقدمته لطلبة دار العلوم ، ويعتبر ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع الذى تأثر به الامام فى تفسير آيات كثيرة من القرآن تشير الى اسباب قيام الدول وانحطاطها وأن ذلك خاضع لظواهر اجتماعية لا تقل فى نظامها وانضباطها عن الظواهر الكونية ·

كما تأثر بمنهجه فى التاريخ الذى يقوم على نقد الأخبار

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٦٧ ·
(٢) رسالة التوحيد ص ١٦٨ ·

وتمحيصها وعرضها على القوانين الصحيحة للتاريخ قبل التسليم بها فان للتاريخ قوانين يخضع لها في روايته وأخباره ·

وابن خلدون يذكر في أول مقدمته هذا العنوان (المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذهبه والالماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر شيء من اسبابها) · ثم يقول : وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا . لم يعرضوها على أصولها ، ولا قاسوها بأشباهها . ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط(١) ·

ويكتب ابن خلدون فصلا عن أوهام المؤرخين وأخطائهم ثم ينتقل الى اخطاء المفسرين فيقول ناقدا تهاونهم في قبول الأقاصيص الموضوعة :

(فصل) وأبعد من ذلك وأعرق في الوهم ما يتناقله المفسرون في تفسير سورة « والفجر » في قوله تعالى : ((**ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، ارم ذات العماد**)) ·

فيجعلون لفظة ارم اسما لمدينة وصفت بأنها ذات عماد أي أساطين · وينقلون انه كان لعاد بن عوص بن ارم ابنان هما شديد وشداد ملكا من بعده وهلك شديد فخلص الملك لشداد ، ودانت له ملوكهم ، وسمع وصف ذكر الجنة فقال لأبنين مثلها ، فبنى مدينة ارم في صحارى عدن في ثلثمائة سنة ، وكان عمره تسعمائة سنة ، وأنها مدينة عظيمة قصورها من الذهب وأساطينها من

---

(١) مقدمة ابن خلدون : تعليق الدكتور على عبد الواحد وافى ص ٢٩١ ، مطبعة لجنة البيان العربى ١٣٧٦ هـ ــ ١٩٥٧ م ·

الزبرجد والياقوت وفيها اصناف الشجر والأنهـار المطردة ولما تم بناؤها سار اليها أهل مملكته حتى اذا كان منها على مسـيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم • ذكر ذلك الطبرى والثعالبى والزمخشرى وغيرهم من المفسرين • وينقلون عن عبد الله بن قلابة من الصحابة أنه خرج فى طلب ابل له فوقع عليها وحمل منها ما قدر عليه وبلغ خبره معاوية ، فأحضره وقص عليه فبحث عن كعب الأحبار وسأله عن ذلك فقال : هى ارم ذات العماد ، وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك أحمر أشقر قصـير على حاجبه خال وعلى عنقه خال • يخرج فى طلب ابل له ، ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال : هذا والله ذلك الرجل •

ويعلق ابن خلدون على كلام المفسرين السابق فينقده قائلا : وهذه المدينـة لم يسمع لها خبر من يومئذ ، فى شىء من بقاع الأرض وصحارى عدن التى زعموا أنها بنيت فيها هى فى وسط اليمن ، ومازال عمرانه متعاقبـا والأدلاء تقص طرقه من كل وجه ، ولم ينقل عن هذه المدينـة خبر ولا ذكرها أحد من الاخباريين ولا من الأمم • ولو قالوا أنها درست فيما درس من الآثار لكان أشبه • الا أن ظاهر كلامهم انها موجودة ، وبعضهم يقول انها دمشق ، بناء على أن قوم عاد ملكوها • وقد ينتهى الهذيان ببعضهم الى أنها غائبة وانما يعثر عليهـا أهل الرياضـة والسحر • مزاعم كلها أشـبه بالخرافات ، ويعلل ابن خلدون وقوع المفسرين فى هذا الخطـأ بقوله :

والذى حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الاعراب فى لفظـة ذات العماد أنها صفة ارم ، وحملوا العماد على الأساطين ، فتعين أن يكون بناء ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير بعاد ارم على الاضافة من غير تنوين • ثم وقفوا على تلك الحكايات التى هى أشبه

بالأقاصيص الموضــوعة ، والتى هى أقرب الى الكذب ، المنقولة فى عدد المضحكات · والا فالعماد الآخبية بل الخيــام ، وان أريد بها الأساطين فلا بدع فى وصفهم بأنهم أهل بناء واساطين على العموم · بما اشتهر من قوتهم ، لا أنه بناء خاص فى مدينة معينة او غيرها · وان أضيفت كمــا فى قراءة ابن الزبير فعلى اضافــة الفصيلة الى القبيلة ، كما تقول قريش كنانة ، والياس مضر وربيعة نزار · وأى ضرورة الى هذا المحمل البعيد الذى تمحلت لتوجيهه أمثال هذه الحــكايات الواهيــة التى ينزه كتــاب الله عن مثلهــا لبعدها عن الصحــة »(١) ·

ولكلام ابن خلدون المتقدم اثره الواضح فى تفسير الأســتاذ الامام لقوله تعالى : « **ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، ارم ذات العماد** » اذ ينبه الى خطــأ المفسرين فى حكاية القصص الســابق بقوله : « وقد يروى المفسرون هنا حكايات فى تصــوير ارم ذات العمــاد كان يجب أن ينزه عنها كتــاب الله فاذا وقع اليك شىء من كتبهم ونظرت فى هــذا الموضع منها فتخط ببصرك ما تجده فى وصف ارم واياك ان تنظر فيه »(٢) ·

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، تحقيق الدكتور وافى ص ٢٢٨ ·
(٢) تفسير جزء عم ص ٧٩ ·

الأســـاس التاســـع

اهتمامه بتنظيم الحيـــاة الاجتماعية

على أســـاس من هدى القرآن

اذا أمعنا النظر فى تاريخ الأديان السماوية وجدناها جميعا من هدى الله . جاءت لتنظيم المجتمع من ناحية ولتصحيح العقيدة من ناحية أخرى .

وكل نبى كان يعالج الأخطاء الشائعة فى مجتمعه . على نحو ما فعل شعيب فى محاربته لتطفيف الكيل والميزان . وما فعله لوط فى حربه للشذوذ الجنسى وهكذا .

حتى اذا جاء الاسلام كان دينا عاما لجميع الناس : **« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين »** .

دينا خالدا يحمل بين طياته عوامل بقائه ومقومات خلوده : **« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »** .

ولقد جاء الاسلام ، والمجتمع العربى بل والانسانى كله فى دمار وانهيار . العرب يئدون البنات ، ويقيمون الحروب لأتفه الأسباب وينهبون تجارة القوافل السائرة فى الصحراء .

والفرس يعبدون النار ، وتنتشـــــر بينهم المذاهب الفاسدة كالمزدكية والمانوية التى تزعم اباحة النساء والأموال للناس جميعا .

والروم فى حرب طاحنة حول طبيعة المســيح . والمذاهب المسيحية ، وهى حرب امتد لهيبها الى مصر ، فكان هنــاك صراع رهيب بين اتباع المذهب الملكانى والمذهب اليعقوبى . وكان الأول مذهب الهيئة الحاكمة ، والثانى مذهب سواد الشعب .

فى وسط هذه الظلمات الحالكة انبثق نور الاسلام من بلاد العرب وهاجر النبى (صلى الله عليه وسلم) من مكة الى المدينة .

وعنى القرآن المدنى بتنظيم المجتمع الاسلامى تنظيما شاملا حتى يضمن استقرار الأسرة وترابط الأفراد والجماعات ، وقرر القرآن المدنى أيضا حق الفقير والمحتاج واليتيم والقريب ووضح حق الزوج والزوجة ، ورسم لهما سبيل الحياة الهنيئة السعيدة . ووضع القواعد لاصلاح ما عساه ينشب بينهما من نزاع . ورســم نظام المواريث وأمر باتباعه وحذر من الخروج عليه .

وبالجملة فان التنظيم الاســــلامى الجديد حول العرب من مجموعة متدابرة متناثرة الى قوة متحدة متعاونة متضامنة .

وحمل الاسلام معه هذا الاصلاح الاجتماعى الى كل البلاد التى فتحها فى فارس والروم ومصر وغيرها .

ولكن اهمال هذه التعاليم ، وضعف المسلمين فى عصورهم المتخلفة ، وتفوق غيرهم عليهم جعلهم يشكون فى نظم الاســـلام وقدرتها على تنظيم المجتمع الحديث .

والمغلوب دائما مولع بتقليد الغالب .

وهنا نهض الأستاذ الامام ووضح أن القرآن جامع لأصـــــول

العمران وسنن الاجتماع ويوافق لمصلحة الناس في كل زمان ومكان .

١ – تنظيم المجتمع الاسلامي :

ان واجبنا أن ننظم مجتمعنا على أساس متين من هدى القرآن مع تطوير أوامره بما يناسب الحياة الحديثة . ويتفق مع المصلحة العامة . فاذا دعا القرآن الى انفاق المال في سبيل الله ، فان ذلك يعم انشاء الجمعيات الخيرية ، والمؤسسات التعليمية والملاجىء والمستشفيات ، وكل ما من شأنه أن ينهض بالمجتمع لأن صلاح المجتمع في ذلك العصر لا يتم الا بهذا التنظيم . وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب .

وفي تفسير الامام لقوله تعالى : ((**فأما اليتيم فلا تقهر**)) يقول : أي فلا تذله بل ارفع نفسه بالأدب وهذبه بمكارم الأخلاق، ليكون عضوا في جماعتك ينفعها وينتفع به ولا يفسده التدليل والهوان فيكون جرثومة فساد يتعدى أذاها الى كل من يخالطها من امتك . ولو علم الناس ما في اهمال تربية الأيتام من الفساد في الأمة لقدروا عناية الله بأمرهم في كتابه قدرها . ولبذلوا من سعيهم ومن مالهم في اصلاح حال الأيتام كل ما استطاعوا . ولو أحس كل واحد بأن الموت قريب منه وأنه هدف لنيله لا يدرى حتى يأخذه عن ولده فيتركه اما غنيا يأكل أمواله الأوصياء ، أو فقيرا يستذله الأدنياء ، لتسابقوا الى تقويم أمر اليتيم ، تسابقهم الى اللذة والنعيم[١] .

وقد أوصت الآيات الأولى من سورة النساء باليتيم وحذرت الوصي من اتلاف ماله . والأستاذ الامام يعلق على هذه الآيات

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٢٣ .

بقوله : « وكأن هؤلاء الأوصياء الجبناء الذين نعرفهم لم يسمعوا قول الله فى ذلك قط ، فقد كثرت فيهم وفى غيرهم الخيانة وأكل أموال اليتامى والسفهاء والأوقاف بالحيل حتى أنه يمكنني أن أقول انه لا يوجد فى القطر المصرى عشرة أشخاص يصلحون للوصاية على اليتيم أو السفيه أو الوقف . وقد نص الفقهاء على أن النظر على الوقف كالوصاية على اليتيم . فانظروا الى هذه الدقة فى الآية الكريمة من الأمر باختبار اليتيم ودفع ماله اليه عند بلوغه رشده . ومن النهى عن أكل شىء منه بطرق الاسراف ومبادرة كبره ، ومن الأمر بالاشهاد عليه عند الدفع ثم التنبيه الى مراقبة الله تعالى التى تتناول جميع ذلك(١) .

٢ — حق الفـــرد والمجتمـــع :

وقد اهتم الأستاذ الامام كثيرا فى تفسيره باشعار الفرد بحق المجتمع عليه ، وأن الانسان لا يكون انسانا الا بأنسه بالآخرين واهتمامه بمصالحهم والعمل على تخفيف حدة التوتر بين الأغنياء والفقراء وأن يكون المسلم حسن المعاملة مع أهله وجيرانه وذوى رحمه وقرابته .

قال فى تفسير قوله تعالى : « **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن الســـبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا** »(٢) .

اذا قام الانسان بحقوق الله تعالى فصحت عقيدته ، وصلحت أعماله ، وقام بحقوق الوالدين فصلح حالهما وحاله . تتكون بذلك

---

(١) تفسير المنار جـ٤ ص ٣٩١ .
(٢) سورة النساء آية ٣٦ .

وحدة البيوت الصغيرة المركبة من الوالدين والأولاد ، وبصلاح هذا البيت الصغير يحدث له قوة . فاذا عاون أهله البيوت الأخرى التى تنسب الى هذا البيت بالقرابة وعاونته هى أيضا بكون لكل من البيوت المتعاونة قوة كبرى يمكنه أن يحسن بها الى المحتاجين الذين ليس لهم بيوت تكفيهم مئونة الحاجة الى الناس الذين لا يجمعهم بهم النسب وهم الذين عطفهم على ذوى القربى : ((**واليتامى والمساكين**)) فان الله تعالى يوصى باليتامى فى مثل هذا المقام لأن اليتيم يهمل أمره بفقده الناصر القوى الغيور وهم الأب . أو تكون تربيته ناقصة بالجهل الذى هو جناية على العقل . أو فساد الأخلاق الذى هو جناية على النفس . وهو بجهله وفساد اخلاقه يكون شرا على أولاد الناس يعاشرهم فيسرى اليهم فساده وقلما تستطيع الأم أن تربى أولادها تربية كاملة مهما اتسعت معارفها .و كذلك المساكين لا تنتظم الهيئة الاجتماعية الا بالعناية بهم وصلاح حالهم ،فان أهمل أمرهم الأغنياء كانوا بلاء وبيلا على الناس . وقلما ينظر الناس فى المسكنة الى غير العدم وصفر الكف ، والمهم معرفة سبب ذلك فان من الناس من يكون سبب عدمه وعوزه ضعفه وعجزه عن التكسب . أو نزول الجوائح السماوية التى تذهب بماله من غير تقصير منه وهذا هو المسكين الحقيقى الذى تجب مواساته بالمال الذى يقع موقعا من كفايته ، ومنهم العادم الذى ما عدم المال الا بالاسراف والتبذير والمخيلة والفخفخة الباطلة . ومنهم العادم الذى ماعدم المال الا لكسله واهماله للكسب طمعا فيما فى أيدى الناس واتكالا عليهم . أو بسلوكه فيه مسلك الغش والخيانة حتى يفضح سره ويظهر أمره فيحبط عمله .

فالمســـاكين على ضـــربين : مسكين معذور يســـاعد بالمـال ينفقه أو يســاعد على تحصيله بكسبه أن كان قادرا على ذلك .

ومسكين غير معذور يرشد الى تقصـــيره ولا يســاعد على اســـرافه وتبذيره ، بل يدل على طرق الكســب فان اتعظ وقبل النصح ، والا ترك أمره الى أولى الأمر والله بصير بالعباد(١) .

وواضح أن الامام يدعو الى تنظيم الاحسان حتى يثمر الثمرة المرجوة أما الكســالى والمســرفون فالاحســان اليهم تعطيــل لمواهبهم وشــل لعناصــر الانتاج فى الأمة . ولذا يجب توجيههم ليكونوا مصــدر خير واسعاد لا مصــدر تأخر وكساد .

٣ ــ الحكمة من تشــريع العبــادات :

وبين الأستاذ الامام أن الحكمة من تشـــريع العبادات فى الاسلام هى تهذيب الروح وتربية الضـــمير وتقويم الخلق واصلاح السلوك الانسانى ليكون المسلم سلما لأخيه المســلم . فيغدو وقد سلم الناس من لسانه ويده ، ويكون المؤمن أمينا على أموال الناس وأعراضهم .

وكل عبادة لا يحقق الغرض منها فهى مردودة ، لأنها فقدت حياتها وقوامها ، والثمرة المرجوة منها .

قال معلقا على تفسير قوله تعالى :« **فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون ويمنعون الماعون** »

الماعون كل ما يستعان به . فأولئك الذين يصلون ولا يأتون من الأعمـــال الا ما يرى الناس ما لا يكلفهم بذل شىء من مالهم

---

(١) تفسير المنار جـ٥ ص ٩١ .

ولا يخشـــــون منه ضررا يلحق بأبدانهم أو نقصا يلم بجاههم ثم يمنعون الناس معونتهم ولا ينهضـــون بباعث الرحمة الى ســـد حاجتهم وتوفير ما يكفل راحتهم وأمنهم وطمانينتهم . أولئك لا تنفعهم صـــــلاتهم ولا تخرجهم من حد المكذبين بالدين ، لا فرق فى ذلك بين من وســــموا أنفســـــهم بســـمة الاسلام أو غيره . فان حكم الله واحد لا محاباة فيه للأسماء المنتحلة التى لا قيمة لها الا بمعانيها الصحيحـة المنطبقة على مراده تعالى من تحديد الأعمـال وتقرير الشـــــرائع ، فخاصـــــة المصدق بالدين التى تميزه عمن ســـــواه من المكذبين هى العدل والمرحمة وبذل المعـــروف للناس ، وخاصـــــة المكذب التى يمتاز بها عن المصـــدقين هى احتقار حقوق الضـــعفاء وقلة الاهتمام بمن تلدغهم آلام الحاجة وحب الأثرة بالمال والتعزز بالقوة ومنع المعروف عمن يســـتحقه من الناس ، فهل تجد نصـــا أصـــرح من هذا فى تعريف التصديق بالدين وبيان الصفات التى يعرف بها وفى شـــــرح التكذيب بالدين وتفصـــــيل لوازمه وما يتميز به عن التصـــديق ؟ . فهل للمســـــلمين أى الذين يزعمون أنهم يؤمنون بمحمد (صـلى الله عليه وسلم) وبما جاء به أن يقيســـوا أحوالهم وما يجدونه من أنفســـــهم بما يتلونه فى هذه الســـورة الشـــريفة ليعرفوا هل هم من قســـــم المكذبين أو المصــــدقين وليقلعوا عن الغرور برســـــم هذه الصـــــلاة الذى لا أثر له الا فى ظواهر أعضائهم. وبهذا الجوع الذى يســـمونه صـــــياما ولا أثر له الا فى عبوس وجوههم ، وبذاءة ألســـــنتهم ، وضـــــياع أوقاتهم فى اللهو والبطالة . وليرجعـــــوا الى الحق من دينهم فيقيموا الصـــــلاة ويحيوا صـــــورتها بالخشـــــوع وتطامن القوى الانسانية لقوة العلى الأعلى فلا يخرجون من الصـــــلاة الا وهم ذاكرون أنهم عبيد له يلتمســـــون رضـــــاه ، فى رعاية حقوق براياه ، ويجعلوا

من الصـــوم مؤدبا للشـــهوة ومهذبا للرغبة ورادعا للنفس عن الأثرة . فلا يكون فى صــومهم الا الخــير لأنفســهم ولقومهم . ثم يؤدوا الزكاة المفروضــة ولا يبخلوا فيمــا ينفع الخاصــة والعامة : ((أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها)) ، أفلا ينظــرون الى ما نزل بهم من الضــعف والذلــة وتســلط الأمم عليهم وانتقاصها أرضــــهم من كل جانب ، فعلموا أن هذا هو عقاب الله عقاب الله للمكذبين . فيطلبوا النجاة من هذا كله يأخذ ســـبيل المتصــــدقين وينزعوا عن الانخداع بما ســـولته لهم أوهام بعض من يدعى العلم منهم . فان العيان قد كذبهم وأظهر أن سنة الله فى الخلق لا تتبدل ، وأن صــــورة الانتســـاب الى دين لا تغنى عن اتباع هديه الصحيح الذى يدل عليه النص بعد التواتر فى النقل ، وجادة التدبر من العقل(١) .

٤ ــ تقــوية شــــخصية المســلم :

ولم يكن الاستاذ الامام يســـير فى تفســـيره فى دائرة مقفلة بعيدا عن عصــره وأحداث الحياة فى زمنه . بل انه تجاوب مع عصـــــره فقد خب فى الحياة الاجتماعية ووضــــع . فرأس الجمعية الخيرية الاســلامية ، وأذكى نار الثورة العرابية ، ورأس تحرير الوقائع المصرية .

فلابد أن يكون تفســـــيره للقرآن متأثرا برغبته فى الاصلاح الاجتماعى ومحاربته لعيوب الامة التى خلفها الاســـتعمار من الخنوع والتواكل والكســـل والنفاق وحب النفس والأنانية ، محاولا فى نفس الوقت تقوية شــخصية المســـلم وامدادها بما يؤكد ذاته وينمى مواهبه من حرية الفكر وســـعة الأفق والاهتمام

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٦٧ .

بالوطن . ومســـاعدة المحتاج وكره الاحتلال وتوحيد الشعور بين الأمة الاسلامية .

فى سورة العاديات « يقسم الله بالخيل التى تعدو ويشتد عدوها حتى يخرج الشـــرر من حوافرها لتهجم على عدو وقت الصباح لتأخذه على غرة » .

وعند تفسير الأستاذ الامام لهذه السورة ينتهز الفرصة ليبين ما لفن ركوب الخيل من شأن فى الاسلام . لا باعتباره من قبيل الفنون الرياضية ، بل كاعداد حربى نافع للدفاع الوطنى .

وبعد أن ذكر الامام قوله تعالى : **« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم »** ، وأشار الى ما ورد من أحاديث نبوية فى دعوة المسلمين الى أن يكونوا فى مقدمة فرســـان الأرض مهارة فى ركوب الخيل وأن يتنافسوا فى قنية عقائلها . قال : من أعجب العجب أن ترى أمما هذا كتابها، قد أهملت شأن الخيل والفروسية ، الى أن صـــار يشـــار الى راكبها منهم بالهزء والســـخرية ، واخذت كرام الخيل تهجر بلادهم الى بلاد أخرى . أليس من أغرب ما يستغرب أن أناسا يزعمون أن هذا الكتاب كتابهم يكون طلاب العلوم الدينية منهم أشد الناس رهبة من ركوب الخيل ، وأبعدهم عن صفات الرجولية حتى كان من أحد أساتذتهم المشـــار اليهم بالبنان — عندما كنت أكلمه فى منافع بعض العلوم وفوائدها فى علم الدين أن قال : « اذا كان كل ما يفيد فى الدين نعلمه لطلبة العلم كان علينا أن نعلمهم ركوب الخيل » قال ذلك ليفحمنى وتقوم له الحجة على . كأن تعليم ركوب الخيل مما لا يليق ولا ينبغى لطلبه العلم وهم يقولون ان العلماء ورثة الأنبياء فهل هذه الأعمال وهذه العقائد تتفق مع الايمان بهذا الكتاب(١) .

---

(١) تفسير جزء عم ص١٤٤ ــ ١٤٥ .

٥ ــ الدعـــوة الى التعليم :

وحض الامام على التعليم ودعا اليه فى كثير من مواضـــع تفســيره باعتبــاره من أهم الوســائل لاصلاح المجتمع المصرى .

وبين أن التعليم يعود على المجتمع بالتماســـك والترابط . ويحقق الروح الجماعية بين الافراد ويرفع المســـتوى الثقافى والفكرى ، وبالتالى يعود على الوطن بالعز والارتقاء .

(أ) وقد ذكر القرآن العلم فى أكثر من موضع . وحث النبى (صلى الله عليه وسلم) على طلب العلم . بل ان أول آية نزلت من القرآن تناولت شأن العلم . ولذلك نجد الامام عند تفسيره لهذه الآيات الأولى من ســـورة اقرأ وهى ((**اقرأ باســم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم**)) يبين الامام فى تفســـيره فضـــل العلم ويوضـــح أنه « لا يوجد بيان أبرع ولا دليل أقطع على فضـــل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه من افتتاح الله كتابه ، وابتدائه الوحى بهذه الآيات الـــباهرات . فان لم يهتد المســـلمون بهذا الهدى . ولم ينبههم النظر فيه الى النهوض الى تمزيق تلك الحجب التى حجبت عن أبصـــارهم نور العـــلم ، وكســـر تلك الأبواب التى غلقها عليهم رؤساؤهم وحبســـوهم بها فى ظلمات من الجهل ، وان لم يسترشدوا بفاتحة هذا الكتاب المبين . ولم يستضيئوا بهذا الضياء الساطع . فلا أرشدهم الله أبدا(١) .

(ب) وبين الامام أن التعليم ليس مجـــرد حشـــو الذهن بالمعلومات ولكنــه الاهتمــام بالشخصــية وتربيتها وتهذيبها حتى

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٢٦ .

تكون لبنة صالحة فى صرح الوطن . وبالتالى يؤدى التعليم الى خلق المواطن الصـــــالح . فسبق الامام وزارة التربية والتعليم بخمســــين عاما حيث يقول : « ان الانسان لا يكون انســـانا حقيقيا الا بالتربية . وليست هى الا عبارة عن اتباع الاصـــول التى جاء بها الأنبياء والرســـلون من الاحكام والحكم والتعاليم .. تعلم الانســـان الصـــدق ، والأمانة . ومحبة نفسه . فاذا تربى الانسان احب نفسه لأجل أن يحب غيره . واحب غيره لأجل أن يحب نفسه .

اذا تربى الانسان أحس فى نفسه انه سعيد بوجود الآخر معه . ولكن نحن فى وسط لا يحس احدنا الا بأنه شقى بوجود غيره . وقد ذهبت الثقة بيننا أدراج الرياح وخلفها الشـــكوك والريب والظنون الأثيمة . المولدة للوساوس والأوهام . ولا شقاء للمرء أعظم من وجود ضميره فى هذا الشقاء .

ولو كنا متربين لا نبث فينا احســـاس واحد ، يؤلف بين شـــعورنا وحاجاتنا ، وحينئذ يحس كل فرد فينا بأن عليه وظيفة يؤديها لنفسه وغيره .

« ان العلم الحقيقى هو الذى يعلم الانسان العلاقة الموجودة بينه وبين غيره من أفراد جماعته . فهو اذا يعلم الانسان : من هو ؟ ومن معه ؟ فيتكون من ذلك شعور واحد . وروابط واحدة ، هى ما يسمونه بالاتحاد .

الا ان الاتحاد ثمره لشـــجرة ذات فروع واوراق وجذوع وجذور ، وهى الأخلاق الفاضلة بمراتبها و فعلى المعلمين أن يربوا أنفسهم تربية اسلامية حقيقية، ليجنوا تلك الثمرة ، وبغير ذلك كل أمل باطل وكل الأمانى أحلام وأوهام . وكل احتجاج بغير سعى عجز . الناس فى كل الأمم أكفاء فى التمثيل ولا نقص فى

الدنيا الا من جهة العقول والأخلاق ، وهى لا تكمل الا بالتربية . وما وراء ذلك من العلوم لا يبث فيها غير اللقلقة والهذيان(١) » .

« والسبب فى فقر البلاد عدم سريان روح التربية الشرعية الفعلية ، التى تجعل احساس الانسان بمنافع بلاده كاحساسه بمنافع نفسه ، وشعوره بأضرار وطنه كشعوره بأضرار ذاته . ان لم نقل تجعل الاحساس الأول أقوى من الثانى ، وتزيد فى احساس الانسان بمنافعه ومضاره(٢) .

« وطالما تشوقت النفوس لأن تكون التربية فى المدارس على هذا النمط المفيد الذى عول عليه جميع الأمم المتمدينة فى مبادىء تعاليمهم . فان من تتبع قوانين التعليم فى الممالك الأوروبية ، رآها بأسرها موجهة للابتداء بالتعاليم الدينية ، والاستمرار عليها الى ما يزيد على ست سنوات تقريبا(٣) » .

(ج) ودعا الامام الى اصلاح برامج التعليم والعناية بالتعليم الدينى ، وبين أنه لا يكفى فى التعليم الدينى الاستظهار والحفظ لآيات القرآن بل لابد من العناية أولا بتوضيح العقيدة الاسلامية ، وتحبيبها الى النفوس حتى ينشأ المسلم محبا لربه مقتنعا بفضائل دينه ولا يتم ذلك الا عن طريق القدوة الحسنة ، والسلوك العملى السليم ، الذى يتفق مع هدى القرآن والسنة وأعمال الصحابة . ولذلك وضح الامام « أن اصلاح الجداول — فى التعليم — لا يتم بأن يدرج فى فنون المدارس الاسلامية بعض الكتب الفقهية ، مع بقاء التعليم على طرقه المعهودة فى المساجد ، وفى دروس بعض

---

(١) تاريخ الامام . جـ٢ ص ٤٦٩ .
(٢) المصدر السابق جـ٢ ص ١٤٤ .
(٣) المصدر السابق جـ٢ ص ٨١ .

العلماء . فان العلوم العملية اذا لم تبن على عقائد صحيحة وايمان صادق ، لا تلبث أن تضمحل ولئن ثبتت فانما تسوق الى أعمال خالية من النيات ، وخاوية من سر الاخلاص . نتكون أشبه شيء بالباطلة ، فى عدم ترتب الأثر المطلوب عليها ، كما قدمنا .

فلابد أن يوجه النظر الى فن تقوى به العقيدة ، ويستحكم سلطانها على العقول ، ثم الى تربية تذكر بما تنال النفس من ذلك الفن . فيكون التذكار مستحفظا لما يصل اليها منه ، ثم الى فن الفقه الباطنى — الى فن الضمير — وهو ما تعرف به احوال النفس وأخلاقها والمهلك منها : كالكذب والخيانة والنميمة والحسد والجبن ، وسائر الرذائل ، والمنجى منها : كالصدق والأمانة والرضا والشجاعة ، وسائر الفضائل ، ويضم الى ذلك باقى علم الحلال والحرام ، على ما هو مذكور فى الكتاب والسنة ومتفق عليه بين أئمة الملة الاسلامية ، ثم الى تربية تحفظ ذلك وتروض على العمل بما تعمل به .

« ثم يكون التعليم فى هذه الفنون المذكورة ، والتربية ، على وجه يتفق مع قواعدها ، مستندين الى الشرع الشريف ، بحيث نذكر مآخذها من القرآن والسنة الصحيحة وما صح أثره ومن أقوال الصحابة وعلماء السلف الأول ومن حذا حذوهم ، كحجة الاسلام الغزالى وأمثاله .

فالمقصد بالذات علمان (علم الظاهر ، وعلم الباطن) وهما أصلان ومجموعهما ركن الاصلاح ، والركن الآخر « التربية » بما يهديان اليه حتى تصير العلوم ملكة راسخة . تصدر عنها

الأفعال بلا تعدل ، ثم يتبعها فن آخر يقوى على الغرض منها هو فن التاريخ الدينى خصوصا سيرة النبى (صلى الله عليه وسلم) وسيرة أصحابه ، والخلفاء الراشدين(١) .

(د)) وكان الأستاذ الامام من أشـــــد الناس حرصا على تثقيف الفتيات المسلمات تثقيفا يعينهن على أداء رســـــالتهن فى نهضــــة البلاد الاســـــلامية(٢) .

وكان يرى أن الأم الجاهلة عاجزة عن تربية أبنائها ، وعن بث خصال الخير والفضيلة فيهم . « وأنهما حين تقول لابنها خذ هذا الشيء وأخفه عن الأعين ، تعلمه الأنانية . وقد تقول له اذا سألك أخوك فلا تخبره أنك أخذت شيئا ، فتعلمه أخس خصال الرجال وهو الكذب(٣) » .

ولذلك دعا الى تعليم البنات ووضح ان القرآن والسنة دعوا الى تعليم المرأة لأن العلم محمود فى ذاته ولأنه وسلية الى الكمال ، ولتستطيع المرأة المسلمة أن تشرح أهداف الاســـلام وآدابه . وتدافع عن عقائده ومثله فى المجامع الدولية والمؤتمرات العالمية . ولتستطيع اقنـــاع الخصـــوم ومنـــاظرة أعـــداء الاســلام . كمـــا قـــال تعـــالى : ((**فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين(٤)**)) .

---

(١) تاريخ الامام جـ٢ ص ٤٠٩ ــ ٤١١ .

(٢) عثمان أمين ــ رائد الفكر المصرى ص ٢٠٧ .

(٣) دكتور محمد البهى محاضرات عن فلسفة محمد عبده لطلبة ليسانس دار العلوم عام ١٩٥٥ .

(٤) سورة آل عمران آية ٦١ .

وقد تأثر بدعوة الامام الى تعليم المرأة كثيرون — وان انحرف بعضهم بها .

وفى مقدمة من سار فى طريق الامام السيد رشيد رضا حيث يقول معلقا على تفسير الامام للآية السالفة :

« وفى الآية ما ترى من الحكم بمشاركة النساء فى الاجتماع للمباراة القومية والمناضلة الدينية . وهو مبنى على اعتبار المرأة كالرجل حتى فى الأمور العامة الا ما استثنى منها ككونها لا تباشر الحرب بنفسها بل يكون حظها من الجهاد خدمة المحاربين كمداواة الجرحى . وقد علمنا مما تقدم أن الحكمة فى الدعوة الى المباهلة هى اظهار الثقة بالاعتقاد واليقين فيه ، فلو لم يعلم الله ان المؤمنات على يقين فى اعتقادهن كالمؤمنين لما أشركهن معهم فى هذا الحكم فأين هذا من حال نسائنا اليوم . ومن اعتقاد جمهورنا فيما ينبغى أن يكن عليه ؟ لا علم لهن بحقائق الدين ولا بما بيننا وبين غيرنا من الخلاف والوفاق ولا مشاركة للرجال فى عمل الأعمال الدينية ولا الاجتماعية فهل فرض الاسلام على نساء الأغنياء ولا سيما فى المدن الا يعرفن غير التطرس والتطرز والتورن(١) . وعلى نساء الفقراء ، ولا سيما القرى والبوادى : أن يكن كالأتن الحاملة والبقر العاملة ؟ وهل حرم على هؤلاء وأولئك علم الدنيا والدين . والاشتراك فى شىء من شئون العالمين ؟ كلا بل فسق الرجال عن أمر ربهم فوضعوا النساء فى هذا الموضع بحكم قوتهم فصغرت نفوسهن وهزلت آدابهن وضعفت دياناتهن ونحفت انسانيتهن وصرن كالدواجن فى البيوت

---

(١) التطرس : التفرق فى الطعام والشراب . والتطرز فى اللباس توخى الفاخر النفيس منه . والتورن ، المبالغة فى التطيب والتنعم .

او السوائم فى الصحراء . او السوانى على السواقى والآبار أو ذوات الحرث فى الحقول والغيطان ، فساءت تربية البنين والبنات ، وسرى الفساد الاجتماعى من الأفراد الى الجماعات فعم الأسر والعشائر والشعوب والقبائل ، ولبث المسلمون على هذا الجهل الفاضح أحقابا . حتى قام فيهم من يعيرهم باحتقار النساء واستعبادهن ويطالبونهم بتحريرهن ومشاركتهن فى العلم والأدب وشئون الحياة . منهم من يطالب بهذا اتباعا لهدى الاسلام وما جاء به من الاصلاح ، ومنهم من يطالب به تقليدا لمدنية أوروبا . وقد استحسنت الدعوة الأولى بالقول دون العمل وأجيبت الدعوة الأخرى بالعمل ، على ذم الأكثرين لها بالقول . فأنشأ المسلمون يعلمون بناتهم القراءة والكتابة وبعض اللغات الأوروبية والعزف بالآلات اللهو وبعض أعمال اليد كالخياطة والتطريز ، ولكن هذا التعليم لا يصحبه شىء من التربية الدينية ولا من اصلاح الأخلاق والعادات ، بل هو من عوامل الانقلاب الاجتماعى الذى تجهل عاقبته .

٦ ــ محاربة الترف :

وحارب الأستاذ الامام الترف والبذخ والاسراف الذى كان متفشيا فى بلاط الحاكم ووجوه البلاد . وبين أهمية المال ، وأنه قوام الدولة ، وشنع على علماء المساجد تزهيدهم الناس فى الدنيا حتى أخلدوا الى الأرض وانقطع جدهم ومجدهم . ففى تفسير قوله تعالى : **« ولا تؤتوا السفهاء أموالكم »** يقول : وانما قال أموالكم ولم يقل أموالهم مع أن الخطاب للأولياء والمال للسفهاء الذين فى ولايتهم للتنبيه على أن التكافل فى الأمة واعتبار مصلحة كل فرد من أفرادها عين مصلحة الآخرين . كما قلنا فى آيات أخرى .

« التى جعل الله لكم قواما » . وفى هذه الجملة من الآية تحريض على حفظ المال وتعريف بقيمته . فلا يجوز للمسلم أن يبذر أمواله ، وكان السلف من أشد الناس محافظة على ما فى أيديهم وأعرف الناس بتحصيل المال من وجوه الحلال ، فأين هذا مما نسمعه من خطباء مساجدنا من تزهيد الناس وغل أيديهم واغرائهم بالكسل والخمول . حتى صار المسلم يعدل عن الكسب الشريف الى الكسب المرذول ، من الغش والحيلة والخداع . ذلك أن الانسان ميال بطبعه الى الراحة . ثم انه لابد له من الكسب فيختار أقله سعيا وأخفه مئونة ، وهو أخسه وأبعده عن الشرف . على أن هذا التزهيد فى الدنيا من هؤلاء لم يأت بما يساق لأجله من الترغيب فى الآخرة والاستعداد لها . بل ان خطباءنا ووعاظنا قد زهدوا الناس وقطعوهم عن الآخرة فخسروا الدنيا والآخرة . وذلك هو الخسران المبين . وما ذلك الا لجهلهم وعدم عملهم بما يعظون به غيرهم ، والواجب على المسلم العارف بالاسلام أن يبين للناس الجمع بين الدنيا والآخرة[1] .

(أ) وأنت تشاهد أن الامام يدعو أئمة المساجد أن يتجهوا اتجاها عمليا اجتماعيا فى خطبهم ووعظهم . وأن يكون الدين وسيلة للنهوض بالمجتمع . ودعوة لبذل الجهد وزيادة الانتاج . وتلاحظ الآن أن نغمة الزهد فى الدنيا والبعد عنها بدأت تنحسر من خطب الأئمة ونرى أن خطب المسلمين تعالج أخص أحوال المسلمين ، وتلك بفضل توجيهات الامام وتلاميذه الذين حملوا فكرته وتأثروا بها ودعوا الناس اليها .

---

(١) تفسير المنار جـ٤ ص ٢٨٤ .

(ب) وممن تأثر بالامام ، السيد رشيد رضا ، حيث يقول معلقا على الآية السابقة : ((**ولا تؤتوا السفهاء اموالكم التى جعل الله لكم قياما**)) : ومعنى جعل الأموال قياما للناس أن تقوم وتثبت بها منافعهم ومرافقهم ولا يمكن أن يوجد فى الكلام ما يقوم مقام هذه الكلمة ويبلغ ما تصل اليه من البلاغة فى الحث على الاقتصاد وبيان فائدته ومنفعته ، والتنفير من الاسراف والتبذير الذى هو شأن السفهاء وبيان غائلته وسوء مغبته . فكأنه قال : ان منافعكم ومرافقكم الخاصة ومصالحكم العامة لاتزال قائمة ثابتة مادامت أموالكم فى أيدى الراشدين المقتصدين منكم الذين يحسنون تثميرها وتوفيرها ولا يتجاوزون حدود المصلحة فى انفاق ما ينفقونه منها . فاذا وقعت فى أيدى السفهاء المسرفين الذين يتجاوزون الحدود المشروعة والمعقولة يتداعى ما كان من تلك المنافع سالما ، ويسقط ما كان من تلك المصالح قائما . فهذا الدين هو دين الاقتصاد والاعتدال فى الأموال كالأمور كلها . ولذلك وصف الله تعالى المؤمنين بقوله ٢٥ : ٦٧ ((**والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما**)) . وقد نهانا الله عن التبذير حتى فى مقام الانفاق وجعل المبذر كالشيطان مبالغا فى الكفر

وفى الأحاديث النبوية مثل ذلك فمنها ((**ما عال من اقتصد**))(١) ((والاقتصاد فى النفقة نصف المعيشة والتودد الى الناس نصف العقل وحسن السؤال نصف العلم(٢))) . ((**ومن فقه**

---

(١) مسند الامام احمد .

(٢) الطبرانى والبيهقى .

الرجل رفقه فى معيشته(١) » . « ومن اقتصد أغناه الله ومن بذر أفقره الله(٢) » . « ونعم المـال الصالح للمرء الصالح(٣) » .

(جـ) وممن تأثر بالامام أيضـــا المرحوم الدكتور محمد عبدالله دراز حيث يقول(٤) فى تفســـير قـوله تعـــالى : « **ولا تؤتـوا السفهـاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما** » . لا تؤتوا السفهـاء أموالكم . هذه الآية دستور عام ليس خاصـــا بالوصى أو الولى كأنها تقول ان المال وان كان ملكا لزيد أو عمرو ، الا أنه حق للدولة ، فالجماعة مســئولة عن اضـــاعة هذه الأموال . فالأمر عام ينادى ــ أيها الولى على الدولة لا تول رئيســـا للمالية يبدد الأموال .

أيها الرجل لا تدفع مالك الى مبدد مبذر .. الخ .. فالمجموع موزع على المجموع والغرض منه الوحدة والتكافل .

« **التى جعل الله لكم قياما** » . هذه الجملة من أعجب الأوامر التى تأتى فى دســـــتور روحى . فالمال مخ الحياة لانه قـــوام الحياة . فهذه أعظم وصـــية لتثمير المال ومراعاة قيمته لأنه مقوم الحيــــاة .

وليس ذلك شيئا غريبا عن روح القرآن . فأطول آية منه جمعت بين الكتابة والشهادة والصادر والوارد فى قوله تعالى :

---

(١) أحمد والطبرانى .

(٢) البزار .

(٣) الامام أحمد .

(٤) من محاضرات الدكتور محمد عبد الله دراز لطلبة الليسانس بكلية دار العلوم فى تفسير سورة النساء عام ١٩٥٥ .

« يأيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ولا تسئموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها . وأشهدوا اذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وان تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم(١) » .

٧ ـ أضرار تعدد الزوجات :

وبين الأستاذ الامام مفاسد تعدد الزوجات وأضراره بالمجتمع فى عصرنا ، وأن أباحة تعدد الزوجات مضيقة قد اشترط فيها ما يصعب تحقيقه فكأنه نهى عن كثرة الأزواج .

وذلك عند تفسير قوله تعالى : « **وان خفتم ألا تقسطوا فى فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعدلوا(٢)** » .

ويعلق الأستاذ الامام على تفسير هذه الآية بقوله : جاء ذكر تعدد الزوجات فى سياق الكلام عن اليتامى والنهى عن أكل أموالهم ولو بواسطة الزوجية فقال أن أحسستم من أنفسكم

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٢ .

(٢) سورة النساء الآية ٣ .

الخوف من أكل مال الزوجة اليتيمة فعليكم الا تتزوجوا بها فان الله تعالى جعل لكم مندوحة عن اليتامى بما أباحه لكم من الزواج بغيرهن الى أربع نســـــوة ولكن ان خفتم الا تعدلوا بين الزوجات أو الزوجتين فعليكم أن تلتزموا واحدة فقط والخوف من عدم العدل يصـــــدق بالظن والشك بل يصـــدق بتوهمه أيضا ؛ ولكن الشرع قد يغتفر الوهم لأنه قلما يخلو منه علم بمثل هذه الأمور ، فالذى يباح له أن يتزوج ثانية أو أكثر هو الذى يثق من نفســــه بالعدل بحيث لا يتردد فيه أو يظن ذلك ويكون التردد فيه ضعيفا(١) .

(أ) فالأستاذ الامام يذهب الى أن الأصـــــل فى الزواج الاقتصـــــار على زوجة واحدة تكون سكنا وأمنا ويترتب على ذلك الثقة والاطمئنان المتبادل .

وأن التعدد ضرورة يلجأ اليها من خاف الجور على اليتيمة من الأوصياء . اى ان الآية صرفت نظرهم عن ظلم اليتيمة بالتوسيع عليهم فيما أحل الله من النساء مثنى وثلاث ورباع .

واذا خاف الانسان الجور أو الظلم وجب أن يقتصر على الواحدة ولما قال الله : ((**فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة**)) علله بقوله ((**ذلك أدنى ألا تعولوا**)) أى أقرب من عـــدم الجور والظلم فجعل البعد عن الجور سببا فى التشـــــريع وهذا مؤكد لاشـــــتراط العدل ووجوب تحريه ومنبه الى أن العدل عزيز . وقد قال تعالى فى آية أخرى من هذه السورة : ((**ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النســــاء ولو حرصـــــتم**)) وقد يحمل هذا على العدل فى ميل القلب ولولا ذلك لكان مجموع الآيتين منتجا عـــدم جواز التعدد بوجه ما ، ولما كان يظهر وجه قوله بعدما تقدم من الآية : ((**فلا**

---

(١) المنار جـ٤ ص ٣٤٨ .

تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » والله يغفر للعبد ما لا يدخل تحت طاقته من ميل قلبه . وقد كان النبى (صلى الله عليه وسلم) يميل فى آخر عهده الى عائشة أكثر من سائر نسائه ولكنه لا يخصها بشيء دونهن اى بغير رضاهن وأذنهن وكان يقول اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما لا أملك (أى ميل القلب)(١) .

(ب) ويرى الأستاذ الامام ان التعدد وان كانت له محاسنه فى عصر السلف حيث النفوس سليمة والقلوب نظيفة والجميع يمتثلون أمر الدين ويتقون رب العالمين . فان التعدد له مساوئه فى زمننا لكثرة مساوىء الناس ، وضعف أخلاقهم . بل ان أكثر المعددين لزوجاتهم لا هم لهم الا قضاء الشهوة والمتعة المؤقتة . والله لا يحب الذواقين ولا الذواقات .

فواجب العلماء النظر فى هذه المسألة من جديد ووضع رقابة على المعددين لنتأكد من تنفيذهم لما أوجبه الله من العدل . والبعد عن الجور أو الاقتصار على الواحدة . قال رحمه الله « كان للتعدد فى صدر الاسلام فوائد أهمها صلة النسب والصهر الذى تقوى به العصبية ولم يكن له من الضرر مثل ماله الآن لأن الدين كان متمكنا فى نفوس النساء والرجال وكان أذى الضرة لا يتجاوز ضرتها . أما اليوم فالضرر ينتقل من كل ضرة الى ولدها والى والده والى سائر أقاربه ، فهى تغرى بينهم العداوة والبغضاء : تغرى ولدها بعداوة اخوته وتغرى زوجها بهضم حقوق ولده من غيرها وهو بحماقته يطيع أحب نسائه اليه فيدب الفساد فى العائلة كلها . ولو شئت تفصيل الرزايا والمصائب المتولدة من تعدد الزوجات

---

(١) تفسير المنار جـ٤ ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

لاتيت بما تقشعر منه جلود المؤمنين فمنها السرقة والزنا والكذب والخيانة والجبن والتزوير بل منها القتل حتى قتل الولد والده والوالد ولده ، والزوجة زوجها والزوج زوجته . كل ذلك واقع ثابت فى المحاكم ، وناهيك بتربية المراة التى لا تعرف قيمة الزوج ولا قيمة الولد وهى جاهلة بنفسها وجاهلة بدينها لا تعرف منه الا خرافات وضلالات تلقتها من أمثالها يتبرأ منها كل كتاب منزل وكل نبى مرسل . فلو تربى النساء تربية دينية صحيحة يكون بها الدين هو صاحب السلطان الأعلى على قلوبهن بحيث يكون هو الحاكم على الغيرة لما كان هناك ضرر على الأمة من تعدد الزوجات ، وانما كان يكون ضرره مقصورا عليهن فى الغالب . أما والأمر على ما نرى ونسمع فلا سبيل الى تربية الأمة مع فشو تعدد الزوجات فيها . فيجب على العلماء النظر فى هذه المسألة خصوصا الحنفية منهم الذين بيدهم الأمر وعلى مذهبهم الحكم فهم لا ينكرون أن الدين انزل لمصلحة الناس وخيرهم وأن من أصوله منع الضرر والضرار ، فاذا ترتب على شىء مفسدة فى زمن لم تكن تلحقه فيما قبله . فلا شك فى وجوب تغيير الحكم وتطبيقه على الحالة الحاضرة : يعنى على قاعدة درء المفاسد مقدم على جلب المصالح . قال الامام وبهذا يعلم أن تعدد الزوجات محرم قطعا عند الخوف من عدم العدل(1) .

(جـ) وانت ترى اهتمام الامام بالاصلاح الاجتماعى . وتراه يشخص الداء ويصف الدواء ولا يتحرج من الاجتهاد فرسم بذلك طريق الاصلاح والاجتهاد لمن جاء بعده ، وترى ذلك جيدا

---

(1) تفسير المنار جـ٤ ص ٣٥٠ .

فى علاج السـيد رشـيد رضا لموضـوع التعدد ودفاعه عن وجهة النظر الاسلامية[1] .

وفى كلام المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز ، حيث يخبرنا أن النســاء فى ألمانيا يطالبن بتطبيق الشـريعة الاســلامية فى التعدد للنقص الشـديد فى الرجال بعد الحرب . بل ويطالب البعض برأى غريب هو أن المرأة لا تمكث مع زوجها أكثر من عام ثم تتركه لتنال حظها منه مواطنة أخرى فى عام ثان وهكذا .

وبين حكمة الاســلام « فان أوروبا لا تبيح تعدد الزوجات بينمـا تبيح تعدد الخليـلات ولكن القرآن حـارب هـذه العشرة الا بين الزوج وزوجتـه « **محصـنات غير مسافحـات ولا متخذات أخـدان** »[2] .

الا ما أعدل حكم الله ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون .

ويرى فضيلة الأستاذ الكبير الشـيخ محمد محمد المدنى عميد كلية الشـريعة الاسـلامية أن التعدد انما أبيح فى مثل حالة الوصى على اليتامى حيث يكون مضطرا للدخول عليهم ومراعاة شـئونهم وفيهم من تصـلح للزواج . وهو يخشى على نفسـه الفتنة . والمؤمن لا يرضى أن يكون فاتنا أو مفتونا . فأباح الله للرجل فى مثل ذلك الظرف أن يكون له أكثر من واحدة اذا أمن الجور ، وبذلك يجمع بين رعاية مصـلحة اليتامى على الوجه المطلوب وبين وقاية نفسـه ووقاية غيره من عوامل السـوء والفتنة . وبعد أن وضح هذا الرأى وبينه تبيينا كاملا قال :

---

(١) تفسير المنار جـ٤ ص ٣٥١ وما بعدها .

(٢) محاضرات فى تفسير سورة النساء لطلبة ليسانس دار العلوم عام ١٩٥٥ لفضيلة المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز .

وبذلك يتبين :

١ ــ أن تعدد الزوجات انما شـــرع لمثل هذه الغاية التى هى الرغبة فى القيام لليتامى بالقســط تحقيقا لأمر الله ورعاية لمصلحــة اليتـامى أنفســهم ، وأنه ليس مشروعا لمجرد ارضــاء النفس وتحقيق الرغبة فى النساء .

٢ ــ وأنه بهذا التفســير ليس غريبا عن موضــوع اليتامى ، ولا دخيلا فى أحكامهم فانه ذكر حلا لمشكلة من مشكلاتهم فى المجتمع حيث تقضى المصــلحة بأن يقوم عليهم وصى بالقسط ، وتقضى الآداب الاســلامية بأن يتحرج الرجل من الالتقاء بمن هن أجنبيات عنه .

٣ ــ وأنه يمكن القياس على هذا الغرض بأن يباح التعدد اذا دعا داع اليه وأن يقيد التعدد اذا لم يكن له داع يشــبه ما ذكره القرآن الكريم من « اقامة القسط فى شأن التيامى » .

٤ ــ وأن هذا كله مشــروط ــ مع توخى الغاية الشريفة ــ بأن يأمن الزوج عدم الجور . فاذا خـاف الجــور ، وجب عليه الا يعدد[1] .

وليس فى الشــريعة ما يمنع أن يعهد بتقدير ظروف الناس فى التعدد الى هيئة رسـمية اجتماعية أو قضــائية ، وأن يقيد الناس فى التعدد بحكم هذه الهيئة جوازا أو منعا .

فان التعدد مباح بشرطين : أن يكون له مبرر وداع شريف معترف به شــرعا . وشــرط آخر هو ألا يؤدى الى الجور وعدم العدل .

---

(١) كتاب المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء لفضيلة الاستاذ محمد المدنى ص٢٧٣ .

فموقف هذه الهيئة التأكد من تحقق الشرطين السابقين حتى لا يقع من عدم تحققهما ضرر يكرهه الله ولا يأذن به(١) .

وأنت تشـــاهد أن التفســـير بعد الأســـتاذ الامام نهج منهجا اجتماعيا يتخذ من القرآن أســـاسا لاصلاح المجتمع . فكانت سنة حسنة سنها الامام فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيـــامة .

٨ ــ آداب الســـلوك :

وأخيرا فقد رأيت تأثر الامام فى تفســـيره للقرآن الكريم برغبته الصـــادقة فى اصلاح المجتمع وانقاذ المجتمع المصـــرى المعاصـــر له من الهوة السحيقة التى كان يتردى فيها .

فربط الامام تفســـيره للقرآن بآداب الســـلوك والحياة الاجتماعية ، حتى لتخال وأنت تقرأ تفســـيره أنك أمام مدرس لعلم الاجتماع . وحين كان يفســـر آيات تتناول الصـــلاة والزكاة والعبادات لا يفسرها تفسيرا لغويا جافا . بل يوضـــح جيدا صـــلة هذه الأوامر بالمجتمع . والقيمة الخلقية والاجتماعية والنفعية التى تعود على الناس من اتباعها . والأضـــرار التى تترتب على اهمالها . والطريقة التى اتبعها الاستاذ الأمام هى عين ما ينادى به أســـاتذة التربية وعلم النفس حين يقولون ان أحكم خطة للتربية الدينية ربطها بالمجتمع . والمقارنة بين الســـلوك السيىء وما يترتب عليه من الآثار المؤلمة لصـــاحبه فى نفســـه

---

(١) كتاب المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء لفضيلة الاستاذ محمد محمد المدنى .

وبين من يحيطون به . والسلوك الحميد وما يترتب عليه من الفوائد العظيمة لصاحبه عند الناس وعند رب الناس(١) .

وفى آخر سورة الفجر ذكر القرآن اهل السوء ثم قفى بذكر أهل الخير فى قوله تعالى : ((**يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى**)) .

وقد قارن الامام بين السلوكين . وبين أضرار السلوك السيىء وقيمة السلوك السوى لصاحبه وللمجتمع الذى يحيط به فقال : ((بعد أن ذكر حال الانسان . وقد خلى وطبعه وحرصه وجشعه ، واستولت عليه رغبات جسمه ، وخرجت به عن سلطان العقل وحكمه . ثم ذكر عاقبته وما يصير اليه فى الحياة الأخرى . انتقل بنا الى ذكر الانسان اذا ارتقى عن ذلك الطبع ، وترفع عن مواقع الحيوانية . واستعلى برغائبه الى المطامح الروحانية . فكان فى الغنى شاكرا لا يتناول الا الحق ولا يمنع صاحب الحق حقا . ولا يترك العناية بأمر اليتيم ، ويطعم المسكين ، ويحمل غيره على الاقتداء به فيما هو خير له ولمن حوله ، وكان فى الفقر صابرا لا يمد يده الى ما ليس من حقه ولا يأتى الدنية ولا يطلب لغيره الرزية ، ولا يغفل شأن اليتيم ولا يغفل عما يألم له المسكين . فاذا لم تمكنه المعونة بالمال أمكنه المساعدة بالمقال . وبهذا يستحق وصف المطمئن فانه راكن الى ربه فى جميع أمره ، واقف عند شرعه ثابت القدم بمعرفة الحق والسلوك فى سبيله لا تزعزعه الشهوات ، ولا تضطرب به الرغبات . ويستحق أن يخاطب باسم النفس التى هى روح تنزع الى ما يليق بالروح

---

(١) التربية الدينية فى المرحلة الابتدائية ، صحيفة التربية ، عدد مايو سنة ١٩٥٥ .

ولا ينادى باسم الانسان الذى يشير الى ما فى تكوينه من النزعة الحيوانية لأنه لم يسلطها عليه بل استخدمها لتكميل نفسه وارجاعها الى معهدها المقدس فكانت جديرة بجوار ربها وهى راضية بعملها فى الدنيا وبمرجعها فى الآخرة لأنها لم تكن قط ساخطة · لا هى تسخط عملها فى غناها ،ولا تسخط حالها فى فقرها ، ولا تسخط صنيع ربها بها ، وهى مرضية لأن من كانوا معها فى الدنيا راضون عنها لحسن صنعها والله راض عنها لصلاح عملها(١) ·

● ● ●

---

(١) تفسير جزء عم ص ٨٦ ·

الباب الثالث

مدرسة الأستاذ الامام فى التفسير

مدرســة الأستاذ الامام فى التفســير

تمهيـــــــد :

كان الأستاذ الامام صــاحب مدرســة فى الاصـــلاح الدينى عموما وفى تفســـير القرآن على وجه الخصوص . واستطاع الإمام محمد عبده أن يجرد تفســـير القرآن من كثير من الشوائب التى علقت به فكان تفســـيره فتحا جديدا فى عالم التفســـير ومرحلة من مراحل تطوره اســـتطاع الامام أن يرسى قواعدها وأن يضع أساسها ويبث مفاهيمها فى نفوس أتباعه ومريديه .

وحمل لواء النهضـــة فى التفســـير تلاميذه من بعده . وفى مقدمتهم السيد رشـــيد رضـــا صـــاحب المنار . وفى هذا الباب من الرســـالة تحاول أن نتتبع الأثر الذى تركه الامام فى تفسير القرآن . وأن نقارن بين تفسير المنار للشيخ محمد عبده ، وتفسير المنار لتلميذه السيد رشيد رضا .

فقد فســـر الامام فى المنار ســـورة البقرة وآل عمران وجزءا من صـــورة النســـاء ثم اكمل الســـيد رشـــيد رضا تفسير المنار لاثنى عشـــر جزءا من القرآن الكريم .

وكثير من الناس يلتبس عليهم الأمر فيسندون تفسير المنار جميعه الشيخ محمد عبده .

بل ان هذا الخطأ قد وقع فيه أساتذة متخصصون من العرب ووقع فيه أيضا المستشرق الكبير جولد تسيهر فى كتابه مذاهب التفسير الاسلامى حيث أسند الى الامام محمد عبده كلام تلميذه السيد رشيد رضا ٠

ونحن نلتمس له العذر لأن لغته غير عربية فاشتبه عليه كلام الأستاذ بكلام تلميذه لأن الاثنين من مدرسة واحدة ويحسن بنا أن ننقل بين يدى هذا البحث جزءا من مقدمة تفسير المنار التى كتبها السيد رشيد رضا ٠ لأنها تلقى ضوءا على تاريخ تفسير المنار وتوضح كلام الامام من كلام تلميذه .

قال السيد رشيد رضا فى مقدمة المنار :

« كان من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كتب فى التفسير يشغل قارئه عن مقاصد القرآن العالية وهدايته السامية فمنها ما يشغله عن القرآن بمباحث الاعراب وقواعد النحو ونكت المعانى ومصطلحات البيان ٠

ومنها ما يصرفه عنه بجدل المتكلمين وتخريجات الأصوليين ، واستنباط الفقهاء المقلدين وتأويلات المتصوفين وتعصب الفرق والمذاهب ، بعضها على بعض ، وبعضها يلفته عنه بكثرة الروايات وما مزجت به من خرافات الاسرائيليات ٠ وقد زاد الفخر الرازى صارفا آخر عن القرآن هو ما يورده فى تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة فى الملة على ما كانت عليه فى عهده كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها ، وقلده بعض المعاصرين بايراد مثل ذلك من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولا طويلة — بمناسبة كلمة مفردة

كالسماء والأرض – فكانت الحاجة شديدة الى تفسير تتوجه العناية الأولى فيه الى هداية القرآن على الوجه الذى يتفق مع الآيات الكريمة المنزلة فى وصفه وما أنزل لأجله من الانذار والتبشير والهداية والاصلاح وهو ما نرى تفصيل الكلام عليه فى المقدمة المقتبسة من دروس شيخنا الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله تعالى وأحسن جزاءه .

ثم الى العناية الى مقتضى حال هذا العصر فى سهولة التعبير ومراعاة أفهام صنوف القارئين . وكشف شبهات المشتغلين بالفلسفة والعلوم الطبيعية وغيرها ، الى غير ذلك مما نراه قريبا وهو ما يسره الله بفضله لهذا العاجز وهاك موجزا من نبأ تيسيره له » .

واذا قرآنا هذا الموجز الذى كتبه السيد رشيد رضا اتضحت أمامنا سلسلة الاصلاح الدينى على هذا النحو :

١ – كان السيد جمال الدين الأفغانى أساس النهضة الإسلامية الحديثة ورجل الاصلاح الذى نفخ فى هذا الشرق من روحه الفياضة فدبت فيه الحياة وعادت اليه ذكريات أمجاده وماضيه العريق .

٢ – حمل راية الاصلاح تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده وكان اصلاحه دينيا اجتماعيا ، واهتم لذلك بتفسير القرآن الكريم وجعله أساسا لتربيته ونهضته الاجتماعية وأفكاره التربوية للنهوض بالأمة المصرية والاسلامية .

٣ – كان السيد رشيد رضا صوفيا ناشئا بقرية القلمون بطرابلس الشام وقرأ العروة الوثقى فتحول تصوفه السلبى الى رغبة فى الجهاد ، وانتقل من رجل صالح الى عالم مصلح . وحضر الى مصر ولازم الشيخ محمد عبده ملازمة التلميذ المخلص

واتخذه الشيخ أخا ورفيقا ومقررا لدروسه وترجمانا لنشر تعاليمه .

٤ ــ خالف السيد رشيد رضا منهج امامه وأستاذه بيد أنها مخالفة فى طريقة عرض الفكرة وليست فى أساس الفكرة أو المنهج وصرح بذلك السيد رشيد رضا فى مقدمته المنار فقال :

« هذا واننى لما استقللت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه رحمه الله تعالى بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة سواء كان تفسيرا لها أو فى حكمها ، وفى تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية والمسائل الخلافية بين العلماء . وفى الاكثار من شواهد الآيات فى السور المختلفة وفى بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين الى تحقيقها بما يثبتهم بهداية دينهم فى هذا العصر أو يقوى حجتهم على خصومهم من الكفار والمبتدعة أو يحل بعض المشكلات التى أعيا حلها بما يطمئن به القلب وتسكن اليه النفس .. وأستحسن للقارىء أن يقرأ الفصول الاستطرادية الطويلة وحدها فى غير الوقت الذى يقرأ فيه التفسير لتدبر القرآن والاهتداء به فى نفسه وفى النهوض باصلاح أمته وتجديد شباب ملته » .

واذا كان الباب السابق قد بين منهج الامام محمد عبده فى تفسير القرآن الكريم . فان هذا الباب سيوضح منهج تلميذه السيد رشيد رضا ، ويبين مدى التطور الذى طرأ على تفسير المنار بعد وفاة الأستاذ الامام .

خصـــائص تفســير المنـــار

للسيد رشيد رضا

الخاصة الأولى : التحقيق العلمي ·

الخاصة الثانية : تأثر صاحب المنار بابن كثير ·

الخاصة الثالثة : تأثر صاحب المنار بالغزالي ·

الخاصة الرابعة : التوســع والاطالة ·

الخاصة الخامسة : بيان السنن الاجتماعية وأسباب التطورات التاريخيــة واســتنباط ذلك من آيــات القرآن الكريم ·

الخاصة الأولى :

التحقيق العلمى

تميز السيد رشيد رضا بالعلم الغزير والمعرفة المتنوعة ويعتبر حجة فى البحوث الفقهية والتشريعية وأصول الفقه ومعرفة رجال الحديث واقوال المفسرين وعلوم القرآن ·

« واكان الذى يدهش فى الشيخ رشيد رضا رسوخ قدمه فى مختلف العلوم حتى اذا نظرت اليه فى علم منها وعلمت مبلغ احاطته فيه ظننته متخصصا فى ذلك العلم وحده كأنه انفرد به ·

والحال أن له فى سائر العلوم الملكة نفسها فكان اذا أمسك القلم تدفق نحوا وصرفا ولغة وبيانا وبديعا وفقها وحديثا وتفسيرا وتوحيدا وأصولا وكل ذلك فى نسق واحد ·

هو وان كان لا يسامى جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده فى العلوم العقلية فقد سبقهما فى مزية الكتابة وفيض القلم اذ كانا يؤثران تنبيه العقول ، وايقاظ الهمم من طريق الخطابة والمحادثة وكانت مجالس جمال الدين لا يمر منها مجلس الا كان أشبه بمحادثة تاريخية تسجل ألفاظها وتحفظ جوامع اكلمها ·

وكانت مجالس محمد عبده يقدر السامع أن يكتبها بأسرها لا يزيد منها حرفا من شدة احكامها وكأنما هى فصول مكتوبة يقرؤها قارىء • وكأنما هى نفثات سحر فى استيلائها على الأفكار وطالما خرج السامعون منها نشاوى تترنح أعطافهم • فأما السيد رشيد فانصرف بكليته الى أعمال القلم وصار يكتب فى الساعات مالا يقدر أن يسوده غيره فى الأسابيع حتى لو قيل ان محصول قلمه قد يتوزع على عشرة كتاب كبار ويصيب كلا منهم نصيب وافر لم يكن فى ذلك أدنى غلو • لأن سهولة الكتابة التى كانت عند صاحب المنار بما أوتى من اجتماع القوتين الحافظة والحاكمة • وانتظام المتنين المطبوع والمسموع كانت آية باهرة لا يتمارى فيها الا حاسد أو معاند •

وتفسير السيد رشيد رضا للقرآن الكريم هو وحده كاف ليخلده بين علماء هذه الأمة »(١) •

لقد كان الأستاذ محمد عبده مفسرا للقرآن ولكن روح الاصلاح والرغبة فيه كانت مسيطرة على تفسيره •

ولعل كثرة مشاغل الامام وتنوع خدماته لم تهيىء له الاستقرار اللازم للتعمق فى البحث والتبحر فى التأليف •

بينما كان السيد رشيد رضا عالما مستقرا مؤلفا بطبعه متنوع الثقافة يغلب على تأليفه الطابع العملى والبحث العميق وقد حذق فن التأليف وأجاده ونوع فى تصانيفه بما جعلها شائقة محببة •

واذا نظرنا الى الزمن الذى عاش فيه السيد رضا رأينا ان

---

(١) رشيد رضا أو اخاء أربعين سنة — شكيب ارسلان مطبعة ابن زيدون دمشق — سنة ١٩٣٧م — ص ٢٥٥ •

العلوم والترجمة قد ازدهرت فيه وأثرت فى كل وجوه النشـاط ، وظهر النقد الأدبى بأصوله وقواعده .

واستفاد السيد رشيد من العلوم الجديدة فى عهده ونهل منها وانطلق ذلك على أطراف قلمه وظهر فى طريف بحوثه .

وترى السيد رشيد يروى آراء الأستاذ الامام ويكرر اعجابه بها ولكن أمانة العلم ورسوخ القدم فى علوم الشريعة جعلت السيد رشيد ينقد آراء الامام نقد الصيرف الخبير بالدراهم وهذه أمثلـة توضح ذلك النقد .

١ ـ رأى الشيخ محمد عبده أن سـورة الفاتحـة هى أول ما نزل من القرآن على الاطلاق . ولم يستثن قوله تعـالى : ((**اقرأ باسم ربك الذى خلق**)) واستدل على ذلك بأن مقتضى السنة الالهية فى هذا الكون أن يظهر سبحانه الشىء مجملا ثم يتبعه التفصيل بعد ذلك تدريجيا .

وما مثل الهداية الالهية الا مثل البذرة والشجرة العظيمة فهى فى بدايتها مادة حياة تحتوى على جميع أصولها ثم تنمو بالتدريج حتى تتسق فروعها بعد أن تعظم دوحتها ثم تجود عليك بثمرهـا والفاتحة مشتملة على مجمل القرآن وبيان ذلك أن القرآن ما نزل الا لأجل هذه الأمور :

أولا : التوحيد .

ثانيا : وعد المتقين ووعيد العصاة والمخالفين .

ثالثا : العبادة التى تحيى التوحيد فى القلب وتثبته .

رابعا : بيان طريق السـعادة الموصـل الى نعيم الدنيـا والآخرة .

خامسا : قصص السابقين للعظة والاعتبار ٠

والفاتحة مشتملة على هذه الخمسة اجمالا بغير ما شك ولا ريب فكان نزولها أولا موافقا لسنة الله فى الابداع جديرة بأن تسمى أم الكتاب ٠

كما تقول ان النواة أم النخلة فان النواة مشتملة على شجرة النخلة كلها حقيقة ٠

والسيد رشيد ينقل من الاتقان آراء عن أول مانزل من القرآن ٠

أحدها : اقرأ باسم ربك ، رواه الشيخان وغيرهما ٠

ثانيهما: يأيها المدثر ، رواه الشيخان وغيرهما ٠

ثالثها : سورة الفاتحة ٠

ثم ينقل ترجيح الامام لهذا الرأى الأخير وتبيينه الحكمة الالهية فى اجمال الفاتحة أولا ثم تفصيل القرآن بعدها ٠

ويعلق السيد رشيد على ما رآه الامام فيقول : « ان نزول أول سورة العلق قبل الفاتحة لا ينافى هذه الحكم التى بينها الامام لأنه تمهيد للوحى المجمل والمفصل خاص بحال النبى (صلى الله عليه وسلم) واعلام له بأن يكون — وهو أمى — قارئا بعناية الله ومخرجا للأميين من أميتهم الى العلم بالقلم أى الكتابة وفى ذلك استجابة لدعوة ابراهيم ٢ : ١٢٨ « ربنا وأبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » .

فسر الأستاذ الامام الكتاب بالكتابة ثم كانت الفاتحة أول

سورة نزلت كاملة وأمر النبى بجعلها أول القرآن وانعقد على ذلك الاجماع(١) ٠

ونلاحظ أن رأى السيد رشيد أقوى لموافقته لكتب السنة الصحيحة ، أما رأى الامام فقد اعتمد فيه على بيان الحكمة الالهية فى الاجمال ثم التفصيل وهو منزع غريب فى ترتيب السور كما قال السيد رشيد رضا ٠

٢ ـ كان السيد رشيد رضا عالما ضليعا فى حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رواية ودراية وكان متأثرا بابن كثير فى ايراد الأحاديث المتعلقة بالآية والآيات المتعلقة بهـا وربما رفض تفسير الامام للآية بناء على ما صح عنده من الحديث ٠

ان هذا التلميذ النابه مع اعجابه بامامه وقوة صداقته له الى حد منقطع النظير ، لم يمنعه ذلك من ترجيح الحق حيثما كان ، وذلك دليل على خصوبة الفكر وقوة الشخصية ٠

« قال السيد رشيد رضا فى مقدمته لكتابه « تاريخ الأستاذ الامام » فاذا رأى القارىء أننى على اعجابى بسعة علومه ورسوخه فى معارفه التى كان بها جديرا بلقب الأستاذ الامام ٠ الذى قبله وأجازه الرأى العام ، أثبت أنه كان مقصرا فى علوم الحديث من حيث الرواية والحفظ والجرح والتعديل كغيره من علماء الأزهر ٠

واننى على اعجابى بأخلاقه التى كان بها حقيقـا بزعامة الاصلاح والتجديد للأمة والملة ، صرحت بأنه كان كأستاذه لا يخلو من الحدة ، وما يقابلها من الضعف بشدة الرحمة والمبالغة فى الورع المغريتين لصاحبهما ، بايثارهما على المصلحة العامة ٠ واننى على اعجابى بقوة تدينه وحسن تعبده ومحافظته على تهجده ،

---

(١) تفسير المنار جـ١ ص ٣٤ ـ ٣٨ ٠

صرحت بأنه كان يجمع بين الصلاتين فى الحضر أحيانا ترخصا اجتهاديا خالف فيه المذاهب الأربعة ، ولكنه وافق حديثا صحيحا أخذ به غيرهم من الأئمة ٠

اذا رأى القارىء هذا أو ذاك أيقن أننى لم أكن محابيا له فى هذا التاريخ ولا سالكا فيه مسالك الشعراء ولا أنصار المذاهب حين يرسمون لزعمائهم صورا مكبرة مزينة مجملة بما يظهر محاسنهم ويخفى مساوئهم أو يبدل سيئاتهم حسنات ٠

وعلم أن كل ما انتقد يصح أن يقال فيه : « حسنات الأبرار سيئات المقربين » ٠

واننى وأيم الحق لم أطلع له على عمل ينافى العفة والنزاهة ولا الورع والشرف ، ولا هفوة تدل على كامن حقد أو حسد فهو أكمل من عرفت من البشر دينا وأدبا ونفسا وعقلا وعلما وعملا وصدقا واخلاصا(١) ٠

٣ ــ وتميز السيد رشيد رضا ٠ فى تعليقه على آراء الامام بالأدب الجم واللباقة فى التعبير حين يرفض رأى الامام أو يرجح رأيا مرجوحا عنده أو العكس ٠

فى تفسير قوله تعالى : ((**لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين**)) ٠

قال الأستاذ الامام فى تفسيرها : « نطقت كتب السير بأن بعض الذين كانوا يدخلون الاسلام كان يقع منهم قبل الاطمئنان بالايمان اغترار بعزة الكافرين وقوتهم وشوكتهم فيوالونهم ويركنون اليهم وهذا أمر طبيعى فى البشر ٠٠ قال الامام وذكروا فى سبب

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ١ ص ٦ ٠

نزول الآية أنها نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة ، وقصته معروفة .
وقيل انها نزلت فى ابن أبى سلول «زعيم المنافقين» وقيل فى جماعة من الصحابة كانوا يوالون اليهود · ومهما كان السبب فى نزولها فانا نعلم أن من طبيعة الاجتماع فى كل دعوة أن يوجد فى المستجيبين لها القوى والضعيف على أن مظــاهر القوة والعــزة تغر بعض الصادقين ، وتؤثر فى نفوس بعض المخلصين فما بالك بغيرهم ؟ ولذلك نهى الله تعالى المؤمنين عن اتخاذ الأولياء من الكافرين · وقد ورد بمعنى هذه الآية آيات أخرى ، فلابد من تفسيرها تفسيرا تتفق به معانيها ·

والسيد رشيد رضا يعلق على تفسير الامام للآية بقوله :

« أقول : قصة حاطب التى اشار اليها مسندة فى الصحيحين وغيرهما ملخصها : أن حاطبا كتب اكتابا لقريش يخبرهــم فيــه باستعداد النبى صلى الله عليه وسلم للزحف على مكة اذ كان يتجهز لفتحها وكان يكتم ذلك ليبغت قريشا على غير استعداد منها فتضطر الى قبول الصلح وما كان يريد حربا ··

ولما أرسل حاطب خطابه خفية الى قريش مع احدى الجوارى اخبر الله نبيه بذلك فأرسل فى أثرها من أحضر الخطاب · وفى ذلك يقول الله تعــالى : ((**يأيها الذين آمنوا لا تتخــذوا عدوى وعدوكم اوليــاء**)) ·

وبعد أن يذكر السيد رشيد القصة يستمر فى تعليقه بقوله :
« ولم أر أحدا قال ان الآية التى تفسرها نزلت فى قصة حاطب فلعل ما قاله الأستاذ الامام سهو سببه أن هذه الآية وما أنزل فى قصــة حاطب يشتركان فى النهى عن موالاة الكافرين(١) .

---

(١) تفسير المنار جـ٣ ص ٢٧٦ ·

وأنت تلاحظ أدب السيد رشيد حين أراد أن يرفض كـــلام الامام قال : لعله سهو ، ثم التمس له العذر فى هذا السهو ٠

٤ ــ ولم يكن نقد السيد رشيد رضا وتصحيحه يعتمد على كونه حجة فى الحديث فقط ٠ بل كان يعتمد أيضا على ذوق بصير وقلب متفتح يدرك قبول المعنى أو رفضه ٠

ولذلك كان يروى كلاما نقله ابن جرير الطبرى المؤرخ العظيم ثم ينقده ويفنده ٠

جاء فى تفسير المنـــار تحت عنوان ((**خلق الطير من الطين**)) عند تفسير قوله تعالى فى قصة المسيح ((**ويعلمه الكتاب والحكمـة والتوراة والانجيل ورســولا الى بنى اسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيها فيكون طيرا باذن الله**)) ٠

قال الأستاذ الامام : الخلق التقدير والترتيـب لا الانشـــاء والاختراع ، ويقرب أن يكون هذا اجماعا من المفسرين وفسـره الجلال هنا بالتصوير لأنه من التقدير ٠٠٠ ألخ ٠

ويعلق السيد رشيد رضـا بقوله : « هـذا ما قاله الأسـتاذ الامام ٠ ومن الغريب أن ابن جرير يروى عن ابن اســحق « أن عيسى صلوات الله عليه جلس يوما مع غلمان من الكتاب فأخـذ طينا ثم قال أجعل لكم من هذا الطين طائرا ٠ قالوا أو تستـطيع ذلك ؟ قال نعم باذن ربى ثم هيأه حتى اذا جعله فى هيئة الطائـر فنفخ فيه ، ثم قال كن طائرا باذن الله فخرج يطير من بين كفيـه « فكأنه اتخذ آية الله على رسالته ألعوبة للصبيان ٠ والحاصل أنـه ليس عندنا نقل صحيح بوقوع خلق الطير بل ولا عند النصـارى الذين يتناقلون وقوع سائر الآيات المذكورة فى الآية إلا ما فى انجيل

الصبا أو الطفولة من نحو ما قال ابن اسحق وهو من الأناجيل غير القانونية عندهم ٠

ولعل سورة المائدة أدنى الى الدلالة على الوقوع من هذه الآية وهى : « ٥ : ١١٠ **اذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى وتبرىء الأكمه والأبرص باذنى واذ تخرج الموتى باذنى واذ كففت بنى اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات** » ٠

فان جعل ذلك كله متعلق النعمة يؤذن بوقوعه ، الا أن يقال ان جعل هذه الآيات مما يجرى على يديه عند طلبه منه والحاجة الى تحديه به من أجل النعم وأعظمها ولكن هذا خلاف الظاهر ٠

وأنت تشاهد :

(أ) أن السيد رشيد يسير على نهج امامه فى الوقوف عند لفظ الآية وعدم الزيادة فى تفصيلات يتوقف التصديق بها على نقل يحتج به ٠

(ب) وانه مع ذلك خبير بما يتعلق بموضوع الآية من آيات مماثلة أو روايات فى الحديث أو كلام فى الكتب المقدسة وهو يروى ويقارن ويمحص وينقد ٠

(جـ) ومع كونه صرح أن الآية الأخيرة تؤذن بوقوع الخلق من الطين الا انه دقيق فى التعبير لأنه صرح سابقا : انه ليس عندنا نقل صحيح بوقوع خلق الطير يؤكد ماتؤذن به الآية ٠

وينقله الى درجة الحصول بالفعل ٠

(د) وهو يرفض كلام ابن اسحق ويراه غريبا لأنه يحـــول المعجزة الى ألعوبة يتظاهر بها عيسى أمام الصبيان ٠

٥ ـ وأحيانا يعرض صاحب المنار أفكار الامام فيبسطهـــا ويوضحها توضيحا كاملا حتى يهيأ لك أنه صاحب الفكرة والتوضيح، ولعل ذلك هو سبب اتهام بعض العلماء للسيد رشيد فيما نسبه من آراء للامام وقولهم انه افترى على الامام مالم يقله ٠

مع أن صاحب المنار رجل ثقة فى الحديث ، معروف بالصدق وهو لم يوافق الامام فى كل ما حكاه عنه ٠ بل كان يرد رأى الامام اذا رأى أنه مجانب للصواب ٠ وقد مرت بنا قصة آدم عليه السلام ٠ وذكر الامام هناك أنها اشارة الى الأطوار الفطرية الثلاثة للبشر وهى طور الطفولية وطور التمييز الناقص وطور الرشد والاستواء ٠ قال الأستاذ الامام : كان تدرج الانسان فى حياته الاجتماعية ابتدأ ساذجا سليم الفطرة قويم الوجهة مقتصرا فى طلب حاجاته على القصـــد والعدل ، متعاونا على دفع ما عساه يصيبه من مزعجات الكون وهذا هو العصر الذى يذكره جميع طوائف البشر ويسمونه بالذهبى ٠ ثم لم يكفه هذا النعيم المرفه فمد بعض أفراده أيديهم الى تنـاول ما ليس لهم ، طاعة للشهوة ، وميلا مع خيال اللذة ، وتنبه من ذلك ما كان نائما فى نفوس سائرهم فثار النزاع وعظم الخلاف واستنزل الشقاء وهذا هو الطور الثانى وهو معروف فى تاريخ الأمم ٠ ثـــم جاء الطور الثالث وهو طور العقل والتدبر ووزن الخير والشـــر بميزان النظر والفكر ، وتحديد حدود للأعمال تنتهى اليها نزعات الشهوات ، ويقف عندها سير الرغبات وهو طور التوبة والهداية ان شاء الله ٠

ولكن السيد رشيد لا يقبل هذا الكلام على علاته فيقول : « ان توبة آدم عليه السلام بناء على تفسير القصة بحمل الكـــلام على

الحقيقة قد كانت بالرجوع الى الله واعترافه مع حواء بظلمهما لأنفسهما وطلبهما المغفرة والرحمة منه تعالى ، لا بمجرد تدبير العقل ووزن الخير والشر بميزان الفكر الخ ما قاله شيخنا هنا تبعا لبعض علماء الاجتماع من المؤرخين · وهو قد بين فى بحث الحاجة الى الرسالة من رسالة التوحيد أن عقل البشر لا يستقل بوضع حدود للأعمال تنتهى اليها نزعات الشهوات ، ويقف عندها سير الأهواء والرغبات ، بل لابد له من تشريع الهى لذلك · ولكنه أوجز هنا فترك المسألة مبهمة مظلمة ، واننا نرى أن طور العقل والفكر قد بلغ فى هذه العصور مرتقى لم يعرف فى التاريخ ما يقربه ووضع علماؤه وحكماؤه شرائع وقوانين لايقاف التنازع والتخاصم عند حد لايتفاقم شره ، ثم نرى أعلم هذه الأمم ودولها مبعث الشرور والشقاوة ، والخبث والرياء والحروب والفتن ، فلا هداية الا هداية الدين الالهى الذى تذعن له الأنفس بمحض العبودية لله تعالى(١) ·

ان السيد رشيد رضا راو أمين ، روى أفكار الامام وشرحها وبسطها ومدح الصواب منها وأطراه ونبه على الخطأ · ومن يدرى ماذا كان يصبح مصير آراء الامام فى التفسير لو لم ينقلها لنا السيد رشيد ·

لقد ضاعت مذاهب أئمة أعلام لأن تلاميذهم لم يقوموا بنشرها ·

بينما انتشرت مذاهب أئمة أقل منهم حين هيئت لها وسائل النشر · وقد وقف الامام الشافعى على قبر الامام الليث بن سعد فقال : الليث أفقه من مالك غير أن أصحابه لم يقوموا به ، وقال

---

(١) تفسير المنار جـ١ ص ٢٨٤ ·

الشافعى أيضا : مالك شيخى والليث أمثه من مالك غير أن أصحابه ضيعوه •

وقديما قال النقاد ، ان المعانى والأفكار عامة وشائعة وقد يعبر الشاعر أو الكاتب عن المعنى فينسب اليه ويصبح ملكا له • فقيام الأمم على الأخلاق فكرة قديمة ، ولكن شوقى حين عبر عنها أصبحت كأنها ملك له ونسبت اليه لبيته المشهور :

وانمـا الأمم الأخـلاق ما بقيت   فان هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ان واجبنا أن نقابل جهود السيد رشيد فى نشر أفكار الامـام بالشكر والوفاء والاعتراف بالفضل لأهله ، لا بالكنود والجحود •

٦ ـ وقد كان السيد رشيد رضا محدثا وفقيها •

وقد اشتهر أناس بالحديث ولا فقه لهم • واشتهر قوم بالفقه وكانوا ضعافا فى الحديث •

أما السيد رشيد فقد جمع بين الحسنيين ، فكـان حجـة فى الحديث وكان فتحا جديدا فى بحوثه الفقهية وفتاويه التى رد بهـا على أسئلة وجهت اليه فى المنار .

وهو لذلك ربما رد تفسير المفسرين للآية لأن ظواهر الأحاديث الواردة فى الموضوع تأباه • ثم لايلبث أن يلتمس للمفسرين مخرجا مما وقعوا فيه •

فى تفسـير قوله تعـالى : ((**اذ قال الله ياعيسى انى متوفيك ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا**)) • قال السيد رشـيد •• فالمتبادر من الآية انى مميتك وجاعلك بعد الموت فى مكان رفيـع عندى ، كما قال تعالى فى ادريس عليه السلام ١٩ : ٥٢ ((**ورفعناه مكانا عليا**)) والله تعالى يضيف اليه ما يكون فيه الأبرار من عـالم

الغيب قبل البعث وبعده كما قال فى الشهداء ٣ : ١٦٩ ((**أحياء عند ربهم**)) وقال ٥٤ : ٥٤ ((**ان المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر**)) وأما تطهره من الذين كفروا فهو انجاؤه مما كانوا يرمونه به أو يرومونه منه ويريدونه به من الشر .

هذا ما يفهمه القارىء الخالى الذهن من الروايات والأقوال ، لأنه هو المتبادر من العبارة . وقد أيدناه بالشواهد من الآيـــات ، ولكن المفسرين قد حولوا الكلام عن ظاهره لينطبق على ما أعطتهم الروايات من كون عيسى رفع الى السماء بجسده ، وهاك ما قاله الأستاذ الامام فى ذلك .

« يقول بعض المفسرين «انى متوفيك» أى منومك ، وبعضهم : انى قابضك من الأرض بروحك وجسدك « ورافعك الى » بيان لهذا التوفى ، وبعضهم : انى أنجيك من هؤلاء المعتدين فلا يتمكنون من قتلك وأميتك حتف أنفك ثم أرفعك الى ، ونســـب هذا القـول الى الجمهور ، وقال : للعلماء ههنا طريقتان ، احداهما وهى المشهورة أنه رفع حيا بجسده وروحه . وأنه سينزل فى آخر الزمان فيحكـم بين الناس بشريعتنا ثم يتوفاه الله تعالى . ولهم فى حياته الثانيــة على الأرض كلام طويل معروف .

وأجاب هؤلاء عما يرد عليهم من مخالفة القرآن فى تقديم الرفع فى التوفى بأن الواو لاتفيد ترتيبا أقوال : وفاتهم أن مخالفة الترتيب فى الذكر للترتيب فى الوجود لا يأتى فى الكــلام البليغ الا لنكتــة ولا نكتة ، هنا لتقديم التوفى على الرفع اذ الرفع هو الأهم لمــا فيه من البشارة بالنجاة ورفعة المكانة .

قال : والطريقة الثانية أن الآية على ظاهرها وأن التوفى على الظاهر المتبادر وهو الاماتة العادية ، وأن الرفع يكون بعده وهو

رفع الروح ، ولا بدع فى اطلاق الخطاب على شخص وارادة روحه ، فان الروح هى حقيقة الانسان والجسد كالثوب المستعار ، فانه يزيد وينقص ويتغير والانسان انسان لأن روحه هـى هـى • قال : « ولصاحب هذه الطريقة فى حديث الرفع والنزول فى آخر الزمان تخريجان أحدهما أنه حديث آحاد متعلق بأمر اعتقادى لأنـه من أمور الغيب ، والأمور الاعتقادية لايؤخذ فيهـا الا بالقطعى لأن المطلوب فيها هو اليقين ، وليس فى الباب حديث متواتر •

وثانيهما تأويل نزوله وحكمه فى الأرض بغلبة روحه وسـر رسالته على الناس وهو ما غلب فى تعليمه من الأمر بالرحمة والمحبة والسلم والأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقـوف عند ظواهـرها والتمسك بقشورها دون لبابها ، وهو حكمتها وماشرعت لأجله •

فالمسيح عليه السلام لم يـأت لليهود بشـريعة جديدة ولكنه جاءهم بما يزحزحهم عن الجمود على ظواهر ألفاظ شريعة موسى عليه السلام ويوقفهم على فقهها والمراد منها • ويأمرهم بمراعاته وبما يجذبهم الى عالم الأرواح بتحرى كمال الآداب ، أى ولما كان أصحاب الشريعة الأخيرة قد جمدوا على ظواهر ألفاظها بل وألفاظ من كتب فيها معبرا عن رأيه وفهمه ، وكان ذاك مزهقا لروحها ذاهبا بحكمتها كان لابد من اصلاح عيسوى يبين لهم أسرار الشريعـة وروح الدين وأدبه الحقيقى • وكل ذلك مطوى فى القـرآن الذى حجبوا عنه بالتقليد الذى هو آفة الحق وعد والدين فى كل زمان • فزمان عيسى على هذا التأويل هو الزمان الذى يأخذ الناس فيـه بروح الدين والشريعة الاسلامية لاصلاح السرائـر من غير تقييد بالرسوم والظواهر •

هذا ماقاله الأستاذ الامام فى الدرس مع بسط وايضـاح ، ولكن ظواهر الأحاديث الواردة فى تلك تأباه ، ولأهل هذا التأويل أن

يقولوا : ان هذه الأحاديث قد نقلت بالمعنى كأكثر الأحاديث ، والناقل المعنى ينقل ما فهمه · وسئل عن المسيح الدجال وقتل عيسى لـــه فقال : ان الدجال رمز للخرافات والدجل والقبائح التى تزول بتقرير الشريعة على وجهها والأخذ بأسرارها وحكمها · وان القرآن أعظم هاد الى هذه الحكم والأسرار وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام مبينة لذلك فلا حاجة للبشر الى اصلاح وراء الرجوع الى ذلك(١) » ·

وترى من هذا النقل أن الشيخ رشيد منظم فى ســرده لآراء السابقين ، ومحقق حين يرد على بعضها أو يعرضها بما هو أقوى منها · وفقيه فى فهمه لأسرار الشريعة وروح الدين وكلياته ، فلله دره عالما ·

وعند تفسير الامام لقوله تعالى : ((**وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر**)) قال : أى ويباح لكم الأكل والشرب كالمباشرة عامة الليل حتى يتبين لكـــم بياض الفجر ، فمتى تبين وجب الصيام · وما أحســـن التعبير عن أول طلوع الفجر بالخيطين · والخيط الأبيض هو أول ما يبدو من الفجر الصادق ، فمتى أسفر لا يظهر وجه لتسميته خيطا ، فما ذهب اليه بعض السلف كالأعمش من أن ابتداء الصوم من وقت الاسفار تنافيه عبارة القرآن : وعلق السيد رشيد بقوله : هذا ما كتبه أولا وهو غير دقيق وسأفصله فى الاستدراك والايضاح الذى تراه بعد تمــام تفسير الآية · ثم استدرك عليه ببحث عنوانه (مسألة بدء الصيام وهل هو طلوع الفجر أم تبين بياض النهار للناس (٢) ·

---

(١) تفسير المنار جـ٣ ص ٣١٦ وما بعدها ·
(٢) انظر تفسير المنار جـ١ ص ١٧٨ ، ١٨٠ ·

الخاصة الثانية :

تأثر صاحب المنار بابن كثير

كان الحافظ ابن كثير حجة فى الحديث والتفسير · « وقد طبع صاحب المنار تفسير ابن كثير ونشره فى البلاد العربية والاسلامية(١) ، وتفسير ابن كثير تفسير سنى سلفى (وهو من افيد كتب التفسير بالرواية يفسر القرآن بالقرآن ثم بالأحاديث المشهورة فى دواوين المحدثين بأسانيدها ، ويتكلم على أسانيدها جرحا وتعديلا ، فيبين ما فيها من غرابة أو نكارة أو شذوذ غالبا ، ثم يذكر آثار الصحابة والتابعين(٢) قال السيوطى فيه : « لم يؤلف على نمطه مثله » ·

وقد قرأ ابن كثير على شيخ الاسلام تقى الدين ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ كثيرا ولازمه وأحبه وانتفع بعلومه(٣) ، واشتهر ابن كثير بالضبط والتحرير وانتهت اليه رياسة العلم فى التاريخ

---

(١) رشيد رضا او اخاء اربعين سنة : شكيب ارسلان القاهرة ١٩٣٧ ·

(٢) الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث : تأليف أحمد محمد شاكر ص ١٦ ·

(٣) نفس المرجع السابق ·

والحديث والتفسير وكان أحفظ أقرانه لمتون الأحـاديث وأعرفهـم بجرحها ورجالها وصحيحها وسقيمها وكان أقرانه وشيوخه يشهدون له بذلك ٠

وقال المؤرخ الشهير ابن تغرى بردى : « الشيخ الامام العلامة عماد الدين أبو الفداء ٠٠ لازم الاشتغال ، ودأب وحصل وكتب ، وبرع فى الفقه والتفسير والحديث وجمع وصنف ، ودرس وحدث وألف ، وكان له اطلاع عظيم فى الحديث والتفسير والفقه والعربية وغير ذلك ، وأفتى ودرس الى أن توفى » ٠

١ ـ وقلما تمر آية فى تفسير ابن كثير الا ويروى ما يتعلق بها أو يناسبها من أحاديث ثم يخرج هذه الأحاديث ويبين درجتها ثم يشرح الآية شرحا مبسطا معقولا ٠ ويطيل فى آيات لها مناسبات خاصة مثل آية الكرسى فيذكر ما ورد فى فضلها ٠ والآراء المـأثورة فى تفسيرها ٠

٢ ـ واذا كانت هناك أحـاديث مأثورة يخالف ظاهرهـا مضمون الآية فانه يورد هذه الأحاديث ويوفق بينها وبين الآية ٠

فعند تفسيره لقوله تعالى : ((**تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات**)) يفسر الآية ثم يروى حديث الصحيحين فى ذلك وهو : « اختصم رجـلان : رجـل من المسلمين ورجل من اليهود ، فقال المسلم والذى فضل محمدا على العالمين ٠ فقال اليهودى والذى فضل موسى على العالمين ٠ فلطم المسـلم اليهودى فاشتكى اليهودى للنبى (صلى الله عليـه وسلم) فقال صلى الله عليه وسلم لأصـحابه : لاتفضـلونى على موسى

ولاتفضلونى على الأنبياء فان الناس يصعقون يوم القايمة فأصعق معهم فأكون أول من يفيق ، فاذا موسى باطش بساق العرش فلا أدرى أكان ممن صعق فأفاق قبلى أو كان ممن استثنى الله » .

فالآية صريحة فى تفضيل بعض الرسل على بعض والحديث ينهى عن تفضيله (صلى الله عليه وسلم) على موسى أو على الأنبياء . ولكن ابن كثير يدفع هذا الاشكال فيقول « ان تخريجه من خمسة وجوه . ثم يروى هذه الوجوه »(١) .

٣ ـ وكان ابن كثير خبيرا بالتاريخ وله فيه كتاب يسمى « البداية والنهاية » ذكر فيه قصص الأنبياء والأمم الماضية على ماجاء فى القرآن الكريم والأخبار الصحيحة ، وبين الغرائب والمناكير والاسرائيليات(٢) ، ثم يحقق السيرة النبوية والتاريخ الاسلامى الى زمنه ، ثم ينقل الفتن وأشراط الساعة والملاحم وأحوال الآخرة .

ولذلك تراه يذكر ما يتعلق بالآية من أحداث تاريخية كما فى تفسير قوله تعالى : « **هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الألباب** »(٣) .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٠٤ .

(٢) ص ١٦ الباعث شرح اختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير (٧٠١ ـ ٧٧٤ هـ) .

(٣) آل عمران ، آية ٧ .

يروى ابن كثير عن مسند الامام أحمد ان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : اذا رأيتم الذين يجادلون فى آيات الله فهم الذين عناهم الله فاحذروهم ٠

وعن النبى (صلى الله عليه وسلم) هـم الخوارج ٠٠ أول ما ظهر منهم عند تقسيمه (صلى الله عليه وسلم) غنائم حنين فقال له أحدهم(١) أعدل ٠ فقـال (صلى الله عليـه وسلم) لقد خبت وخسرت ان لم أكن أعدل أيأمننى على أهل الأرض ولا تأمنون ؟ ٠ فقال عمر أو خالد دعنى أضرب عنقه ، فقال عليه السلام : دعه فانه يخرج من ضئضىء هذا أى من جنسه قوم يحقر أحدكم صلاته الى صلاتهم وقراءاته الى قراءتهم يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهـم فان فى قتلهـم أجـرا لمـن قتلهم » ٠

ثم كان ظهورهم أيام على بن أبى طالب (رضى الله عنه) وقتلهم بالنهروان ثم تشعبت منهم شعوب وقبائل وآراء وأهواء ومقـالات ونحل كثيرة منتشرة ثم انبعث القدرية ثم المعتزلة ثم الجهمية وغير ذلك من البدع التى أخبر عنها الصادق (صلى الله عليه وسلم) فى قوله : « ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار الا واحدة قالوا وما هم يا رسول الله ؟ قال من كان على ما أنا عليه وأصحابى » أخرجه الحاكم فى مستدركه ٠

فابن كثير يهتم بتاريخ نزول الآية وما يدور حولها من أحاديث نبوية شريفة ٠ وما يتعلق بها من أسئلة وجهت لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) عنها أو حوادث تاريخية توضح تأويلها قبل نزول الوحى أو عنده أو بعده فى العصور التالية لنزول الرسالة ٠

---

(١) هو ابو الخويصرة بقر الله خاصرته ٠

٤ ـ ولم يكن ابن كثير مفسرا ومحدثا فحسب بل كان فقيها أيضا ولذلك كان يورد آراء الفقهاء عند تفسيره لآيات الأحكام مثل قوله تعالى : ((**الطلاق مرتان فامساك بمعروف أ وتسريح باحسان**)) فنراه يفصل التفريعات الفقهية فى مسائل الطـــلاق والخلع ويورد الأحاديث النبوية المتعلقة بأحكامها بكثرة كثيرة ٠

والخلاصة :

١ ـ أن تفسير ابن كثير تفسير مهتم بالرواية(١) ٠

٢ ـ ويحاول أن يوفق بين الآية وما أثر من أحاديث تخالفها فى الظاهر ٠

٣ ـ وهو مؤرخ يذكر ما يتعلق بالآية من تاريخ ســابق أو لاحق ٠

٤ ـ وهو مهتم بايراد التفريعات الفقهية عند تفسيره لآيـات الأحكام ٠

وقد طبع صاحب المنار تفسير ابن كثير وتأثر بــه فى هذه الأشياء وان تميز مع هذا بطابعه وسننقل اك الشواهد على ذلك من تفسير المنار ٠

١ ـ صاحب المنار مهتم برواية الأحاديث التى تتعلق بالآية :

لقد كان صاحب المنار حجة فى الحديث ٠ كما كان ابن كثير من رجال الحديث وتشاهد العناية برواية الحديث وتخريجه ظاهره فى تفسير المنار ٠ فمثلا عند تفسير قوله تعـالى : ((**لن تنالوا البر**

---

(١) يقول ابن كثير فى مقدمة تفسيره « ان خير ما فسر القرآن القرآن ثم السنة ثم قول الصحابة ثم اقوال التابعين اذا كانت متفقة فان اختلفوا فليس احدهم حجة على الآخر ٠

حتى تنفقوا مما تحبون » أورد السيد رشيد رضا الكثير من الأحاديث والآثار والأخبار المتعلقة بهذه الآية مقتفيا فى ذلك أثر ابن كثير ٠

٢ ـ وصاحب المنار مهتم بالتوفيق بين الآيـــة وما أثر من أحاديث تخالف الآية فى الظاهر مثل ابن كثير ٠

وقد مر بنا ذلك عند تفسيره لقوله تعالى : **« اذ قال الله ياعيسى انى متوفيك ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا »** ٠ فقد فسر الآية ثم حكى ما قاله الامام وما نقله عن المفسرين ثم علق قائلا : « هذا ما قاله الأستاذ الامام فى الدرس مع بسط وايضاح ولكن ظواهــر الأحاديث تأباه ، ولأهل هذا التأويل أن يقولوا : ان هذه الأحاديث قد نقلت بالمعنى كأكثر الأحاديث والناقل للمعنى ينقل مافهمه(١) ٠

٣ ـ وصاحب المنار محقق لحوادث التاريخ التى تتعلق بالآية كابن كثير ٠

(أ) فعند تفسيره لقصة نوح(٢) عليه السلام علق على تفسيره لها بعلاوات أربع ، العلاوة الثانية منها كانت عن حادثة الطوفان فى القرآن والتوراة والتاريخ القديم ٠

ثم حقق أخبار الطوفان فى الأمم القديمة ونقدها ومحصها ٠

واتبع حديثه عن الطوفان بقوله : « وهذه المسائل التاريخية ليست من مقاصد القرآن ولذلك لم يبينها بنص قطعى ، فنحن نقول بما تقدم انه ظاهر النصوص ولا نتخذه عقيدة دينية قطعيـــة ، فان

---

(١) جـ٣ ص ٣١٦ تفسير المنار ، وانظر جـ٢ ص ١٥٢ من تفسير المنـــار تجده يوفق بين قوله تعالى (وان تصوموا خير لكم) وقوله (صلى الله عليه وسلم) ليس من البر الصيام فى السفر ٠

(٢) جـ١٢ ص ١٠٥ تفسير المنار ٠

٩ثبت علم الجيولوجية خلافه لايضرنا ، لأنه لا ينقض نصـــا قطعيا عندنا »(١) .

(ب) ونقل صاحب المنار عن الزمخشرى رواية تثبت أن الذبيح اسحق ، ثم نقد هذه الرواية وزيفها من الناحية التاريخية :

قال الزمخشرى : روى أن اخوة يوسف لما دخلوا عليه أدوا اليه كتاب يعقوب : « من يعقوب اسرائيل الله بن اسحاق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله الى عزيز مصر · أما بعد فانا أهـــل بيت موكل بنا البلاء ، أما جدى فشدت يداه ورجلاه ورمى به فى النار ليحرق فنجاه الله وجعلت النار عليه بردا وسلاما ، وأما أبى فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله ، وأما أنا فكان لى ابن وكان أحب أولادى الى فذهب به اخوته الى البرية ثم أتونى بقميصه ملطخـا بالدم وقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناى من بكائى عليه ثم كان لى ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا انه سرق وأنك حبسته لذلك ، وانا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقا فان رددته على والا دعوت عليك دعوه تدرك السابع من ولـــدك والسلام » . فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك وعيل صبره وكتب الجواب : اصـــبر كما صـــبروا ، تظفر كما ظفروا . انتهى قول الزمخشرى وأقره ابن المنير وغيره عليه بل أتبعوه فيه ·

وأقول ان الرواية التى ذكرها فى كتاب يعقوب (ع·م) الى عزيز مصر من الاسرائيليات الباطلة وأسلوبه اسلامى مصنوع · ومن أغراض كعب الأحبار ووهب بن منبه المروى عنه فيه اقنـاع المسلمين بأن الذبيح اسحق لا اسماعيل خلافا للمتواتر عند العــرب الذى أقره الاسلام وجعلت الأضاحى وهى سنة ابراهيم فى فداء ولده

---

(١) تفسير المنار ج١٢ ص ١٠٥ ، ١٠٩ ·

اسماعيل من مناسك الحج حيث فداه الله فى منى من ضواحى مكة وطن اسماعيل ، فبث زنادقة اليهود فى التفسير المأثور أن الذبيح اسحاق وقد صار هذا مذهبا يؤخذ بالتقليد ويحرف لأجله تفسير القرآن ، فان القصة فى سورة الصافات صريحة فى أن الذبيح هو ولد ابراهيم الأول (اسماعيل) وأن الله قد بشره على احسانه فيها بولده الثانى (اسحاق) اذ قال فى آخرها ٢٢ : ١٠٦ ((**ان هذا لهو البلاء المبين**)) ١٠٧ وفديناه بذبح عظيم — الى قوله — ١١٢ ((**وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين**))(١) .

(حـ) وأحيانا يفسر صاحب المنار الآية ثم ينقل التفاسير السابقة لها فى تسلسل تاريخى . قال فى تفسير قوله تعالى : ((**ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار**)) .

أى ولا تستندوا الى الذين ظلموا من قومكم المشركين ولا من غيرهم فتجعلوهم ركنا لكم تعتمدون عليهم فتقرونهم على ظلمهم ، وتوالونهم فى سياستكم الحربية وأعمالكم المالية فان الظالمين بعضهم أولياء بعض .

ثم يذكر تحقيقا لغويا عن الركون . ومنه يظهر سعة باعه ودقة فهمه ، وحسن ذوقه فى تحريره للمعانى اللغوية ثم يعلق على التفسير قائلا :

« نموذج من قصور أقوال المفسرين وغلطهم فى تفسير الآية » : الرواية المأثورة والمعتمدون عليها :

١ — روى الامام ابن جرير المتوفى سنة ٣١٠ عن ابن عباس

---

(١) تفسير سورة يوسف للسيد رشيد رضا : بقلم محمد بهجت البيطار ص ١١ . وقارن ذلك بما ورد فى كتاب مذاهب التفسير الاسلامى ترجمة دكتور عبد الحليم النجار ص ١٠٠ .

(رضى الله عنه) . أنه فسر الآية بالركون الى الشرك (وهو أقوى ماروى فيها) .

٢ ـ وقال أبو بكر الحصاص الحنفى المتوفى سنة ٣٧٠ فى تفسيره (أحكام القرآن) .

٣ ـ وقال الزمخشرى المعتزلى المتوفى سنة ٥٢٨ فى كشافه بعد ذكر القراءات فى الآية .

٤ ـ وقال القاضى أبو بكر العربى المالكى المتوفى سنة ٥٤٣ فى أحكام القرآن : وتبعه القرطبى المتوفى سنة ٦٧١ فى تفسيره جامع أحكام القرآن فنقل كلامه بدون عزو اليه ولم يزد عليه .

٥ ـ وقال أبو على الفضل بن الحسن الطوسى الشيعى المتوفى سنة ٥٦١ هـ فى تفسيره مجمع البيان .

٦ ـ وقال فخر الدين الرازى الشافعى المتوفى ٦٠٦ هـ فى تفسيره الكبير مفاتيح الغيب ..

٧ ـ وقال القاضى ناصر الدين عبد الله عمر البيضاوى الشافعى المتوفى سنة ٦٨٥ هـ ..

٨ ـ وقال عبد الله بن أحمد النسفى الحنفى المتوفى سنة ٧٠١ فى تفسيره مدارك التنزيل ..

٩ ـ وقال أبو السعود شيخ الاسلام مفتى دولة الروم العثمانية المتوفى سنة ٩٧٣ فى كتابه ارشاد العقل السليم .

١٠ ـ وقال السيد محمود الآلوسى مفتى الحنفية فى بغداد (بعد أن كان شافعيا) فى تفسيره روح المعانى ..

١١ ـ واختتم هذه النقول بما أورده السيد محمد صديق حسن خان نائب ملك بهوبال (الهند) المتوفى سنة ١٣٠٧ فى تفسيره

(فتح البيان فى مقاصد القرآن الذى أودعه تفسير أستاذه القاضى الشوكانى المسمى (بفتح القدير) .

« وقد اختلفت أيضا الأئمة من المفسرين فى هذه الآية هل هى خاصة بالمشركين أو عامة ؟ فقيل خاصة ، وان معنى الآية النهى عن الركون الى المشركين وأنهم المرادون بالذين ظلموا ، وقد روى ذلك عن ابن عباس ، وقيل انها عامة فى الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم وهذا هو الظاهر من الآية ، ولو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون لكان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وقد اكتفيت بذكر المفسرين ولم أذكر آراءهم فى تفسير الآية لأن مرادى بيان عناية صاحب المنار بالتسلسل التاريخى لتفسير الآية ، وملاحظاته على تطور التفسير بتطور الزمن .

٤ ـ وصاحب المنار مهتم بالبحوث الفقهية التى تتعلق بآيات الأحكام كابن كثير ويمتاز عنه بالتوسع والتنظيم .

(أ) فبعد أن فسر قوله تعالى : ((**يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا الا عابرى سبيل حتى تغتسلوا وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ان الله كان عفوا غفورا**)) النساء ٤٣ .

قال واننا نختم تفسير الآية بمسائل فى أحكام التيمم(١) لابد منها وذكر عشر مسائل :

المسألة الأولى : معنى التيمم اللغوى والشرعى .

المسألة الثانية : محل التيمم .

---

(١) تفسير المنار جـ٥ ص ١٢٣ ـ ١٣٥ .

المسألة الثالثة : التيمم ضربة واحدة ولا ترتيب فيه ·

المسألة الرابعة : ما هو الصعيد ؟

المسألة الخامسة : التيمم من الحدثين لفاقد الماء المسافر والمقيم فيه سواء ·

المسألة السادسة : فى كون المتيمم لا يعيد الصلاة اذا وجد الماء ·

المسألة السابعة : الرواية فى تيمم المسافر مع وجود الماء ·

المسألة الثامنة : التيمم من الجراح والبرد ·

المسألة التاسعة : التيمم كالوضوء فى الوقت وقبله وفى استباحة عدة صلوات به ·

المسألة العاشرة : فى حكمة التيمم ·

(ب) ولصاحب المنار أبحاث متعددة فى العبادات وأصول الفقه(١) ·

ويمتاز فى بحوثه الفقهية بالتجديد والبعد عن التقليد ، وترجيح ما يناسب مصالح الناس وتجنب الحيل والتعصب · « وكان صاحب المنار يعقد فى كل عدد من المنار بابا للمراسلات (الأسئلة والأجوبة الدينية) ينشر فيه مسائل واردة من كل جوانب العالم الاسلامى مع الجواب عليها ، ليثبت نظرياته فى ضوء

---

(١) انظر تفسير المنار جـ٥ من ص ١٦٨ ـ ٢٢٢ تجد بحثا فى اصول التشريع : الكتاب والسنة والاجماع والقياس والمصالح المرسلة · وفى ص ١٥٤ ـ ١٦٨ جـ٦ تجد بحثا فى منزلة السنة من الكتاب · وانظر ص ٢٠٠ جـ٤ ·

الأحوال الواقعية الجارية . والظاهر أن جانبا كبيرا من هذه الأسئلة مصنوع ، حصل اعداده على حسب الأجوبة المقصود بيانها .

وهذا فن من فنون التحرير فى كل مكان ، اصطنعه لنفسه أيضا رئيس التحرير السورى المصرى . ولست مجانبا للصواب اذا قررت أن السؤال التالى مع جوابه قد أعدا على عمد لابراز القصور فى حالات الفقه ومسائله فى ضوء مثال لافت للنظر :

ذكرت المجلة أن سيدا من تونس وجه السؤال التالى الى محرر المنار :

« عندنا ماجل(١) فى دارنا يجتمع فيه المطر من السطوح فنستعمله فى العادة والعبادة . وقد وقع فيه فرخ حمام ميت وكان الوقت صيفا والماء فيه قليلا . فتغير لونه وريحه وتعذر علينا اخراج الفرخ منه فتركنا استعماله حتى جاء الشتاء وامتلأ الماجل بالماء وزال التغير من لونه ورائحته وعاد زلالا نقيا ، فسألنا سادتنا الحنفية عنه ، فقالوا : لابد من نزح ماء الماجل كله . وسألنا سادتنا المالكية ، فقالوا لابد من اخراج الطير أو ما بقى منه فى الماء ليجوز استعماله فى العادة والعبادة . وفى ذلك مشقة علينا لكبيرة ونحن مضطرون لاستعمال هذا الماء . وقد قصدنا مذهب سادتنا الشافعية لعلنا نجد فيه رحمة فأفيدونا رحمكم الله .

ولكن شيخنا الذى يعالج مع ذلك السؤال برمته ، فى أسلوب قوى التندر ، يستطيع أن يأتى بحل مطمئن على مذهب الشافعية :

« مذهب الشافعية أن الماء اذا بلغ قلتين لا ينجس الا بتغير طعمه أو لونه أو ريحه من النجاسة . فلو كان الماء متنجسا لوقوع

---

(١) الماجل فى اللغة كل ماء فى اصل جبل او دار ولعل اهل تونس يطلقونه على الصهريج .

نجاسة فيه وهو قليل ثم زاد حتى بلغ قلتين يطهر ، ولو كان المتجدد متنجسا أيضا ، بل ولو كان مائعا نجس العين ، والقلتان ستمائة رطل بالبغدادى وتبلغ بالمساحة نحو ذراع وربع طولا وعرضا وعمقا ٠

ولاشك أن ما جلكم أوسع من ذلك ، فهو طاهر حتما ٠ هذا وان الله تعالى أمرنا بازالة النجاسة ليطهرنا لا ليعنتنا وهو يريد بنا اليسر لا يريد بنا العسر ، وما جعل علينا فى الدين من حرج ٠ والنجاسة التى نهينا عنها هى القاذورات التى تنفر منها الطباع السليمة فهل يعقل أن ماجلا عظيما وحوضا كبيرا فيه ماء صاف نقى لا تغير فيه يحكم عليه بالنجاسة لتدقيق بعض الفقهاء فى الحدود التى وضعوها للاصطلاحات الشرعية ، ويلزم لهذا التدقيق اعنات أهل بيت من المسلمين وايقاعهم فى الحرج والعسر اللذين نفاهما الله تعالى(١) » .

(حـ) ويمتاز صاحب المنار فى بحوثه الفقهية ببيان أسرار العبادات وحكمتها وفوائدها ٠ على نمط ماصنع الغزالى فى كتابه احياء علوم الدين ٠ فقد تحدث صاحب المنار عن الصيام عند تفسيره لقوله تعالى : « **يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** »(٢) ٠

واستغرق تفسير آيات الصيام خمسين صحيفة(٣) ، ويضع صاحب المنار فى أعلى الصحيفة عنوانا لما يبحث فيها مثل :

---

(١) مذاهب التفسير الاسلامى ـ د٠ عبد الحليم النجار ص ٣٦١ ٠
(٢) البقرة آية ١٨٤ ٠
(٣) تفسير المنار جـ٢ من ص ١٤٣ الى ١٩٤ ٠

١ ـ فوائد الصيام الدينية والاجتماعية والصحية ٠

٢ ـ صيام المريض والمسافر ٠

٣ ـ روح الصيام وما تجب مراعاته والتنزه عنه فيه ٠

٤ ـ فرض الفدية على من يفطر للمشقة الدائمة ٠

٥ ـ التطوع فى الصيام وكون الصيام خيرا ، انزال القرآن فى رمضان ٠

٦ ـ مزية القرآن على سائر الكتب السماوية ٠

٧ ـ سلف المسلمين وخلفهم فى هداية القرآن ٠

٨ ـ بدء انزال القرآن فى ليلة القدر المباركة من رمضان ٠

٩ ـ التقدير للصلوات الخمس وصيام شـــهر فى جهتى القطبين ٠

١٠ ـ تعليل الرخصة فى الصيام بيسر الدين وعدم العسر فيه ٠

١١ ـ بلاغة القرآن وايجازه فى تعليل الأحكام ٠

١٢ ـ معنى قرب الله من عباده والمراد من اخبارهم به ٠

١٣ ـ معنى الأمر بالاستجابة لله وبالايمان به ٠

١٤ ـ حل الرفث الى النساء فى ليلة الصيام ٠

١٥ ـ معنى الرفث ونزاهة القرآن فى كناياته ٠

١٦ ـ الأمر بمباشرة النساء ليلة الصيام للاباحة ٠

١٧ ـ بدء نهار الصيام ونهايته والنهى عن مباشرة المعتكف ٠

١٨ ـ النهى عن قرب حدود الله وعن اعتدائها ٠

وفى نهاية تفسير آيات الصيام عقد فصولا لتحقيق شـائك مسائله فقال « استدراك وايضاح لتفسير آيات الصيام ، وتحقيق الحق فيما اختلف فيه منها اجتهاد العلماء » ٠

١ ـ مسألة بدء الصيام وهل هو طلوع الفجر أم تبين بياض النهار ٠

٢ ـ ومسألة تعجيل الفطر وتأخير السحور وما بينه وبيـن صلاة الفجر ٠

٣ ـ ومسألة تحديد مواقيت الصلاة والصيام والحج والعيدين فى الاقطار والعمل بالحساب القطعى ٠

٤ ـ ٠٠ فصل فيما يفطر الصائم ومالا يفطره ٠

ملخص من رسالة شيخ الاسلام أحمد تقى الدين بن تيمية نشرت فى المجلد ٣١ من المنار(١) ٠

ومن هذه العناوين يتبين لك عمق البحث وخصوبته وشمول أطرافه لجميع مسائل الموضوع . وتراه يورد آراء السابقين عند تحقيقه لمسائل الخلاف حتى يهيأ لك انك تدرس الصيام فى أحد كتب الفقه أو الخلاف ٠ وان كان فى ذلك من عيب فهو الاطالة المملة التى تستهلك جهد القارىء ونشاطه ٠ ولذلك نصح صاحب المنـار قارئه « أن يقرأ الفصول الاستطرادية وحدها فى غير الوقت الذى يقـرأ فيه التفسير »(٢) ٠

---

(١) تفسير المنار جا ص ١٨٨ ٠
(٢) تفسير المنار جا ص ١٦ ٠

٥ ـ صاحب المنار متأثر بابن تيمية كما تأثر به ابن كثير ·

كان ابن كثير تلميذا لتقى الدين أحمد بن تيمية وقرأ عليه كثيرا ولازمه وأحبه وانتفع بعلومه(١) ·

وكان صاحب المنار من مدرسة ابن تمية التى دعت الى الاجتهاد · وحاربت التقليد والتعصب للمذاهب · ونقل السيد رشيد فى تفسير المنار فصولا كاملة وبحوثا مستوفاة من كتب ابن تيمية . وقال « ان كتب ابن تيمية وابن القيم أنفع كتب الكلام ، وان هذين الشيخين هما الجديران بلقب شيخ الاسلام »(٢) ·

وفى الصحيفة السابقة رأيت أنه نقل فصلا كاملا عنوانه « فصل فيما يفطر الصائم ومالا يفطره ، ملخص من رسالة شيخ الاسلام أحمد تقى الدين بن تيمية نشرت فى المجلد ٣١ من المنار »(٣) ·

وقد تأثر صاحب المنار أيضا بوارث ابن تيمية وراويته وتلميذه ابن القيم الجوزية . وساق نصوصا متفرقة من كتبه ، وأخرج فصولا مطولة من مؤلفاته لتأييد آرائه فى تفسير المنار ، فعند تفسيره لقوله تعالى : ((**ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله ان ربك حكيم عليم**))(٤) ·

---

(١) الباعث الحديث شرح اختصار علوم الحديث ابن كثير ـ تأليف الاستاذ احمد محمد شاكر ص ١٦ ·

(٢) المنار جـ٦ ص ٨٩١ ·

(٣) تفسير المنار جـ٢ ص ١٨٨ ·

(٤) سورة الانعام آية ١٢٨ ·

حكى الروايات الواردة فى انتهاء عذاب النـار(١) . وقـال صاحب المنار : على هذه الروايات ، بنيت الأقوال فى أبدية النـار وعدم نهايتها وفى ضده .

تفصيل ابن القيم للمسألة :

وقد استوفى ذلك بالاسهاب المحقق ابن القيم فى كتابه حادى الأرواح .

ونقل عنه السيد رشيد رضا حجج القائلين بدوام النار وعدم نهايتها والرد عليهم . ثم نقل عنه فصلا طويلا عنوانه :

فصل(٢) : ((**ونحن نذكر الفرق بين دوام الجنة والنار شرعا وعقلا وذلك يظهر من وجوه**)) ونقل عنه خمسة وعشرين وجها فى الفرق بينهما .

وهذا الفصل نموذج لكثير من الفصول التى ينقلها صاحب المنار عن كتب ابن تيمية وابن القيم أو يحيل عليها(٣) ، وهو يحيل بوجه خاص وتأكيد ظاهر على كتاب اعلام الموقعين لابن القيـم الجوزية فى مسائل الاجتهاد والفصل فى المواريث التشريعية(٤) .

وعمد صاحب المنار الى اخراج الكثير من كتب ابن تيمية وابن القيم كدليل على أنه لم يرتجل نظرياته بالهوى والاختيار الذاتى . بل هى تقف مع هذه الحجج فى اتصال اسلامى شريف المقصد مطرد الحلقات بل اتصال مرتبط أيضا بالسلف من الحنبليين .

---

(١) مثل نقل الالوسى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : يأتى على جهنم يوم ما فيها من ابن آدم أحد تصفق أبوابها كأنها أبواب الموحدين .

(٢) تفسير المنار جـ٨ من ص ٨١ الى ٩٩ .

(٣) تفسير المنار جـ ٨ ص ٢٥٦ .

(٤) المنـار جـ٦ ص ٨٩١ .

ولن يصعب حقا على من عرفوا تاريخ الأدب الدينى للاسـلام أن يلاحظوا أن تأثير كتب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية ؛ ذلك التأثير الذى أبرز عمله الخفى حركة الوهابيين • يتجلى دون نكير أصلا فى وجهات النظر التى تقود حرب حزب المنار على الحالـة العقدية السائدة وعلى الروح الدينية العامة المرتبطة بهذه الحالة • فان هنا كما هناك اطراحا لطبيعة التقيد بالمذاهب الأربعة ، والتقليد الذى يتطلبه ذلك ، وهنا كما هناك رجوع الى السنة والى السنـة وحدها من حيث هى الميزان المعتمد فحسب فى تنظيم الحياة الدينية ، وهنا كما هناك حرب عنيفة على البدع جميعـا ، وعلى الأخـص لاستئصال تعظيم الأولياء والمخلفات وما يقترن بـذلك من عادات خرافية ذميمة(١) •

وقد كان السيد رشيد يطبع كتب ابن تيمية وابن القيم لحساب الملك سعود • وفى خطاب أرسله الى شكيب أرسـلان ذكر فيـه المصروفات المطلوبة منه • وختمه بقوله « وجملة القول ان كديـن الواجب على أداؤه هذا العام لبنك مصر والبنك المرهونة له الدار تسعمائة جنيه مصرى • والايراد الرسمى الثابت المعـد لذلك هو مطبوعات جلالة الملك وفى الحقيقة يجب علينا السعى لغيرها »(٢) •

وأرى أن صاحب المنار كان يجامل ملك الحجاز حين يقول : « وذكر بعض الفقهاء أنه يجب هدم ما بنى من المساجد والقباب على قبور كثير من الائمة وآل البيت وأئمة الفقه وغيرهم من الصالحين ،

---

(١) مذاهب التفسير الاسلامى ترجمة الدكتور عبد الحليم النجـار ـ مكتبة الخانجى ص ٣٦٦ •

(٢) رشيد رضا : او اخاء اربعين سنة لشكيب أرسلان ، مطبعة ابـن زيدون بدمشق سنة ١٩٣٧م ص ٥١٩ •

وارتكبوا فيها المحظورات الكثيرة التى يعد بعضها من الشـــرك الصحيح وبعضها من البدع والمعاصى ولا سيما المعاصى التى تفعل تدينا وتقربا وتوصلا الى الله تعالى كمـــا ترى فى كتاب الزواجر للفقيه ابن حجر من فقهاء الشافعية وغيره من كتبهم ، وفى كثير من كتب الحنابلة ، ويحتجون بهدم النبى (صلى الله عليه وسلم) لمسجد الضرار »(١) ٠

ان ما علم من السيد رشيد من سعة الأفق ومراعاة المصـــالح العامة للمسلمين كان يجب أن يبعد به عن مثل هذا القول ٠

والخلاصة أن صاحب المنار كان متأثرا بابن كثير فى تفسيره للقرآن من حيث الاهتمام بالرواية والتوفيق بين النصوص المتخالفة فى الظاهر . والعناية بأحداث التاريخ المتعلقة بالقرآن ، والاهتمام بالتفريعات الفقهية والأبحاث الأصولية ، وتأثر الاثنان بابن تيمية ٠ فنزعا منزع المدرســة السلفية ، وطبع السيد رشيد لملك الحجـاز مؤلفات المدرسة السلفية لتأييد مذهب الوهابيين فى الحجـــاز ٠ وتأثر به فى هذا جماعة أنصار السنة بمصر ٠

واكثيرا ما كان صاحب المنار ينقل آراء ابن كثير فى سياق الاكبار والاعجاب . خصوصا فى المتشابه من القرآن وما تعددت فيه آراء المفسرين(٢) .

---

(١) تفسير المنار جـ١ ص ٤٣٣ ٠

(٢) تفسير المنار جـ٨ ص ٣٣٩ ٠

الخاصة الثالثة :

تأثر صاحب المنار بالغزالى

١ ـ نبذة عن حياة الغزالى :

هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسى وكنيته أبو حامد الغزالى · وهو غنى عن كل تعريف من ناحية تأثيره فى التفكير الاسلامى ·

ولد بطوس ، احدى مدن خراسان سنة ٤٥٠ هـ ، وكان شافعى المذهب ويذكر صاحب عيون الأنباء « أنه لم يكن للطائفة الشافعية مثيل له فى عصره ، وكان علما من الأعلام الذين يشار اليهم فى وقته » ·

وقد ذهب الى بغداد سنة ٤٨٤ هـ للتدريس بالمدرسة النظامية وكان ذلك فى الرابعة والثلاثين من عمره ·

ولما أخذ يلقى دروسه فيها أعجب به أهل العراق ، ولكنه لم يلبث أن سئم بغداد وحياة أربع سنوات فى سنة ٤٨٨هـ · ويرجع سأمه منها وعدم رضاه عن نفسه الى أن أزمة نفسية جامحة دعته الى الرغبة فى الزهد والانقطاع عن الناس ثم اضطرته أن يترك مظاهر الغرور والشهرة ، الى حياة التأمل وصفاء النفس عشر

سنوات أو يزيد . وفى ذلك يقول الغزالى : « ثم لما أحسست بعجزى وسقط بالكلية اختيارى ، التجأت الى الله تعـالى التجاء العاجز المضطر الذى لا حيلة له . فأجابنى الذى يجيب المضطر اذا دعاه وسهل على قلبى الاعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب ».

وترك الغزالى بغداد بعد أن تصـدق بماله الا ما ادخره من القليل الذى يئوده ويكفل قوت أولاده ، ثم قصد الى الشام وأقـام بهـا .

وآثر العزلة والرياضة على الطريقة الصوفية ، فكان يعتكـف فى مسجد دمشق ويصعد نهاره الى المنارة القريبة من الجامـع ويغلق على نفسه بابها يتأمل ويتعبد ثم رحـل الى بيت المقدس ، ويذكر أنه كان يدخل الصخرة كل يوم ويغلق بابها على نفسه كشأنه فى مغارة مسجد دمشق .

ومن العسير على المؤرخ أن يحدد الأماكن التى ارتادها أبو حامد منذ سنة ٤٨٤ حتى سنة ٤٩٩ هـ تحديدا تاريخيا دقيقا اذ كان كثير الانتقال يبحث عن العزلة ليخلو فيها بنفسه وهواجسه .

وقد وصف لنا هذه الفترة الغامضة من حياته فقال : « ودمت على ذلك مقدار عشر سنين وانكشف لى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها » ومن المحتمـل أنه ألف فى هـذه الفترة كتاب احياء علوم الدين وكثيرا من الكتب التى كانت تهدف الى بيان عظمة الاسلام وتفوقه على جميع الديانات الأخرى ، والتى حق بسببها أن يسمى حجة الاسلام .

واضطر أبو حامد الى قطع عزلته والعودة الى نشر العلـم والدفاع عن الدين بسبب ما رآه من ضعف الايمان لدى معاصريه ومن كثرة الشبه التى أثارها أعداء الاسـلام وأصـدقاؤه من الجهال .

وقد حدد الغزالى عزلته الطويلة فقال : « وكان الخروج من بغداد فى ذى القعدة سنة ٤٨٨ وبلغت مدة العزلة احدى عشرة سنة وهذه حركة قدرها الله سبحانه وهى من عجائب تقديراته التى لم يكن لها انقداح فى القلب فى هذه العزلة كما لم يكن الخروج من بغداد والنزوع عن تلك الأموال مما خطر أصلا بالبال » ٠

وأخيرا غادر أبو حامد المدرسة النظامية وعاد الى طوس وأنشأ حلقة صوفية وقضى فيها ما بقى من عمره فى التأمل والعبادة حتى توفى رحمه الله فى يوم الاثنين ١٤ من جمادى الثانية سنة ٥٠٥ هـ(١) ٠

٢ ـ كتاب احياء علوم الدين :

هذا كتاب من الكتب الخالدة ، ولا نظير له فى بيان عظمة الاسلام ، وتفصيل مناهجه التعليمية والتربوية والأخلاقية ٠ وقد اشتمل الكتاب على أربعة مجلدات :

المجلد الأول : ربع العبادات ٠

المجلد الثانى : ربع العادات ٠

المجلد الثالث : ربع المهلكات ٠

المجلد الرابع : ربع المنجيات ٠

وقد أخرجته لجنة الثقافة الاسلامية ، فى طبعة بيضاء مصقولة سنة ١٣٥٧ هـ ٠ وقسمته الى أجزاء مجموعها ستة عشر جزءا تقع فى أربع وثلاثين وثلاث آلاف صحيفة ٠

---

(١) الدكتور محمود قاسم ، استاذ الفلسفة بكلية دار العلوم ، محاضرات عام ١٩٥٥ بالكلية ٠

فى المجلد الأول : أسرار العبادات وحكمتها وتفصيلات واسعة وبحوث شائقة وعميقة حول الصلاة والصيام والزكاة والحج .

وفى المجلد الثانى : آداب العادات من الأكل والكسب والمعاش والنكاح والسفر والصحبة ، والأمر بالمعروف ، والحلال والحرام .

وفى المجلد الثالث : ربع المهلكات وهى : كتاب شرح عجائب القلب ورياضة النفس وكتاب كسر الشهوتين وكتاب آفات اللسان . وكتاب ذم الغضب . وكتاب ذم الدنيا . وكتاب ذم البخل . وكتاب ذم الجاه . وكتاب ذم الكبر والعجب ، وكتاب ذم الغرور .

والمجلد الرابع فيه ربع المنجيات : وهى كتاب التوبة . وكتاب الصبر والشكر . وكتاب الخوف والرجاء . وكتاب الفقر والزهد . وكتاب التوحيد والتوكل . وكتاب المحبة والشوق والأنس والرضا بالله تعالى . وكتاب النية والاخلاص . وكتاب المراقبة والمحاسبة ، وكتاب التفكر . وكتاب ذكر الموت .

٣ ـ وقد تأثر صاحب المنار بهذا الكتاب منذ نشأته الأولى وصرح بذلك فقال :

« وكانت أعجب كتب التصوف الى احياء علوم الدين لحجة الاسلام أبى حامد الغزالى ، فهو الذى طالعته كله وكنت أكثر مراجعته وقراءة بعض أبوابه عودا على بدء ، ثم صرت أقرؤه للناس ، وكان له أكبر التأثير فى دينى وأخلاقى وعلمى وعلمى ، وانه لتأثير نافع فى أكثره ضار فى أقله . وقد عالجت الضار منه بعد العلم به »(١) .

---

(١) رشيد رضا او اخاء اربعين سنة ، شكيب ارسلان ، مطبعة ابن زيدون بدمشق . سنة ١٩٣٧م ص ٣٦ .

ومن الضار عدم الدقة فى رواية الحديث . وقد نبغ صاحب المنار فى رواية الحديث ونقد الغزالى فى ذلك .

واستفاد السيد رشيد من أفكار الغزالى ٠ لأنـــه قاد أعنف الحروب على التقليد وعلى الزوائد المتفرعة عن الفقه ، وسخر من ضروب المتعمق فى افتراض الصور والأحوال ومن فروق المذاهب ، كما ألقى وزنا راجحا للتشبع بمعنى التهذيب الخلقى والعمل بروح التشريع فى تعاطى الدين بدلا من أداء العبادات على وجه صورى آلى ٠ فكتبه فى هذا المعنى هى المصدر الذى يؤخذ عنه ، اذا عارضت مدرسة المنار الروح الصورية السائدة للمذهب السنى المحافظ ، حتى فى تناول أسس الاسلام الخمسة ، فأقامت فى وجهها المطـــالب الخلقية التهذيبية السائدة فى القرآن والحديث(١) ٠

٤ ــ ونقل صاحب المنار كثيرا من ابواب الاحياء ، اما بنصها واما بمعناها ٠

فنقل رأيه فى التوبة وحدها ٠ والركن الثانى فيما عنه التوبة وهى الذنوب صغائرها وكبائرها(٢) ، عند تفسيره لقوله تعالى : « **ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما** »(٣) ٠ فتحدث صاحب المنار عن اختلاف العلماء فى الصغائر والكبائر ٠ ثم نقل رأى الغزالى فى السيئات وأنواعها وتقسيمهـا فقال :

« قال الغزالى فى بيان الركن الثانى وهو تمام التوبة وشروطها ودوامها » ٠ ونقل رأيه فى المعاصى وبيان أنها سم قاتل ٠ وكيفية التوبة عنها بالندم على الماضى والاقلاع عن الذنب فى الحال .

---

(١) مذاهب التفسير الاسلامى ، ترجمة د. عبد الحليم النجار ص ٣٦٨ مكتبة الخانجى بمصر سنة ١٩٥٥ م ٠

(٢) تفسير المنار جـ٥ ص ٥٣ ٠

(٣) سورة النساء آية ٣١ ٠

والعزم على الاستقامة فى المستقبل ٠ ثم أبدى اعجابه بالغزالى لدقة فهمه لحكمة القرآن وتطبيقه على فطرة الاسلام(١) ٠

مقارنة : ـ

واذا قارنت بعض موضوعات المنار بنظيرها فى أبواب الاحياء وجدت مطابقة تامة واتفاقا فى التفاصيل ومن أمثلة ذلك :

« محبة العبد لله تعالى »

فقد كتب السيد رشيد رضا عند تفسير قوله تعالى : « **قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله** » كلاما فى حب العبد لربه وانه أسمى الغايات ومن شغل به فهو السعيد حقا(٢) ٠

وهذا الكلام نقله صاحب المنار عن الغزالى بتصرف واختصار ولم يعزه اليه ٠

فقد كتب الغزالى عن محبة العبد لله تعالى اثنتى عشرة ومائة صحيفة فى الجزء الرابع من الاحيـــاء بعنوان : « كتاب المحبـــة والشوق والأنس والرضا » ورغم تأثر صاحب المنار بالغزالى فى فهم الدين فهما تهذيبيا خلقيا ، الا أنه نقده فى شطحاته الصوفية وعدم الدقة فى رواية الحديث ، فعند تفسير المنار لقوله تعالـــى : « **يأيهـــا الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحـــل الله لكـــم** » ٠

(١) المنار جـ٥ ص ٥٤ ، ٥٥ ٠
(٢) المنار جـ٣ من ص ٢٨٤ الى ص ٢٨٧ ٠

وضح السيد رشيد : كمال الاسلام وتوسطه فى القيام بحق البدن وحق الروح ونقد الغزالى لتطرفه فى فهم الزهد ، وبين أن الموضوع الذى كتبه بعنوان : (بيـان فضيلة الجوع وذم الشبع)(١) أكثر أحاديثه لا يعرف المحدثون له أصلا ، وبعضها ضعيف أو موضوع ٠

ثم أراد صاحب المنار أن يفحم الغزالى ومن لف لفه من الزهاد والمتصوفين فنقل من النصوص والآثار ما يؤيد منهج الاسلام فى السماحة والتوسط ٠ ويخطىء الصوفية فى خروجهم عن الاعتـدال فى العبادة ، والمبالغة فى الزهد والتوكل ٠

وعند تفسير صاحب المنار للتوكل بين أنه الأخذ فى الأسباب ثم الاعتماد على الله تعالى ٠

ونقد الغزالى لمبالغته فى التواكل والاستسلام وبين أن ذلك تواكل وعجز « فليس من التواكل الخروج على سنة الله أصلا »(٢)٠

وفى الباب حديث الرجل الذى جاء الى النبى (صلى الله عليه وسلم) وأراد ان يترك ناقته وفى رواية انه قال اأعقلها وأتوكل أم أطلقها ؟ ، فقال النبى (صلى الله عليه وسلم) « اعقلها وتوكل » .

والقارىء للمنار يلاحظ أن صاحبه ينقل آراء الغزالى فى كثير من الموضوعات وفى جميع أجزاء المنار ٠ ففى الجزء الثالث مثـلا نقل رأيه فى أسـباب اختلاف المسـلمين(٣) ٠ ورأيـه فى النقدين

---

(١) المنار جـ٧ ص ٣١ وما بعدها ٠
(٢) تفسير المنار جـ٤ ص ٢٠٧ ، ص ٢٠٨ ٠
(٣) المنار جـ٣ ص ١٢ ٠

والربا(١) ،ورأيه فى صفات الله تعالى(٢) ، ورأيه فى الشكر والتوكل(٣) ٠

وهى آراء حسنة فى مجموعها ، وضارة فى القليل منها ٠ غير أن صاحب المنار مدح الحسن منها وأطراه ، ونبه الى الضار منها لنتجنبه ٠

فلصاحب المنار من الله أحسن الجزاء والمثوبة ٠

---

(١) المنار جـ٣ ص ١١٠ ٠
(٢) المنار جـ٤ ص ١٩٩ ٠
(٣) المنار جـ٣ ص ٢٩ ٠

الخاصة الرابعة :

التوســـع والاطـــالة

١ ـ كان السيد رشيد رضا عالما ضليعا فى نواحى المعرفة الاسلامية ٠

وكان يطيل فى بعض البحوث المتعلقة بالآية طولا مملا يستهلك نشاط القارىء ويلوى ذهنه عن متابعة الآيات القرآنية ٠

لقد فسر السيد رشيد رضا اثنى عشر جزءا من القرآن الكريم وقعت فى ستة آلاف صحيفة(١) فمتوسط صحائف الجزء الواحد خمسمائة صحيفة ٠

ومعنى ذلك أنه لو أكمل تفسير القرآن لوقع تفسيره فى خمسة عشر ألف صحيفة ٠

وهذا العدد الضخم من شأنه أن يزهد الناس فى ذلك التفسير العظيم ٠ وأن يحجب الجمهور عن الانتفاع به ٠

---

(١) عدد صفحات الجزء الاول من تفسير المنار : ٤٩٢ صحيفة والثانى : ٤٩٨ ، والثالث ، ٣٧٦ ، والرابع : ٤٨١ ، والخامس ٤٧٦ ، والسادس ٤٩٢ والسابع ٦٧٢ والثامن ٥٢٣ والتاسع ٦٨٨ والعاشر ٥٠٠ ، والحادى عشر ٥١١ ، والثانى عشر ٣٢٤ ، فعدد الجميع ٦٠٣٣ صحيفة ٠

لقد طبعت جريدة الشعب تفسير جزء عم للأستاذ الامام خمس طبعات متوالية فى زمن متقارب وكانت كل طبعة تقدر بالآلاف المؤلفة وما ان تخرج الطبعة الى السوق حتى يتلقفها الناس ٠ لأنه تفسير مختصر وقريب من الشعب(١) ٠ أما تفسير المنار فقد حشدت فيه بحوث استطرادية كانت تصل الى ٥٠ صحيفة والى ٧٥ صحيفة ٠

وقد عاب صاحب المنار على غيره من المفسرين الاستطرادات الخارجة عن التفسير كما عاب على الفخر بحوثه الطويلة المتنوعة عن السماء والأرض والفلك والهيئة ٠ بيد أنه وقع فيما عاب على غيره ٠

ومن الانصاف أن نذكر أن بحوث الفخر الرازى وغيره لم تكن لها صلة بالتفسير ٠

اما بحوث صاحب المنار فكانت لها صلات تربطها بتفسير القرآن وأهداف الاسلام ومطالب العصر ، وعلم الاجتماع وغير ذلك .

وانى أنصح من يقرأ تفسير المنار أن يقرأ قبله تفسيرا مختصرا مثل تفسير لنسفى الذى يقع فيه تفسير جزء القرآن فى ٣٥ صحيفة .

أو مثل « فى ظلال القرآن » الذى يعرض الأفكار العامة للآيات فى ترابط وتسلسل وروحانية تمس القلب . ويقع تفسير الجزء فى ٩٠ صحيفة ، وبعد أن يقرأ التفسير المختصر يستطيع أن يتابع تفسير المنار ويستفيد مما فيه من درر غالية قد تبعد أحيانا وتأخذ جهدا فى البحث عنها والاحاطة بها ولكنها بعد ذلك ثمينة وقيمة ومفيدة .

---

(١) ثمن تفسير جزء عم ٢٠ قرشا اما ثمن تفسير المنار فهو خمسة جنيهات ، ولعل ذلك من أسباب ترك الناس لتفسير المنار ٠

٣ ـ نموذج من بحوث المنار :

١ ـ فى الجزء الخامس من تفسير المنار بحث فى أصول الشريعة الاسلامية وهى :

أ ـ الكتاب ، ب ـ السنة ، جـ ـ الاجماع ، د ـ القياس ، هـ ـ المصالح المرسلة ·

وتحدث عنها فى اثنتى عشرة مسألة استغرقت أربعا وخمسين صحيفة(١) ·

٢ ـ فى الجزء السادس بحث فى منزلة السنة من الكتاب استغرق أربع عشرة صحيفة(٢) ·

٣ ـ فى الجزء السابع : بحث فى يسر الاسلام ، وفى القياس وكلام العلماء فيه · والمصالح المرسلة وأشهر أئمة الاصلاح فى الاسلام من علماء الحديث والفقه وكتبهم النافعة(٣) ، واستغرق هذا البحث سبعا وسبعين صحيفة(٤) ·

٤ ـ فى الجزء التاسع : بحث فى السحر استغرق ثمان وأربعين صحيفة(٥) ·

---

(١) من صفحة ١٦٨ ـ ٢٢٢ جـ٥ ·

(٢) من صفحة ١٥٤ ـ ١٦٨ جـ٦ ·

(٣) وهم ابن حزم مجدد القرن الخامس : وكتابه المغنى ، والعز بن عبد السلام ، وابن تيمية ق٧ · وتلميذه ابن القيم والحافظ احمد بن حجر العسقلانى وكتابه فتح البارى فى ق٩ · ومحمد بن على الشوكانى وكتابه نيل الاوطار وارشاد الفحول (فى تحقيق الحق من علم الاصول) فى ق١٢ · انظر ص ١٤٥ جـ٧

(٤) من ١٢٥ ـ ٢٠٢ جـ٧ ·

(٥) من ص ٣٦ ـ ٨٤ جـ٩ ·

٥ ــ فى الجزء الثامن : بحث فى مفاسد اللواط وأضراره : استغرق أربع عشرة صحيفة(١) ٠

وقد علل السيد رشيد رضا اطالته فى هذه البحوث والاستطرادات بأنها كانت لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين الى تحقيقها بما يثبتهم بهداية دينهم فى هذا العصر أو يقوى حجتهم على خصومهم من الكفار والمبتدعة أو يحل بعض المشكلات التى أعيا حلها بما يطمئن به القلب وتسكن اليه النفس وأنصح للقارىء أن يقرأ الفصول الاستطرادية وحدها فى غير الوقت الذى يقرأ فيه التفسير »(٢) ٠

٣ ــ واذا نحن نظرنا الى العصر الذى عاش فيه السيد رشيد رضا التمسنا له بعض العذر فى هذه الاطالة ، فقد كانت لها أهداف شرحها ٠ وحققت هذه الاطالة هذه الأهداف ولا تزال تحققها ٠

فبحوث المنار مرجع ممتاز لكبار العلماء والباحثين والمهتمين بالدين ٠ وحجة للمسلمين على خصومهم من الملحدين والمبتدعين ٠ وفيها بيان لمبادىء الدين وتوضيح لأهداف القرآن الكريم ٠

---

(١) من ص ٥٠٨ ــ ٥٢٢ جـ٨ ٠

(٢) تفسير المنار جـ١ ص ١٦ ٠

الخاصـــة الخامســـة :

بيان السنن الاجتماعيـة واسـباب التطـورات التاريخيـة

واسـتنباط ذلك من آيات القرآن الكريم

١ ـ ايقـاظ المسـلمين :

كان السيد رشيد رضا ـ كأستاذه الامام ـ شديد الرغبة فى ايقاظ المسلمين وبعث هممهم .

وقد بين الأستاذ الامام أن لقواعد الاجتماع والعمران قوانين صارمة لا تقل فى دقتها واضطرادها عن القوانين الطبيعية .

وزاد السيد رشيد على أستاذه الاكثار من الشواهد والأمثلة التى رآها تؤيد سنة الله فى الخلق وأن قيام الأمم ونصرها أو هزيمتها مرتهن بأعمالها وسلوكها . وهذه الخاصة أبرز الخصائص والسمات التى تميز تفسير المنار .

وقد وضع أساس ذلك الأستاذ الامام . وتوسع السيد رشيد فى هذه الخاصة توسعا ملموسا يكاد يطغى على جميع الخصائص الأخرى ، مدفوعا فى ذلك بارشاد امامه ، وصفاء

نفسه ، وكثرة مشاهداته . وحالة المسلمين الراهنة التى جعلتهم يحولون القرآن الى تمائم وتعاويذ تجلب النصر وتدفع الضر .

« ذكر الأستاذ الامام أنه لما كان فى أوروبا مر على بلاد المجر وزار دار الآثار فيها فمما وجده محفوظا فى ذلك المتحف قميص الوزير « كوبريلى مصطفى باشا » وهو آخر قائد عثمانى حارب تلك البلاد وبعد قتله تقلص عنها ظل السلطنة العثمانية سنة ١١٠٢ للهجرة .

قال الأستاذ الامام انه رأى ذلك القميص وقد نقشت عليه الآيات القرآنية وخاتم الامام الغزالى واستعاذة الجلجلوتية وأمثال ذلك من الطلاسم وغريب الخواتيم(١) .

٢ ـ سنن الاجتماع :

ورث السيد رشيد رضا امامه ونمى هذا الميراث حتى أصبح ثروة كبيرة خالدة .

قال صاحب المنار فى تفسير قوله تعالى : ((**يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم انهم كانوا كافرين**)) الأنعام١٣٠ .

وعقاب(٢) الله تعالى للأمم وكذا للأفراد فى الدنيا والآخرة أنواع منه ما يسمى عذاب الاستئصال لمن عاندوا الرسل بعد أن جاءوهم بما اقترحوا عليهم من الآيات الكونية وانذارهم الهلاك اذا لم يؤمنوا بعد تأييد الله اياهم بها كعاد وثمود وقوم لوط ، فسنة

---

(١) على هامش التفسير : عبد القادر المغربى : موضوع القرآن .
(٢) تفسير المنار جـ٨ من ١١٠ .

الله فى ذلك خاصـــــة وقد انقطعت بانقطاع الرسل ، اذ ليست جارية عن سائر سنن الاجتماع . ودنه هلاك الأمم بما يغلب عليها من الظلم أو الفسق او الفجور الذى يفســـــد الأخلاق ويقطع روابط الاجتماع ويجعل بأس الأمة بينها شديدا فيكون ذلك سببا اجتماعيا لسلب استقلالها وذهاب ملكها بحســـــب سنن الاجتماع وقد أنذرنا الله هذا فى كتابه وعلى لســـــان رســـوله كما شرحنا من قبل . فيراجع تفصيل ذلك فيما مضى من التفسير(١) .

ويستمر السيد رشيد رضا فى تعليقه على الآية بقوله :

« ثم أن هذه الآية وما فى معناها من الآيات ـــ كآية هود ـــ من قواعد علم الاجتماع البشرى الذى لايزال فى طور الوضع والتدوين . وهو العلم بسنن الله تعالى فى قوة الامم والشعوب وضعفها وعزها وذلها وغناها وفقرها . وبداوتها وحضـــــارتها واعمالها ونحو ذلك ، وفائدة هذا العلم فى الأمم كفائدة علم النحو والبيان فى حفظ اللغة . وفى القرآن الحكيم أهم قواعده وأصوله وقد سبق بعض الحكماء المسلمين الى بيان بعضها وبدأ ابن خلدون بجعله علما مدونا يرتقى بالتدريج كغيره من العلوم والفنون .

ولكن استفاد غير المسلمين مما كتبه فى ذلك وبنوا عليه ووسعوه فكان من العلوم التى سادوا بها على المسلمين الذين لم يستفيدوا من هداية القرآن العليا فى اقامة أمر ملكهم وحضارتهم على ما أرشدهم اليه من القواعد وسنن الله تعالى فيمن قبلهم ولا يزالون معرضين عن هذا الرشاد والهداية على شدة حاجتهم اليها بسبب ما وصل اليه تنازع البقاء بين الأمم فى هذا العصر .

---

(١) يراجع فى جزء التفسير ٧ ص ٣٠٨ ، ٤٩٣ وكذلك لفظ الامم والعذاب والجزاء وسنة الله فى فهرس الجزء السابع وفهارس سائر الاجزاء : ١ . هـ نقلا عن حاشية تفسير المنار .

وانا نرى بعضهم يعزى نفسه عن ضعف أمته ويعتذر عن تقصيرها بالقدر الذى يفهمه مقلوبا بمعنى الجبر أو يسليها بأن هذا من علامات الساعة وارتكس بعضهم فى حمأة جهله بالاسلام حتى ارتدوا عنه سرا أو جهرا زاعمين أن تعاليمه هى التى أضعفتهم وأضاعت عليهم ملكهم . والتمسوا هداية غير هدايته ليقيموا بها دنياهم فخسروا الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين .

٣ ــ سنن الله فى تفسير المنار :

ونلاحظ أن كلام السيد رشيد رضا عن علم الاجتماع كلام فنى دقيق لم يتطرق اليه الخلل ولا الفساد بعد مرور عشرات السنين . فابن خلدون هو الذى دون أساس علم الاجتماع ووضع أهم قوانينه وقواعده .

واستفاد الغربيون من كلامه وادعوا أن « دور كايم » مؤسس علم الاجتماع مع أن « دور كايم » ومدرسته عيال على ابن خلدون ومقدمته وقد أكثر صاحب المنار من ذكر أمثلة علم الاجتماع وقواعده وبين قوانين الدول فى قيامها ونهوضها وتأخيرها وسقوطها . وأن الله لا يحابى فردا ولا أمة . وانما يخضع الجميع لسنن الله ولن تجد لسنة الله تبديلا . وقد ذكر هذه المعانى أكثر من مائة مرة فى تفسيره بأساليب متغيرة ومتجددة .

وما عليك الا أن تتصفح تفسير المنار أو عناوين الصفحات أو تفسير الآيات الاجتماعية والكونية والتاريخية أو تراجع فهارس أجزاء المنار فى لفظ الأمم والجزاء وسنة الله لتشاهد أن القوانين الاجتماعية تحتل مكانا ملحوظا فى هذا التفسير .

وسأنقل هنا ما جاء فى فهارس أجزاء المنار عن سنن الله لتتبين حقيقة ذلك :

ســـــنن الله فى فهارس تفسير المنار

فى فهــرس الجـــزء الثــانى

فى فهــرس الجـــزء الثــالث

فى فهرس الجزء الرابع

فى فهرس الجزء الخامس

فى فهرس الجزء السادس

فى فهرس الجزء السابع

فى فهرس الجزء الثانى

في فهرس الجزء التاسع

فى فهرس الجزء الحادى عشــر

فى فهرس الجزء الثانى عشر

٤ ــ هــدف صــاحب المنــار :

والآن لعلك لاحظت طول الفهرس فضـــلا عن موضوعات الفهرس وعذر السيد رشيد فى الاكثار من هذه الموضوعات . هو حالة العصر الذى عاش فيه . فقد كان المسلمون فى بوادر نهضة وأراد هو أن يسهم فى هذه النهضة من جهة ، وأن يجعلها تسير على أساس من هدى الاسلام ولا تنجرف مع تيار الغرب من جهة اخـــرى .

« فبين أن كتاب الله يشتمل على جميع الحقائق : التى تعبر عنها الآراء الحديثة فى الفلسفة والاجتماع(١) » .

« وأقل ما تعتمده مدرسة المنار فرضا ثابتا لتفسير القرآن على وجه صـــائب هو أن القرآن لا يمكن أن يحتوى على تعليم يتعارض مع حقائق العلم ، بل يشتمل كتاب الله على النظريات العلمية للقرنين التاسع عشر والعشرين وان خفى ذلك على أنظار السطحيين . وانما ينبغى على المرء أن يقرأه بعينين مفتوحتين ، ويفهمه بعقل سليم ، خالص من الأحكام السابقة(٢) .

« ولا تستشعر مدرسة المنار خوفا ولا خشية على الاسلام أمام العلم فهى تعلم جيدا أن كثيرا ممن يصطنع العلم على الطريقـة الأوروبية يطرح تعاليم الدين ظهريا متابعة لما اصطنعه .

ولكن السبب فى هذا هو أنه لم يعرف الاسلام ولم يتعلمه قبل العلم الأوروبى ولا بعده . ولهذا نطـــالب علماء ديننا بأن يجتهدوا فى جعل زمام تعليم العلوم الكونية بأيديهم . لأننا نثق

---

(١) مذاهب التفسير الاسلامى ص ٢٧٥ .
(٢) المرجع السابق .

أتم الثقة فى انه لا يمكن أن يرجع عن الاسلام من عرفه . وكيف يختار الظلمة من عاش فى النور »(١) .

هذه الفكرة تتكرر دائما باطراد ، على صـــــور كثيرة فى التصريحات المنهجية لمدرسة محمد عبده ولاسيما فى تطبيقها على الناحيتين التاريخية والعلمية الطبيعية .

فالقرآن قبل كل شىء ينطق بأن النمو التاريخى والاجتماعى للأمم يسير على سنن ثابتة . ففى كل مكان يوجه القرآن فيه النظر الى سنة الأولين (فى الآية ٣٨ من سورة الأنفال) أو يعبر فى سياقه عن فكرة كهذه الفكرة الكثيرة الورود **« سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا »** (فى الآية ٦٢ من سورة الأحزاب مثلا) يؤخذ النص دائما دليلا على اثبات هذه الحقيقة الواقعــة »(٢) .

فسنة الله التى لا تتبدل ولا تتحول هى القانون السائد فى التاريخ .

ومن هنا كانت دراسة التاريخ احدى المصالح البالغة أقصى الأهمية فى رعاية الاســلام الحقة . وتقدم البواعث الكثيرة ، التى تحث على النظر فى ذلك ، آيات القرآن التى تقص مصاير الأمم السابقة وسوء عاقبة ما اقترفوه من آثام(٣) . ففى ذلك اشارات وبيانات تاريخية . واستخدم هذا التفسير تنبيها مشددا لعلماء الرسوم والأمر(٤) . والدوائر الحاكمــة (الأمراء والســلاطين)

---

(١) تفسير المنار جـ٤ ص ٤٥٣ .

(٢) المنار جـ٩ ص ٥٥ .

(٣) المنار جـ٥ ص ٦٩٣ .

(٤) المنار جـ٨ ص ٤١ — ٦٧ .

لتحميلهم وزر الاهمال فى التربية التاريخية وتقصيرهم بذلك فى اداء واجب الاسلام(١) .

وبهذه الروح يشرح تفسير محمد عبده ومدرسته — بكثرة نسبيا — نظريات حديثة فى القرآن وعلى الأخص نظريات دارون ، ولنقف مثلا عند تفسير الآية ٤٩ وما بعدها من سورة البقرة : **((كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ..))** فان التفسير يتجه فى أنظاره العامة الى أن هذه الآيات تتضمن نظريتى ((تنازع البقاء)) و ((الانتخاب الطبيعى))(٢) . كذلك يراد استخدام الآيتين ٢٥٣ من نفس السورة . **((ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد))** ، ١٧ من سورة الرعد : **((فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض))** .

والجمل المكررة كثيرا : **((والعاقبة للمتقين))** (فى الآية ١٢٨ من سورة الأعراف مثلا) و : **((ان الله لا يصلح عمل المفسدين))** (فى الآية ٨١ من سورة يونس) الخ ، تحمل بكل جد على بقاء الأصلح(٣) . فهذا ارشاد الى تنازع البقاء والدفاع عن الحق ، وأنه ينتهى ببقاء الأمثل وحفظ الأفضل(٤) .

٥ — عيب هذا المنهج :

وهذا المنهج الاجتماعى مفيد للمسلمين حقا . ولكن العيب فيه هو حمل آيات القرآن على النظريات الحديثة ، وهذا عيب وقع فيه السابقون من المفسرين كالفخر الرازى ، وحذر منه

---

(١) المنار جـ٨ ص ٨٩ .

(٢) المنار جـ٨ ص ٩٢٩ - ٩٣٠ .

(٣) المنار جـ٩ ص ٦٠ .

(٤) مذاهب التفسير الاسلامى ترجمة دكتور عبد الحليم النجار من ص ٣٧٥ الى ص ٣٨٣ .

الامام وصاحب المنار ثم وقع صاحب المنار فيما حذر منه . فالقرآن لم ينزل ليكون كتاب اجتماع أو تاريخ ولكنه أشار الى القوانين المفيدة فيهما تحقيقا للعبرة والهداية .

ثم ان هذه النظريات الحديثة متطورة ومتغيرة وتظهر قوانين جديدة تبطل النظريات القديمة ، وهذا يستدعى بطلان التفسير او بطلان القرآن عند بطلان النظرية التى جاء بها . والله تعالى يقول : « **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** » .

ان القرآن يجب أن يظل هكذا اماما يقتدى به ولا يقتدى بغيره ونموذجا يقاس عليه ولا يقاس بغيره . واذا ذكرنا نظريات حديثة فى التفسير نقول انها توافق ما تشير اليه الآية ويكون هذا رأيا منا ، فاذا أخطأت النظرية أخطأ رأينا ولم يخطىء كتاب الله .

وعلى كل فالشيخ رشـــيد مجتهد له أجره ونيته . والنبى (صلى الله عليه وسلم) يقول : « **وانما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله . ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه**(١) » .

فللشيخ رشيد رضا حسن النية وحسن المثوبة من الله تعالى على نبوغه وتفوقه ، وأنه بز علماء التفسير جميعهم فى ابراز القرآن الكريم للناس معجزة دائمة . وهداية عامة شاملة وسعادة لهم فى دينهم ودنياهم . تقرأ طائفة من التفسير فتحس فى خلال القراءة أن من ورائك سوطا من أسواط الحق يسوقك الى الفضيلة

---

(١) رواه البخـــارى .

ويردعك عن الرذيلة وأن صلتك بكتاب الله تعالى وتعلقك به فى هدايته وفقه معانيه هى أغلى شىء فى هذه الحياة . وأعظم شىء ساقه الله اليك ، كما تحس فى ذلك التفسير أنك فى دائرة من المعارف الالهية الكبرى(١) » .

والحمد لله أولا وآخـرا ، والشـكر لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسـلم .

انتهى العمل منه ليلة الجمعة المباركة ٢٦ من جمادى الأول ١٣٧٩ هـ ٢٧ من نوفمبر ١٩٥٩ م بمسجد الامام الشـافعى بالقاهرة .

عبد الله محمود شحاتة

وتمت مراجعة الطبعة الثالثة صباح الأربعاء ٢٤ ذو القعدة سـنة ١٤٢٠ هـ الموافق ١ مارس سـنة ٢٠٠٠ م بمدينـة المقطم تالقاهرة ، والله ولى التوفيق .

---

(١) من تقريظ الشيخ محمد احمد العدوى لكتـاب الوحى المحمدى ، انظر ص ٢١٧ من كتاب الوحى المحمدى للسيد رشيد رضا .

مراجـــع البحـــث

الامام محمد عبده ، ورشيد رضا :
تفسير القرآن الحكيم ، الشهير بتفسير المنار · القاهـــرة ـ المنار ·

الامام فخر الدين محمد الرازى :
مفاتيح الغيب · الشهير بالتفسير الكبير ـ القاهرة ·

الامام ابن جرير الطبرى :
جامع البيان فى تفسير القرآن ـ القاهرة : الأميرية ط١ سنة ١٣٢٣هـ ·

عبد الله بن احمد النسفى :
تفسير القرآن الجليل ، الشهير بتفسير النسفى ، القاهـــرة الحسينية المصرية ·

الحافظ اسماعيل بن كثير :
تفسير القرآن العظيم ·
القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ·

محمد بن احمد القرطبى :
الجامع لأحكام القرآن
القاهرة ، دار الكتب المصرية ·

محمود بن عمرو الزمخشرى :

تفسير الكشاف .

جلال الدين المحلى وجلال الدين السيوطى :

تفسير الجلالين .

المطبعة العربية ١٩٥٣م .

سليمان عمرو العجيلى الشهير بالجمل :

حاشية « الفتوحات الالهية » على الجلالين – عيسى البابى الحلبى .

محمد الآلوسى البغدادى :

روح المعانى – ادارة الطباعة المنيرية .

عبد الجليل عيسى :

تيسير التفسير ط١ ١٩٥٨

الدكتور محمد عبد الله دراز :

النبأ العظيم ، نظرات جديدة فى القرآن الكريم ١٩٥٧م .

محمد محمد المدنى :

المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء مخيمر ١٩٥٧م .

محمود شلتوت :

تفسير القرآن الكريم .

محمد البهى :

الفكر الاسلامى المعاصر وصلته بالاستعمار الغربى ، مخيمر ١٩٥٧م .

عثمان أمين :
رائد الفكر المصرى الامام محمد عبده ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥م ٠

الامام محمد عبده :
الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية : المنار ١٣٤١هـ ٠
تفسير جزء عم المنار ١٣٢٩هـ ٠

محمود شلتوت :
منهج القرآن فى بناء المجتمع ، دار الكتاب العربى ١٣٧٥هـ ٠

المستشرق جولد تسهير :
مذاهب التفسير الاسلامى : ترجمة الدكتور عبد المنعم النجار : السنة المحمدية ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥م ٠

محمد كامل الفقى :
الأزهر وأثره فى النهضة الأدبية الحديثة ، المنيرية ١٣٧٥ هـ ١٩٥٦ م ٠

محمد الغزالى :
نظرات فى القرآن : مؤسسة الخانجى ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨م ٠

سيد قطب :
فى ظلال القرآن : دار احياء الكتب العربية ٠

محمد ابو زهرة :
محاضرات فى النصرانية : مخيمر ١٣٦٨ هـ ١٩٤٩ م ٠

بدر الدين بن على الحنبلى البعلى :
مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية : السنة المحمدية ١٣٦٨هـ ١٩٤٩م ٠

الامام ابن القيم الجوزية :

تفسير سورة الكافرون والمعوذتين : السنة المحمدية ١٣٦٨ هـ ١٩٤٩ م ٠

محمد الخضرى :

نور اليقين فى سيرة سيد المرســـلين ، مصطفى محمد ، ط٤ ١٣٤٤ هـ ١٩٢٦م ٠

الامام أبو حامد الغزالى :

احياء علوم الدين : نشر الثقافة الاسلامية ١٣٥٧ هـ ٠

عباس محمود العقاد :

الله ٠

محمود قاسم :

المنطق الحديث ومناهج البحث : الأنجلو المصرية ١٩٥٣ م ٠

رشيد رضا :

تاريخ الأستاذ الامام محمد عبده : المنار ١٩٣١م ٠

رشيد رضا :

الوحى المحمدى : المنار ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨م ٠

عبد الرحمن بن محمد بن خلدون :

مقدمة ابن خلدون ، شرح وتعليق الدكتور على عبد الواحد وافى : لجنة البيان العربى ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م ٠

محمد محمد المدنى :

مناهج التفكير فى الشريعة الاسلامية ، أحمد مخيمر ١٩٥٧م ٠

محمد بن محمد الأمير :

حاشية على شرح عبد السلام بن ابراهيم المالكى لجوهـــرة التوحيد للامام اللقانى ٠
مصطفى البابى الحلبى ١٣٦٨هـ ١٩٤٨م ٠

رشيد رضا :

تفسير سورة الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ، المنـار ١٣٦٧هـ ٠
شبهات النصارى وحجج الاسلام ، المنار ١٣٦٧هـ ٠

محمد عبد الله دراز :

محاضرات فى تفسير سورة النساء لطلبة ليسانس دار العلوم عام ١٩٥٥م ٠

شكيب أرسلان :

رشيد رضا ، أو اخاء أربعين سنة ، ١٩٣٧م ٠

الحافظ اسماعيل بن كثير :

الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ، صبيح ٠

حسن البنا :

تفسير سورة الفاتحة والآيات الأولى من سورة البقرة ٠ مجلة الشهاب العدد الأول المحرم ١٣٦٧ هـ والأعداد التالية .

عبد القادر المغربى :

تفسير جزء تبارك : المطبعة الأميرية ١٣٧٦هـ ١٩٤٧ م ٠
على هامش التفسير ٠

على حسب الله :

أصول التشريع الاسلامى ٠

عبد الوهاب خلاف :

مصادر التشريع الاسلامى ٠

أحمد محمد جلال :

مع المفسرين والكتاب ٠

السيد أحمد خليل :

نشأة التفسير فى الكتب المقدسة والقرآن ٠

المستشرق الدكتور آرثر جفرى :

مقدمتان من علوم القرآن ٠

أمين الخولى :

التفسير معالم حياته : منهجه اليوم ٠

الامام محمد بن ادريس الشافعى :

أحكام القرآن ٠

الرسالة ٠

الفهـــرس

الموضـوع | الصفحة

البـاب الثـانى

الأسـاس الأول :

الأسـاس الثانى :

الأسـاس الثالث :

الموضـوع	الصفحة
الأسـاس الرابع :	
محـاربة التقليد	٨٥
١ ـ دعوة القرآن الى اقامة الحجة والدليل ...	٨٥
٢ ـ دعوة القرآن الى البحث والاسـتنباط ..	٨٦
٣ ـ مسايرة التراث الاسـلامى للتطور	٨٧
٤ ـ باب الاجتهـاد باق ومسـتمر	٨٩
٥ ـ محاربة التقليد عند الحنابلة وابن تيمية ...	٩٠
٦ ـ مراعاة المصلحـة العامة فى التفسير والفتوى أعمـال الصحابـة تؤيد رعايتهم للمصـالح المرسـلة	٩٢
الأسـاس الخامس :	
اعمال النظر والفكر وأستخدام المنهج العلمى فى البحث والاسـتنباط	١٠٥
١ ـ سبق القرآن فى الدعـوة الى النظر والتأمل	١٠٥
٢ ـ مقارنة بين الأديان فى حرية الفـكر واحترام العقـل	١٠٧
٣ ـ الاقناع وعدم الاكراه من مبادىء الاسلام ..	١٠٩
٤ ـ تأثر الأسـتاذ الشيخ « محمود شـلتوت » بالامـام	١١٢
الأسـاس السادس :	
تحكيم العقل والاعتماد عليـه فى فهم آيات القرآن لا تعارض بين العقـل والوحى	١١٩

الموضـوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الأساس الثامن :

الأساس التاسع :

الباب الثالث

الموضـــوع	الصفحة

الخاصـــة الأولى :

الخاصـــة الثانية :

الموضوع	الصفحة
الخاصة الثالثة :	

صدر من هذه السلسلة

١ ـ مصطفى كامل فى محكمة التاريخ ، د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٢ ـ على ماهر ، رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧

٣ ـ ثورة يوليو والطبقة العاملة ، عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٨٧

٤ ـ التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة ، د. محمد نعمان جلال ، ١٩٨٧

٥ ـ غارات أوروبا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى ، علية عبد السميع الجنزورى ، ١٩٨٧

٦ ـ هؤلاء الرجال من مصر ، ج ١ ، لمعى المطيعى ، ١٩٨٧

٧ ـ صلاح الدين الأيوبى ، د. عبد المنعم ماجد ، ١٩٨٧

٨ ـ رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية ، د. على بركات ، ١٩٨٧

٩ ـ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل ، د. محمد أنيس ، ١٩٨٧

١٠ ـ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية ، محمود فوزى ، ١٩٨٧

١١ ـ مائة شخصية مصرية وشخصية ، شكر القاضى ، ١٩٨٧

١٢ ـ هدى شعراوى وعصر التنوير ، د. نبيل راغب ، ١٩٨٨

١٣ ـ أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان : رؤية تاريخية ، د. عبد العظيم رمضان ، ط ١، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

١٤ ـ مصر فى عصر الولاة ، من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونية ، د. سيدة اسماعيل كاشف ١٩٨٨

١٥ ـ المستشرقون والتاريخ الاسلامى ، د. على حسنى الخربوطلى ، ١٩٨٨

١٦ ـ فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر : دراسة عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢ ـ ١٩٥٢) ، د. حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٨

١٧ ـ القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى ، د. محمد نور فرحات ، ١٩٨٨

١٨ ـ الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية ، د. على السيد محمود ، ١٩٨٨

١٩ ـ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين ،
د. أحمد محمود صابون ، ١٩٨٨

٢٠ ـ دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ : المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهى ،
د. محمد انيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨

٢١ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، ج ١ ،
د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨

٢٢ ـ نظرات فى تاريخ مصر ،
جمال بدوى ، ١٩٨٨

٢٣ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ٢ ، أمام التصوف فى مصر : الشعرانى ،
د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨

٢٤ ـ الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦) ،
د. نجوى كامل ، ١٩٨٩

٢٥ ـ المجتمع الاسلامى والغرب ،
تاليف : هاملتون جب وهارولد بووين : ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩

٢٦ ـ تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ،
د. سعد اسماعيل على ، ١٩٨٩

٢٧ ـ فتح العرب لمصر ، ج ١ ،
تاليف : الفريد ج . بتلر ،
ترجمة : محمد فريد أبو حديد ١٩٨٩

٢٨ ـ فتح العرب لمصر ، ج ٢ ،
تاليف : الفريد ج . بتلر ،
ترجمة : محمد فريد أبو حديد ١٨٨٩

٢٩ ـ مصر فى عصر الاخشيديين ،
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩

٣٠ ـ الموظفون فى مصر فى عصر محمد على ،
د. حلمى احمد شلبى ، ١٩٨٩

٣١ ـ خمسون شخصية مصرية وشخصية ،
شكرى القاضى ، ١٩٨٩

٣٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٢ ،
لمعى المطيعى ، ١٩٨٩

٣٣ ـ مصر وقضايا الجنوب الافريقى : نظرة على الأوضاع الراهنة ورؤية مستقبلية ،
د. خالد محمود الكومى ، ١٩٨٩

٣٤ ـ تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢ ،
د. يونان رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠

٣٥ ـ اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٠

٣٦ ـ المجتمع الاسلامى والغرب ، ج ٢ ،
تاليف : هاملتون بووين : ترجمة

د. احمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٩٠

٣٧ ـ **الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن ،**
د. سليمان صالح ، ١٩٩٠

٣٨ ـ **فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى ،**
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠

٣٩ ـ **قصة احتلال محمد على لليونان (١٨٢٤ ـ ١٨٢٧)**
د. جميل عبيد ، ١٩٩٠

٤٠ ـ **الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب فلسطين ١٩٤٨ ،**
د. عبد المنعم الدسوقى الجميعى ، ١٩٩٠

٤١ ـ **محمد فريد : الموقف والمأساة رؤية عصرية ،**
د. رفعت السعيد ، ١٩٩١

٤٢ ـ **تكوين مصر عبر العصور ،**
محمد شفيق غربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠

٤٣ ـ **رحلة فى عقول مصرية ،**
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠

٤٤ ـ **الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى ،**
د. محمد عفيفى ، ١٩٩١

٤٥ ـ **الحروب الصليبية ، ج ١ ،**
تاليف : وليم الصورى ، ترجمة وتقديم د. حسن حبشى ، ١٩٩١

٤٦ ـ **تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ ـ ١٩٥٧) ،**
ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١

٤٧ ـ **تاريخ القضاء المصرى الحديث ،**
د. لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١

٤٨ ـ **الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الاسلامى ،**
د. زبيدة عطا ، ١٩٩١

٤٩ ـ **العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ ـ ١٩٧٩)**
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

٥٠ ـ **الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤)**
د. سهير اسكندر ، ١٩٩٣

٥١ ـ **تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية ،**
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة ، فى ابريل ١٩٩١) أعدها للنشر : د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

٥٢ ـ **مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين ، فى القرن الثامن عشر ،**
د. الهام محمد على ذهنى ، ١٩٩٢

٥٣ ـ **أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة ،**
د. محمد كمال الدين عز الدين على ، ١٩٩٢

٥٤ ـ الاقبــاط فى مصــر فى العصــر العثمــانى ،
د. محمد عفيفى ، ١٩٩٢

٥٥ ـ الحروب الصليبية ج ٢ ،
تأليف : وليم الصورى : ترجمة وتعليـق : د. حســن حبشى ، ١٩٩٢

٥٦ ـ المجتمع الريفى فى عصر محمـد على : دراسة عن اقليم المنوفية ،
د. حلمى احمد شلبى ، ١٩٩٢

٥٧ ـ مصر الاســلامية واهل الذمة ،
د. ســيدة اسماعيــل كاشف ، ١٩٩٢

٥٨ ـ احمــد حلمى سـجين الحريــة والصحافــة ،
د. ابراهيم عبد الله المسلمى ، ١٩٩٣

٥٩ ـ الراسمالية الصناعية فى مصر ، من التمصــير الى التــأميم (١٩٥٧ ـ ١٩٦١)
د. عبد الســـلام عبد الحـليم عــامر ، ١٩٩٣

٦٠ ـ المعــاصرون من رواد الموســيقى العربيــة ،
عبد الحمد توفيق زكى ، ١٩٩٣

٦١ ـ تــاريخ الاســكندرية فى العصر الحــديث ،
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٣ ،
لمعى المطيعى ، ١٩٩٣

٦٣ ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر الاسلامية ،
تأليف : د. ســيدة اسماعيــل كاشف ، جمــال الدين سرور ، وســعيد عبد الفتاح عاشــور ، اعدهــا للنشر : د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٤ ـ مصر وحقوق الانســـان ، بين الحقيقة والافتراء دراسة وثائقية ،
د. محمد نعمان جلال ، ١٩٩٣

٦٥ ـ مـوقف الصحافـة المصريـة من الصهيونية (١٨٩٧ ـ ١٩١٧)
ســهام نصــار ، ١٩٩٣

٦٦ ـ المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى ،
د. نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٣

٦٧ ـ مســـاعى الســـلام العربيـــة الاسرائيلية : الأصول التاريخية ،
(أبحــاث الندوة التى أقامتهــا لجنــة التاريخ والآثــار بالمجلس الأعلى للثقافة ، بالاشــتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس ، فى ابريل ١٩٩٣) ، أعــدها للنشر : د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٨ ـ الحروب الصليبية ، ج ٣ ،
تألىف : وليم الصورى ، ترجمة وتعلىق : د. حسن حبشى ، ١٩٩٣

٦٩ ـ نوبة موسى ودورها فى الحيــاة المصرية (١٨٨٦ ـ ١٩٥١) ،
د. محمد أبو الأسعاد ، ١٩٩٤

٨٦ ـ تاريخ التجارة المصرية فى عصر الحرية الاقتصادية (١٨٤٠ ـ ١٩١٤)
د. أحمد الشربينى ، ١٩٩٥
٨٧ ـ مذكرات اللورد كلين ، جـ ١ ، (١٩٣٤ ـ ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩٥.
٨٨ ـ التـذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٥
٨٩ ـ تاريخ الموانىء المصرية فى العصر العثمانى ،
د. عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥.
٩٠ ـ معاملة غير المسلمين فى الدولة الاسلامية ،
د. نويمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦.
٩١ ـ تاريخ مصر الحديثة والشرق الاوسط ،
تأليف : بيتر مانسفيلد ، ترجمة: عبد الحميد فهمى الجمال ، ١٩٩٦
٩٢ ـ الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦) جـ ٢ ،
نجوى كامل ، ١٩٩٦
٩٣ ـ قضايا عربية فى البرلمان المصرى (١٩٢٤ـ ١٩٥٨) ،
د. نبيه بيومى عبد الله ، ١٩٩٦
٩٤ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤) ، جـ ٢ ،
د. سهير أسكندر ، ١٩٩٦
٩٥ ـ مصر وافريقيا .. الجذور التاريخية الافريقية المعاصرة ،
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الافريقية بجامعة القاهرة) ، أعدها للنشر ، د. عبد العظيم رمضان
٩٦ ـ عبد الناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ ـ ١٩٧٠) ،
تأليف : مالكولم كير ، ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو
٩٧ ـ العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ،
د. ايمان محمد عبد المنعم عامر
٩٨ ـ هيكل والسياسة الاسبوعية ،
د. محمد سيد محمد
٩٩ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليونانى ـ الرومانى) جـ ٢ ،
د. سمير يحيى الجمال
١٠٠ ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر القديمة ،
أ. د. عبد العزيز صالح ، أ. د. جمال مختار ، أ.د. محمد

آبراهيم بكر ، أ.د. ابراهيم نصحى ، أ. د. فاروق القاضى ، اعدها للنشر : أ. د. عبد العظيم رمضـان .

١٠١ ـ ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ، اللواء/ مصطفى عبد المجيد نصير، اللواء/ عبدالحميد كفافى ، اللواء/ سعد عبد الحفيظ ، السفير/ جمال منصور

١٠٢ ـ المقطم جريدة الاحتلال البريطانى فى مصر (١٨٨٩ ـ ١٩٥٢) ، د. تيسير أبو عرجة

١٠٣ ـ رؤية الجبرتى لبعض قضايا عصره ، د. على بركات

١٠٤ ـ تاريخ العمال الزراعيين فى مصر (١٩١٤ ـ ١٩٥٢) ، د. فاطمة علم الدين عبد الواحد

١٠٥ ـ السلطة السياسية فى مصر وقضية الديمقراطية (١٨٠٥ ـ ١٩٨٧) ، د. أحمد فارس عبد المنعم

١٠٦ ـ الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن ، ج ٢ ، د. سليمان صالح

١٠٧ ـ الأصولية الاسلامية فى العصر الحديث تأليف : دليب هيرو ، ترجمة : عبد الحميد الجمال

١٠٨ ـ مصر للمصريين ، ج ٤ ، سليم خليل النقاش

١٠٩ ـ مصر للمصريين ، ج ٥ ، سليم خليل النقاش

١١٠ ـ مصادرة الأملاك فى الدولة الاسلامية (عصر سلاطين المماليك) ، ج ١ ، د. البيومى اسماعيل الشربينى

١١٢ ـ اسماعيل باشا صدقى ، د. محمد محمد الجوادى

١١٣ ـ الزبير باشا ودوره فى السودان (فى عصر الحكم المصرى) ، د. اسماعيل عز الدين

١١٤ ـ دراسات اجتماعية فى تاريخ مصر، احمد رشدى صالح

١١٥ ـ مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٣ ، أحمد شفيق باشا

١١٦ ـ اديب اسحق (عاشق الحرية) ، علاء الدين وحيد

١١٧ ـ تاريخ القضاء فى مصر العثمانية (١٥١٧ ـ ١٧٩٨) ، عبد الرازق ابراهيم عيسى

١١٨ ـ النظم المالية فى مصر والشام زمن سلاطين المماليك ، د. البيومى اسماعيل الشربينى

١١٩ ـ النقابات فى مصر الرومانية « دراسة وثائقية » حسين محمد أحمد يوسف

١٢٠ ـ يوميات من التاريخ المصرى الحديث (١٧٧٥ ـ ١٩٥٢) ، لويس جرجس

١٢١ ـ الجلاء ووحدة وادى النيل (١٧٧٥ ـ ١٩٥٢) ،
محمد عبد الحميد الحناوى
١٢٢ ـ مصر للمصريين جـ ٦ ،
سليم خليل النقاش
١٢٣ ـ السيد أحمد البدوى ،
د. سعيد عبد الفتاح عاشور
١٢٤ ـ العلاقات المصرية الباكستانية فى نصف قرن ،
د. محمد نعمان جلال
١٢٥ ـ مصر للمصريين جـ ٧ ،
سليم خليل النقاش
١٢٦ ـ مصر للمصريين جـ ٨ ،
سليم خليل النقاش
١٢٧ ـ مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ ـ ١٩٥٨) ،
ابراهيم محمد محمد ابراهيم
١٢٨ ـ معارك صحفية ،
جمال بدوى
١٢٩ ـ الدين العام (وأثره فى تطور الاقتصاد المصرى) (١٨٧٦ ـ ١٩٤٣) ،
د. يحيى محمد محمود
١٣٠ ـ تاريخ نقابات الفنانين فى مصر (١٩٨٧ ـ ١٩٩٧) ،
سمير فريد
١٣١ ـ الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢ (١٩٥٢ ـ ١٩٥٨) ،
تأليف : جايل ماير ، ترجمة : د. عبد الرءوف أحمد عمرو
١٣٢ ـ دار المندوب السامى فى مصر جـ ١ ،
د. ماجدة محمد محمود
١٣٣ ـ دار المندوب السامى فى مصر جـ ٢ ،
د. ماجدة محمد محمود
١٣٤ ـ الحملة الفرنسية على مصر فى ضوء مخطوط عثمانى للدارندلى ،
بقلم : عزت حسن أفندى الدارندلى ، ترجمة : جمال سعيد عبد الغنى
١٣٥ ـ اليهود فى مصر المملوكية (فى ضوء وثائق الجنيزة) (٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ/١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م) ،
د. محاسن محمد الوقاد
١٣٦ ـ أوراق يوسف صديق ،
تقديم : أ.د. عبد العظيم رمضان
١٣٧ ـ تجار التوابل فى مصر فى العصر المملوكى ،
د. محمد عبد الغنى الأشقر
١٣٨ ـ الاخوان المسلمون وجذور التطرف الدينى والارهاب فى مصر ،
السيد يوسف .
١٣٩ ـ موسوعة الغناء المصرى فى القرن العشرين ،
بقلم : محمد قابيل
١٤٠ ـ سياسة مصر فى البحر الأحمر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ١٢٢٦ ـ ١٢٦٥ هـ/ ١٨١١ ـ ١٨٤٨ م ،
طارق عبد العاطى غنيم بيومى

١٤١ ـ وسائل الترفيه فى عصر سلاطين سلاطين المماليك فى مصر ،
لطفى أحمد نصار

١٤٢ ـ مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٤ ،
أحمد شفيق باشا

١٤٣ ـ دبلوماسية البطالمة فى القرنين الثانى والأول ق.م. ،
د. منيرة الهمشرى

١٤٤ ـ كشوف مصر الافريقية فى عهد الخديوى اسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩)
عبد العليم خلاف

١٤٥ ـ النظام الادارى والاقتصادى فى مصر فى عهد دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م)
د. منيرة الهمشرى

١٤٦ ـ المرأة فى مصر المملوكية ،
د. أحمد عبد الرازق

١٤٧ ـ حسن البنا ، متى .. كيف .. لماذا ؟
د. رفعت السعيد

١٤٨ ـ القديس مرقس وتأسيس كنيسة الاسكندرية ،
تأليف : د. سمير فوزى ، ترجمة: نسيم مجلى

١٤٩ ـ العلاقات المصرية الحجازية فى القرن الثامن‌عشر ،
حسام محمد عبد المعطى

١٥٠ ـ تاريخ الموسيقى المصرية (أصولها وتطورها)
د. سمير يحيى الجمال

١٥١ ـ جمال الدين الافغانى والثورة الشاملة ،
السيد يوسف

١٥٢ ـ الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية (٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م) ،
د. محاسن محمد الوقاد

١٥٣ ـ الحروب الصليبية (المقدمات السياسية) ،
د. علية عبد السميع الجنزورى

١٥٤ ـ هجمات الروم البحرية على شواطىء مصر الاسلامية فى العصور الوسطى ،
د. علية عبد السميع الجنزورى

١٥٥ ـ عصر محمد على ونهضة مصر فى القرن التاسع عشر (١٨٠٥ ـ ١٨٨٣) ،
د. عبد الحميد البطريق

١٥٦ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية ج ٣ (فى العصر الاسلامى) ،
د. سمير يحيى الجمال

١٥٧ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية فى العصر الاسلامى الحديث ج ٤
د. سمير يحيى الجمال

١٥٨ ـ نائب السلطنة المملوكية فى مصر (من ٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ/١٢٥٧ ـ ١٥١٧ م)
د. محمد عبد الغنى الأشقر

١٥٩ ـ حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢) ج ١ ،
د. محمد فريد حشيش

١٦٠ ـ حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢) ج ٢ ،
د. محمد فريد حشيش

١٦١ ـ السيف والنار فى السودان ،
تأليف : سلاطين باشا

١٦٢ ـ السياسة المصرية تجاه السودان (١٩٣٦ ـ ١٩٥٣)
د. تمام همام تمام

١٦٣ ـ مصر والحملة الفرنسية ،:
المستشار/محمد سعيد العشماوى

١٦٤ ـ الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ ،
(أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الافريقية بجامعة القاهرة « ٢٠ ـ ٢١ ديسمبر عام ١٩٩٧ »)
اعداد : أ. د. عبدالعظيم رمضان

١٦٥ ـ التعليم والتغيير الاجتماعى فى مصر فى القرن التاسع عشر ،
سامى سليمان محمد السهم

١٦٦ ـ مذكرات معتقل سياسى صفحة من تاريخ مصر ،
السيد يوسف

١٦٧ ـ الحركة العلمية والأدبية فى الفسطاط منذ الفتح العربى الى نهاية الدولة الاخشيدية ،
د. صفى على محمد

١٦٨ ـ مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات ،
يسرى عبد الغنى

١٦٩ ـ مدن مصر الصناعية فى العصر الاسلامى الى نهاية عصر الفاطميين (٢١ ـ ٥٦٧هـ/٦٤٢ ـ ١١٧١م)
د. صفى على محمد عبد الله

١٧٠ ـ القرية المصرية فى عصر سلاطين المماليك (٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م) ،
مجدى عبد الرشيد بحر

١٧١ ـ تاريخ الجالية الأرمنية فى مصر القرن التاسع عشر ،
محمد رفعت

١٧٢ ـ تاريخ اهل الذمة فى مصر الاسلامية (من الفتح العربى الى نهاية العصر الفاطمى ج ١) ،
د. فاطمة مصطفى عامر

١٧٣ ـ تاريخ أهل الذمة فى مصر الاسلامية (من الفتح العربى الى نهاية العصر الفاطمى ج ٢) ،
د. فاطمة مصطفى عامر

١٧٤ ـ مصر وليبيا فيما بين القرن السابع والقرن الرابع ق.م ،
د. أحمد عبد الحليم دراز

١٧٥ ـ محمد توفيق نسيم باشا ودوره فى الحياة السياسية ،
عادل ابراهيم الطويل

١٧٦ ـ الملاحة النيلية فى مصر العثمانية (١٥١٧ ـ ١٧٩٨ م) ،
د. عبد الحميد حامد سليمان

١٧٧ ـ سياسة مصر العسكرية ـ ازاء حروب الشرق الأوسط ،
لواء دكتور/ صلاح سالم

١٧٨ ـ العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام الكبرى فى القرن الثامن عشر ،
د. سحر على حنفى

١٧٩ ـ دور الحامية العثمانية فى تاريخ مصر (١٥٦٤ ـ ١٦٠٩ م) ،
د. طلعت سعد السيد العبد

١٨٠ ـ الحقيقة التاريخية حول قرار تاميم شركة قناة السويس ،
د. عبد العظيم رمضان

١٨١ ـ الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد جـ ١)
ترجمة وتحقيق وتعليق : أ. د. حسن حبشى

١٨٢ ـ الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد جـ ٢)
ترجمة وتحقيق وتعليق : أ. د. حسن حبشى

١٨٣ ـ شاهد على العصر ،
مذكرات محمد لطفى جمعة

١٨٤ ـ المنوفية فى القرن الثامن عشر ،
ياسر عبد المنعم محاريق

١٨٥ ـ تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصرى (١٨٢٠ ـ ١٨٨٥م)
د. أحمد أحمد سيد أحمد

١٨٦ ـ العقائد الدينية فى مصر المملوكية بين الاسلام والتصوف ،
د. أحمد صبحى منصور

١٨٧ ـ نيابة حلب فى عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م/ ٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ) جـ ١ ،
د. عادل عبد الحافظ حمزة

١٨٨ ـ نيابة حلب فى عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م/ ٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ) جـ ٢ ،
د. عادل عبد الحافظ حمزة

١٨٩ ـ يهود مصر منذ عصر الفراعنة ،
عرفه عبده على

١٩٠ ـ العلاقات السياسية بين مصر والعراق (١٩٥٠ ـ ١٩٦٣ م) ،
عبد الحميد عبد الجليل أحمد شلبى

١٩١ ـ اليهود فى مصر جـ ١ ،
د. محسن على شومان

١٩٢ ـ اليهود فى مصر جـ ٢ ،
د. محسن على شومان

١٩٣ ـ الامام محمد عبده ،
د. عبد الله محمود شحاته

رقم الايداع ٨٤٨٦/٢٠٠٠

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 6686 — 3

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
فـــرع الصــــحافة

هذا الكتاب يتحدث عن منهج الإمام محمد عبده فى تفسير القرآن الكريم، الذى كان يتخذه أداة لمحاربة الأفكار الرجعية والتخلف فى فهم الدين، ويدعو فيه إلى الرجوع بالدين إلى منابعه الأولى.

وقد قسم الدكتور عبدالله شحاته كتابه إلى ثلاثة أبواب: الباب الأول، وقد تحدث فيه عن حياة الشيخ محمد عبده، أما الباب الثانى فقد تناول فيه منهج الشيخ محمد عبده فى تفسير القرآن الكريم، مقارنا بمناهج المفسرين السابقين، أما الباب الثالث والأخير، فقد تحدث فيه عن تلامذة الإمام محمد عبده فى التفسير.

والكتاب على هذا النحو يقدم جانبا مهما من جه الشيخ محمد عبده، ويرسم صورة قد لا يحيط المؤرخون.



٤٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب